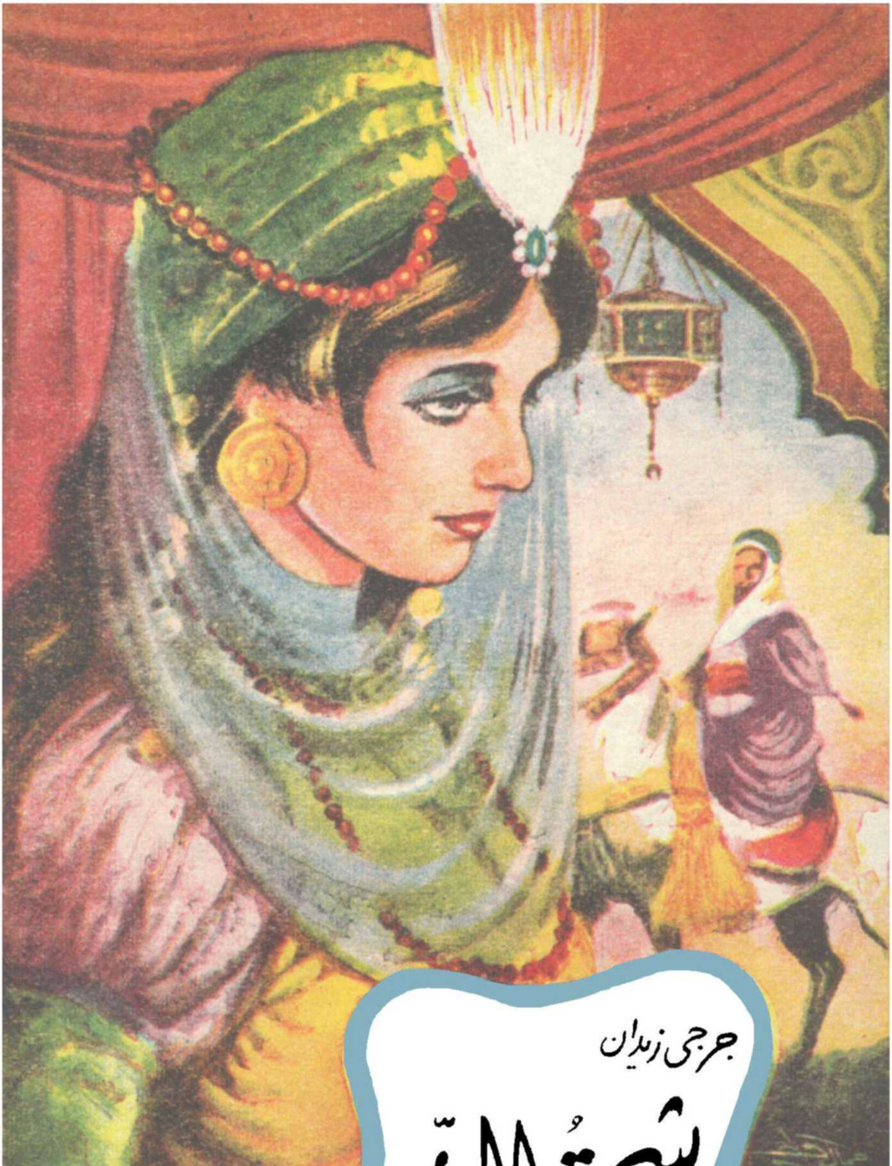
روايات تاريخ الإسلام



جرجي زيدان

شجرة الدر

دار الهلال

شجرة الدر

رواية تاريخية

تتضمن مبايعة شجرة الدر زوجة الملك الصالح ، وسيرة الأمير ركن الدين بيبرس الملقب بالملك الظاهر ، وحالة الخلافة العباسية فى أيامها الأخيرة وانتقالها من بغداد الى مصر على أثر افتتاح التتر عاصمة الخلافة بقيادة هولاكو وقتلهم الخليفة

تأليف

جرجى زيدان

دار الهلال

أبطال الرواية

* **شجرة الدر**	: زوجة الملك الصالح
* **شوكار**	: جارية شجرة الدر
* **عز الدين ايبك التركمانى**	: قائد الجيش
* **ركن الدين بيبرس**	: أحد أمراء الجيش
* **سلافة التركية**	: جارية الملك الصالح
* **سحبان**	: تاجر أقمشة من بغداد
* **المستعصم بالله**	: آخر الخلفاء العباسيين
* **هولاكو التترى**	: حفيد جانكيزخان
* **مؤيد الدين بن العلقمى**	: وزير المستعصم بالله

مراجع هذه الرواية

هذه هى المراجع التى اعتمد عليها المؤلف فى تاليف الرواية ووقائعها التاريخية :

* حسن المحاضرة للسيوطى
* تاريخ ابن اياس
* الهلال مجلد ١٩
* تاريخ الفخرى
* سيرة الملوك
* معجم ياقوت
* تاريخ ابن جبير
* تاريخ مصر الحديث لجرجى زيدان

— ١ —

الدولة الأيوبية

فرغنا من رواية « صلاح الدين » وقد دخلت مصر فى حوزته .. ثم توارثها السلاطين من أولاده واخوته وأولادهم وأحفادهم . وبنى صلاح الدين قلعة القاهرة ، وجعلها مقر ملكه بمصر . واقتسم الأيوبية الملك فى مصر والشام .. وأفضت السلطنة بمصر سنة ٦٣٧ هـ ، الى السلطان الملك الصالح بن الكامل ، فأكثر من اقتناء المماليك الاتراك وجمع منهم نحو ألف مملوك ، بنى لهم قلعة فى جزيرة الروضة .. جعلهم يقيمون فيها ، كما جعل تلك القلعة المركز الرئيسى لملكه .. ونقل اليها أهله وحاشيته فضلا عن مماليكه ، بدلا من قلعة القاهرة ..

وفى أيامه حمل الصليبيون على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، والملك الصالح مريض . وأمر بالتجنيد للاستعداد للحرب ، لكن الصليبيين ظفروا بدمياط بخيانة بعض أهلها ، وفرار بعض أمرائها . وتوفى الملك الصالح على أثر ذلك ، وخلفه ابنه غياث الدين طوران شاه ، وسموه الملك المعظم . وكان النفوذ لشجرة الدر ، احدى جوارى الملك الصالح ، وهى التى دبرت أمور الدولة بعده وكتمت خبر موته ، حتى جاءوا بابنه غياث الدين من سوريا وبايعوه سنة ٦٤٧ هـ

وعاد المصريون لمحاربة الصليبيين ففازوا ، وأعادوا الصليبيين على أعقابهم بعد معارك حامية ، وأسروا الملك لويس التاسع وكثيرا من ضباطه وكبار جنده

ووقع الخلاف بعد ذلك بين رجال الملك المعظم غياث الدين هذا ، ومماليك أبيه الصالح .. فثار هؤلاء المماليك عليه ، فخاف منهم وحاول الفرار .. ولكنه لم ينج ، فقتلوه شر قتلة قرب بلدة فارسكور ..

فلما مات الملك المعظم أجمع المماليك على مبايعة شجرة الدر ، وهى أول امرأة تأتى لها ذلك فى الاسلام .. وبدأ التنازع على السيادة بينها وبين بعض الأمراء المماليك ، وبينها وبين بقية الدولة الأيوبية وغيرهم من طلاب السيادة ، وأفضت السلطة أخيرا الى المماليك الاتراك وتوارثوها .. وفى أيامهم ، سطا التتار على بغداد بقيادة هولاكو ، وقتلوا الخليفة المستعصم ، وانتقلت الخلافة الى مصر

— ٢ —

جزيرة الروضة

— ما أجمل ضوء القمر ياشوكار ..

— انه جميل ياسيدتى .. ليس أجمل منه الا الجلوس بين يديك والتمتع بحديثك ..

فأجابتها سيدتها : « انك تتملقيننى ياشوكار .. ولا تقولين

الحق .. من منا أكثر تمتعا بصاحبتها .. أنا ؟ وليس فى حديثى الا المتاعب والمشاكل السياسية ؟.. أم أنت ، وقد وهبك الله كل ما تتمناه الغانيــات من جمال الخلقــة والذكاء ، ورخامة الصوت ، ولطف العشرة . وانت فى مقتبل العمر ، وانا فى حدود الكهولة وقد اناخ على الدهر بأثقاله ومشاكله »

فخجلت شوكار من هذا الاطراء وبادرت الى الجواب قائلة : « العفو ياسيدتى .. انك تخجليننى بهذا الاطراء ، ومن أكون انا حتى أعد شيئا مذكورا بجانب مولاتى شجرة الدر ، محظيــة الملك الصالح ــ رحمــه الله ــ وأم ولده ؟.. وقد خصك الله بمواهب لم يخص بها أحد من البشر سواك . ليس فى النساء ياسيدتى امرأة تطمع فى بعض ما نلته ، زادك الله رفعة.. و.. و..»

فبادرت شجرة الدر الى قطع حديث جاريتها شوكار بسرعة . فوضعت يدها على فمها بلطف ، وهى تبتسم لها ، وفى ابتسامتها انقباض ، وقد أبرقت عيناها من كثرة التفكير ، ثم تنهدت تنهدا عميقــا وقالت : « تحسديننى على ما تتوهمينه فىّ من رفعة القدر ؟ من هنا يأتى سبب شقائى .. » قالت ذلك وأطرقت وهى مقطبة الجبين ، فتهيبت شوكار من مظهرها .. ولم تجبها

وكانت شجرة الدر جالسة على مقعد من الأبنوس فى شرفة المصطبة ، فى أحد قصور الملك الصالح التى بنــاها فى جزيرة الروضــة ، تطل على مجرى النيل الى مسافة بعيدة . وجزيرة الروضة من أجمل جزر النيل بين مصر القديمة والجيزة التى طالما

اتخذها الملوك متنزها . وقد جعلها مولاها الملك الصالح مقرا لملكه بدلا من القلعة حيث كان أسلافه يقيمون . وأنشأ فى الروضة هذه قلعة فخمة عرفت بقلعة المقياس ، نسبة الى مقياس قديم للنيل هناك .. وسمّوها أيضا قلعة الروضة ، أو القلعة الصالحية

وكان فى موضع القلعة أبنية كثيرة فيها القصور ، والمساجد ، والمعابد ، ودور الصناعة لبناء السفن ، والهودج الذى بناه الآمر بأحكام الله الفاطمى لجاريته ، وقد اشتهر أمره . فهدم الملك الصالح كل هذه الأبنية .. وبنى القلعة فى مكانها ، وأنفق عليها أموالا طائلة . وفى جملة ما بناه فيها قصور ، ومنازل ، ومسجد ، ونقل اليها العمد ، والأساطين الصوان والجرانيت والرخام ، من الهياكل القديمة ، وغرس فيها الأشجار ، والرياحين . وبنى فى القلعة ستين برجا ملأها بالأسلحة وآلات الحرب ، وما يحتاج اليه من الغلال والأقوات ، خوفا من محاصرة الافرنج .. لأنهم كانوا يعتزمون غزو مصر .. وقد بالغ فى اتقان تلك الأبنية حتى قيل ان الحجر الواحد من أحجارها كلفه دينـــارا . وكان يقف بنفسه ويشرف على العمل (١) ، فلما تـم بناؤها نقل اليهـــا أهله ونساءه وجواريه ، وفرق فيها مماليكه وعددهم نحو ألف مملوك

وأنشأ خارج سور القلعة فى مكان خاص بناء عظيما ، جمع فيه أنواع الوحوش من الأســـود ، والنمور ، وغيرها .. كى يشاهدها السلطان

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ٧٦٣ الجزء الثانى

وكانت شجرة الدر فى جملة جواريه ، وقد استولدها ولدا اسمه خليـــل ، فقربها منه .. وكانت هى على جانب عظيم من الدهاء والذكاء ، فغلبت على ارادته ونالت نفوذا عظيما عنده . فلما مات فى المنصورة سنة ٦٤٧ هـ ، كتمت أمره وظلت تقوم بأمور الدولة عنه ، وتوقع على الأوامر بتوقيعه خوفا من الفشل ، وهم فى حرب مع الصـــليبيين .. لكنها أسرّت الخبر الى كبار الأمراء ، ولاسيما عز الدين ايبك التركمانى ، وكانت بينه وبينها مودة .. فبعث أعيان الأمراء الى ابنه غياث الدين من حصن كيفا ، فاستقدموه وولوه عليهم وواصلوا محاربة الصليبيين ..

أما شجرة الدر ، فانها عادت الى تلك القلعة وأقامت فيها .. وفى خاطرها أشياء لم تطلع عليها أحدا ، ورغم ثقتها العظيمة بشوكار لم تفاتحها بشىء منها

أما فى تلك الليلة المقمرة ، فقد جاشت أشجانها وأرقت لسبب تعلمه هى ، ولا يعلمه سواها . وكانت كثيرة الاستئناس بشوكار جاريتها ، وهى جميلة الطلعة ، رخيمة الصوت .. تتقن العزف على العود . فلما أرقت دعتها اليها للاستئناس بها ، والاستمتاع بصوتها .. وارتدت شجرة الدر ثوبا بسيطا ، والتفّت بمطرف من الخز وجلست على الشرفة ، وأطلت على مجرى النيل

وقد سكنت الطبيعة ، وهدأ النسيم.. الا ما يعبث منه بشعرها المرسل على ظهرها ، وقد ضمته وأرسلته بغير عناية .. ولم تحسن الالتفاف بمطرفها بحيث لو نظرت اليها لتبيّن لك انها فى شغل

هام .. ناهيك بما فى عينيها من دلائل القلق ، ويكاد الشرر يتطاير منهما لفرط ما جاش فى خاطرها من البلابل . وهى امرأة ، لكنها ليست كسائر النساء .. لها قلب الرجل ، ومطامع كبار الرجال . اذا عزمت على أمر لا تبالى بما يقف فى سبيلها من العقبات ، لأنها تذللها بأية وسيلة كانت ، على نحو ما يفعل عظماء الرجال ، وأرباب المطامع ، ولا سيما فى ذلك العصر

أما شوكار جاريتها الخاصة فانها فتاة تركية مثلها ، لا تزال فى مقتبل العمر .. كانت شجرة الدر تحبها وتطرب لصوتها ، وتكاد لا تفارقها ، فهى مستودع أخبارها وأسرارها . لكن شجرة الدر كانت لفرط دهائها لا تفتح قلبها لأحد ، ولا تأمن أحدا على أسرارها الهامة . ولذلك كان كبار المماليك يهابونها ويحسبون لها حسابا ، وقد استولت على قلوبهم تيها واعجابا

— ٣ —

سر مغلق

خرجت تلك الليلة من قصر الملك الصالح ، أجمل قصور تلك الجزيرة وأثمنها رياشا وزخرفا ، وهى كما وصفناها ومعها جاريتها شوكار . ومشت فى دهليز مسقوف يؤدى الى مصطبة لها شرفة تطل على النيل .. فجلست على مقعد مكسو بالديباج المزركش ، وجاريتها تعزف على العود وتغنى لها أغنيات تعوّدت أن تطلب اليها انشادها ، وهى مستغرقة فى هواجسها تنظر الى



«فجلست شجرة الدر على مقعد مكسو بالديباج المزركش ، وجاريتها تعزف على العود وتغنى لها الغنيات تعودت ان تطلب اليهـــا انشـــادها ..»

النيل ومنظره كالفضة اللامعة من تكسر أشعة القمر على سطحه.. ولولا ما يتخلل بياضــه من التموج والاهتزاز لم تشك فى انه فضة خالصة .. أو هو كالمرآة ، وكانت مراياهم تصنع حينذاك من الفضة المصقولة بدلا من الزجاج ، ومما يوهم النــاظر أن سطح النيل مرآة حقيقيــة ما يتراءى فيه من نجوم السماء ، ولا سيما القمر ، لكنه لم يكن يظهر جميلا صقيلا

وكأنها أحست بطول سكوتها واشتغالها عن غناء شوكار ، فأجالت بصرها على الضفة المقابلة من النيل فى شاطىء الجيزة ، وعليها النخيل صفوفا ، وقد أرسلت رءوسها فى الفضاء ، كأنها أسراب من العذارى يحملن المظلات ، وقد وردن الماء ، فلما أشرفن على ضفة النيل تهيبن ، فوقفن كالأصنام ينظرن الى مجراه .. وظهرت ظلال النخيل ملونة فى الماء ، وأكسبها النيل حركة اهتزازية كأن أولئك العذارى نزلن للاغتسال ، فارتعدت أجسامهن من البرد ، أو من الحياء ــ ووراء النخيل يتراءى الهرمان كأنهما جبلان ، وقد غلبا على طوارىء الحدثان ــ فأرادت شجرة الدر أن توهم جاريتها انها سكتت تهيبا للطبيعة الجميلة ، فقالت لها : « ما أجمل ضوء القمر ياشوكار .. »

فسرت شوكار لأن سيدتها قد سرى عنها ، وزادت امتنانا حين سمعت اطراءها لصوتها .. لكنها ما لبثت أن رأتها تعود الى الانقباض ، وأخذت تشكو من حالها ، وان ما تحسدها عليه من النعيم انما هو سبب شقائها . فانقبضت نفس شوكار ، وأرخت

العود من يدها وتقدمت حتى جثت عند قدمى سيدتها وقبلت ركبتها وقالت : « ما الذى يشغلك ياسـيدتى ؟ .. ما الذى يقلقك ؟ .. أم انك لا تثقين بى مع علمك انى مستودع أسرارك ، وليس لى شاغل سواك .. وانى أفديك بروحى » وغصت بريقها من شدة التأثر ..

فابتسمت شجرة الدر لها ووضعت يدها على رأسها ، وجعلت تعبث بشعر الفتاة وبوجهها بين كفيها ، كأنها شاب يداعب فتاة يحبها .. وشوكار مطرقة يلذ لها ذلك لأنه دليل ارتياح مولاتها لحديثها . وهان على شـجرة الدر أن تفاتح جاريتهـا ببعض هواجسها ، وهى تحسبها خالية الذهن من أمرها ، وتحسب سرها مكتوما عنها كل الكتمان .. وذلك من الأوهام الشـائعة عند أصحاب الأسرار . يكتم المحب حبه ويلذ له كتمانه لتوهمه انه لا يعلم به أحد سوى حبيبه . وقد يكون ذلك الحب حديث الجيران والخدم ليـل نهار .. وقس على ذلك أكثر الأسرار ، ولا سيما ما كان منها يتعلق بالعامة فانه لايخفى على الجمهور ، لكنهم يسـكتون عنه فيتوهم صاحبه انه سر مغلق على الناس كافة . وهب انه يخفى على الجيران ، فهو لا يخفى على الخدم والجوارى ، لأن هؤلاء لا شاغل لهم غير استطلاع الأسرار ، والتوسع فيهـا ، والتكهن بما يكون من أمرها .. لكنهم فى الغالب يشوهون الحقيقة بما تصوره لهم أخلاقهم وميولهم ..

فكانت شوكار على بينة من هواجس سيدتها ، وان لم تصب

الحقيقة تماما .. لكنها تجاهلت وتوسلت الى شجرة الدر أن تكاشفها بسرها ، فقالت لها شجرة الدر : « لا أخفى عنك سرا كما تعلمين ، لكن ما أكتمه ليس مما يهمك الاطلاع عليه »

فقالت شوكار : « لا أطلب الاطلاع عليه لأنه يهمنى ، لكننى أطلب ذلك لعلمى انالانسان اذا صرح بما يثقل عليه أو يكابده ، لشخص يحبه أو يثق به ، فان ذلك يخفف ثقل أعبائه ومتاعبه »

فضحكت شجرة الدر على سبيل المداعبة وقالت : « يظهر يا بنية انك قد اختبرت المتاعب النفسية .. ولذة المكاشفة .. »

فأطرقت خجلا وقالت : « ليس عندى أسرار أكتمها أو أبوح بها ، وليست أسرارى مما يصح الاهتمام بها .. لكنى أعرف ذلك عن سواى .. فهل أنا مخطئة ياسيدتى ؟ .. »

قالت شجرة الدر : « كلا .. انك تقولين الصواب .. ولكن دعينا من ذلك الآن ، واطربينا بشىء من صوتك الرخيم .. »

لم تعتبر شوكار ذلك الرفض مقصودا ، لأنها قرأت نقيضه فى عينى شجرة الدر ـ والعينان أصدق من اللسان ـ فاستأنفت الكلام قائلة : « انى طوع ارادتك ياسيدتى فيما تريدين ، لكننى أود أن أخفف عنك قلقك .. »

فأحبت شجرة الدر أن تكون جاريتها البادئة بالحديث ، فقالت لها : « ماذا تظنين سبب قلقى ؟ .. »

قالت شوكار : « من أين لى أن أعلم بذلك .. وليس فيما أعلمه من أحوالك سوى ما يدعو الى السرور والفخر .. الا

أن يكون هناك سر له علاقة بالقلب .. حتى هذا فانك قد نلت منه ما لم ينله سواك.. ان الأمراء كافة يتمنون رضاك ويعدون التفاتك نعمة ، ويكفى لاكتساب قلب أحـدهم أن تنظرى له نظرة رضى .. على انك فى غنى عن ذلك بمكانتك المرموقة من قلب مولاى عز الدين ايبك ، وهو كبير الأمراء ويتمنى لفتـة منك .. و ... »

فلما ذكرت اسمه أجفلت شجرة الدر ، وتصاعد الدم الى وجنتيها ، وقطعت كلام شـوكار وهى تظهر عدم الاهتمـام وقالت : « ليس هـذا الأمر مما يهتم له أمثالى يا شوكار ، وانما هو للفتيات نظيرك .. »

— ٤ —

الملك المعظم

فأظهرت شوكار انها صدقتها بالرغم مما تعلمه بما بين شجرة الدر وعز الدين ايبك التركمانى ، كبير الاتراك ، من صلات المحبة . فحولت كلامها الى موضوع آخر ، وقالت : « اصفحى يامولاتى عن جسارتى واعذرينى على خطئى ، فلعل شواغلك تتعلق بأحوال الدولة .. على أثر وفاة سيدى الملك الصالح ، رحمه الله .. »

فابتدرتها شجرة الدر قائلة : « نعم .. نعم .. انها تتعلق بما نحن فيـه من الخطر ، والحرب قائمة بيننـا وبين الافرنج فى

المنصورة وفارسكور » ..

فقالت شوكار : « ولكن الأخبار الواردة الينا حسنة على ما أعلم . ألم يأتنا الطائر مبشرا بالنصر ؟.. ثم حمل الينا الرسول خبر انتصار جنودنا على الفرنسيين ، وانهم قتلوا منهم ثلاثين ألفا ، وأسروا الملك لويس وحبسوه فى دار ابن لقمان . ثم جاءنا رسول يحمل رسالة أخرى وعليه ثوب ملك الافرنج نفسه ، وهو الأشكر لاط المخمل الأحمر بفرو سنجابى وقلنسوة من ذهب . وقد زينت له القاهرة زينة لم يسمع بمثلها (١) أم تظنين ان ذلك غير الواقع ؟ .. »

قالت شجرة الدر : « بل هو الواقع بعينه »

قالت شوكار : « اذن ما الذى يغضبك ياسيدتى ؟ .. »

فتنهدت شجرة الدر وقالت : « لقد أحرجتنى ياشوكار .. فلا بد من أن أطلعك علي جانب من الخبر ، ان قلقى ليس خوفا من الافرنج .. فان جندنا ، ولا سيما الاتراك هؤلاء الذين بنى مولانا الملك الصالح هذه القلعة لهم ، أشداء .. وقد ظهرت بسالتهم فى الحرب التى ذكرتها ، ولكننى أخشى الانقسام بين جندنا من سوء تصرف الملك المعظم طوران شاه .. » قالت ذلك وهزت رأسها هز الندم

فقالت شوكار : « هل تأذن لى مولاتى بكلمة وان كنت لا أفهم شيئا من أحوال الدولة ، ولا شأن لى بتدبير المملكة ..

(١) ابن اياس ٨٦ الجزء الاول

أظنكم أخطأتم باستقدام هذا السلطان من حصن كيفا وتوليته السلطة .. وعندكم من الأمراء من هو أكفأ منه .. »

فقالت شجرة الدر : « ولكن الناس لايذعنون للسلطان الا اذا كان من الأسرة المالكة ، آل أيوب ، ولولا ذلك لهان الأمر . ولو كان طوران شاه هذا عاقلا لاستقام الأمر .. ولكنه غلام جاهل أحمق يشرب الخمر، فاذا سكر فعل ما لا يفعله الأطفال .. وقد بلغنى انه يصفّ الشموع فى الليل أمامه ، ويأخذ السيف بيده ويضرب به تلك الشموع وهو يقول : « هكذا أفعل بالمماليك البحرية » يعنى مماليكنا الاتراك .. وما برح منذ جاءنا ، ولم يمض عليه شهران ، وهو يفضل مماليكه الاكراد الذين أتوا معه على مماليكنا ، ويردد ذلك فى مجالسه ، مع ان النصر فى حروب الافرنج انما كان بفضل أبطالنا ولا سيما مولاك عز الدين ، وركن الدين بيبرس ، وسيف الدين قطز، ونحوهم .. واننى أخشى أن يطول النزاع بين الجندين ، ويغتنم العدو فرصة النزاع فيعود علينا .. » وسكتت لحظة وهى مطرقة ، ثم بلعت ريقها واستأنفت الحديث قائلة : « ولكننى دبرت تدبيرا اذا أفلح سلمنا من الخطر .. » قالت ذلك ونهضت وأظهرت انها فى شاغل .. خوفا من أن تستزيدها شوكار بيانا ، وهى لا تريد كشف ذلك التدبير لها ..

فنهضت شوكار وقد أدركت غرضها ، وتشاغلت باصلاح العود وهى تنظر الى النيل .. وفى الطبيعة الهادئة ما يشغل

الخاطر ، لكنها ما لبثت أن لاحظت فيما تراه من ماء النيل عن بعد اضطرابا على سطحه كدر ذلك اللمعان ، فتطلعت فاذا هى ترى شبحا كبيرا سابحا فى الماء قادما من الشمال ، ولم تتمالك حين تبينته أن صاحت : « هــذه سفينة قادمة الينا .. ولا بد لقدومها فى هذا الليل من غرض مهم .. »

وكانت شجرة الدر تتشاغل باصلاح شعرها ، فلمـا سمعت صراخ شوكار التفتت وتفرست فى السفينة وصاحت : « هــذه عشارية عز الدين .. ما الذى جاءنا به يا ترى من الأخبار ؟ » قالت ذلك وهرولت وهى تلتف بالمطرف ، وتبعتها شوكار فى مثل دهشتها كأنهما تطلبان المرفأ

وكان للروضة مرفأ جميل تقف عنده السفن منذ كانت فيها دار الصناعة .. ومن هذا المرفأ الى داخل القلعة طريق مختصر ، لكن شجرة الدر بعد أن دفعتها الدهشة الى طلب المرفأ عادت الى رشدها وتراجعت ، وتظاهرت بأنها ذاهبة الى الايوان الكبير الذى كان الملك الصالح يجلس فيه لاستقبال الوفود أو الأمراء

— ٥ —

ركن الدين بيبرس

وكان ذلك الايوان من أفخر الأبنيــة ، بذل الملك الصالح جهده فى اتقانه وزخرفته . وهو فى قاعة كبيرة قائمة على أعمدة من الرخام .. وقد زيّن ســقفها بالرسوم المذهبة والنقوش من

النوع المعروف بالمقرنص .. وعلى جدرانها كتابة جميلة بصفائح الذهب والرخام الأبنوسى والكافورى والمجزع ، مما يذهل الأفكار ويستوقف الأبصار (١)

وكانت شجرة الدر لم تدخل هذا الايوان بعد أن توفى الملك الصالح منذ شهرين وبعض الشهر ، فاضطرت لاخفاء اضطرابها أن تنزل اليه ، فأمرت أحد الخصيان أن يفتحه ، فدخلت وشوكار وراءها وقد أدركت قلقها ، وشعرت أنها تريد الخلوة هناك ، فتراجعت شوكار عند الباب وقالت : « أستأذن فى الانصراف ياسيدتى »

قالت شجرة الدر : « الى أين ؟ »

قالت شوكار : « الى حيث تأمرين .. وانما أخشى أن يكون فى وجودى هنا اثقال عليك .. »

فأشارت اليها أن تدخل وقالت : « تعالى يا شوكار لا ينبغى أن أخفى عنك شيئا »

فدخلت وجلست شجرة الدر على سرير من الذهب فى صدر الايوان ، كان يجلس عليه الملك الصالح .. وأشارت الى شوكار فجلست على كرسى مذهب بين يديها وقد أضىء الايوان بالشموع ، وظهرت نقوشه الجميلة .. وتأملت شوكار سيدتها وهى جالسة على سرير الملك وضحكت ، فلاحظت ضحكها ، فقالت لها : « ما بالك تضحكين يا شوكار ؟ .. »

---

(١) السيوطى ٢٦٩ الجزء الثانى

قالت شوكار : « انى مسرورة ياسيدتى من جلوسك .. وقد استبشرت فيه خيرا .. ان هذا المجلس لائق بك .. »

فخفق قلب شجرة الدر لهذه البشرى لأنها من طلاب السيادة وهى أهل لها ، لكنها أنكرت ذلك على شوكار .. وأظهرت انها تستبعد هذا الأمر لأنها ليست أهلا له ، وشغلت نفسها باستدعاء قيم تلك الدار .. فلما حضر أمرته أن يذهب الى المرفأ ، واذا جاء أحد برسالة فليأت بها اليها فى ذلك الايوان

وجلست وهى تتظاهر بالجلد .. لكنها كانت على مثل الجمر من شدة القلق . وكانت شوكار جالسة بين يديها تشاغلها بالحديث عما فى تلك القاعة من التحف ، وما أنفقه الملك الصالح فى تلك الأبنية . وهى تظهر الاهتمام بالموضوع وتقص عليها ما رأته من اهتمام الملك الصالح باتقان ذلك البناء

وبينما هما فى ذلك اذ سمعت شجرة الدر صوت نفير بعيد ، فعلمت انه علامة وصول السفينة الى المرفأ ، فخفق قلبها ولبثت فى الانتظار . وقد لاحظت شوكار قلقها ولكنها تجاهلت .. ولم يمض وقت طويل حتى جاء الغلام يقول : « ان الأمير ركن الدين بيبرس بالباب .. » ..

فقالت شجرة الدر : « فليدخل .. »

فدخل شاب طويل القامة قد تزمل بعباءة تغطيه كله ، ثم نزع العباءة .. وقد كان شابا جميل الخلقة ، صبوح الوجه ، عليه هيبة الشيوخ ونضارة الشباب .. لم يتجاوز عمره يومئذ ٢٣

سنة ، وعليه الدروع والخوذة كأنه فى ساحة الحرب وهو قادم من هناك .. فلما دخل حيًا شجرة الدر تحية لم تحيًا بمثلها من قبل .. ففهمت شيئا ، لكنها تجاهلت وقالت : « ما وراءك يا ركن الدين ؟ .. »

فالتفت يمينا وشمالا كأنه يحاذر أن يسمعه أحد . فأدركت انه يحمل خبرا سريا لا ينبغى أن يصرح به جهارا .. فأشارت الى الخدم بالخروج واحتفظت بشوكار وأشارت اليه أن يتقدم نحوها فتقدم فقالت : « ما وراءك أيها الشاب الأمير ؟.. قل ولا بأس من وجود عزيزتى شوكار ، بل لابد من وجودها وهى طالما أعجبت بشهامتك .. قل ما وراءك ؟ »

فاستغربت شوكار ما روته شجرة الدر عنها ، وانها معجبة بركن الدين ، ولم تجد باعثا على ذلك فى تلك الساعة فسكتت واتجهت بكليتها لسماع ما يقوله ركن الدين .. أما هو ، فلما سمع قول شجرة الدر عن اعجاب شوكار به التفت اليها فوجدها فى غاية الجمال واللطف ، وفى عينيها معنى جمع بين الحدة والذكاء والسحر . وكان يسمع برخامة صوتها لأن ذلك كان شائعا فى القصر . لكنه توجه نحو شجرة الدر وقال : « ان ورائى أمرا ذا بال ، وخبرا هاما لا أدرى اذا كان يسر مولاتى أو يسوءها .. »

فأجفلت ونظرت فى عينيه باهتمام ، وقالت : « قل ما هو .. ولا يهمنّك اذا ساءنى ، أو سَرنى ، فانى لا أتوقع من هذه الدنيا

سلامة .. »

فقال ركن الدين : « ان الملك المعظم طوران شاه ابن مولانا الملك الصالح قد لقى حتفه فى هذا الصباح .. وبعثنى مولاى الأمير عز الدين ايبك لأنقل هذا الخبر اليك ريثما يصل هو الى هنا فى صباح الغد ، ولم يشأ أن يرسله مع الطائر مبالغة فى الكتمان .. لكنه دفع الى هذه البطاقة الصغيرة مختومة ، وأمرنى أن أدفعها اليك يدا بيد » . قال ذلك ، وأخرج من جيبه بطاقة دفعها اليها ..

فلما سمعت بموت طوران شاه ، ظهرت الدهشة فى عينيها .. لكنها تجلدت وتناولت البطاقة وفضتها واقتربت من المصباح وقرأتها فاذا فيها : « الى الجهة الصالحية والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب . أما بعد : فانى مسرع فى ارسال البشارة بذهاب ذلك الشاب المغرور الى حال سبيله بطريقة يقصها عليك الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى حامل هذه البطاقة اليك . وكان لهذا الأمير النصيب الأكبر من العمل فى هذا السبيل ، وهو يستحق تقديرك .. وعندى خبر آخر سأتلوه عليك فى الغد شفاها ان شاء الله »

قرأت البطاقة لنفسها ، وعادت الى مخاطبة ركن الدين كأنها لم تقرأ شيئا ، فقالت : «هل أنت على ثقة من قتل الملك المعظم ؟»

قال ركن الدين : « نعم ياسيدتى .. انه قتل .. »

قالت شجرة الدر : « هل قتل سرا ؟ .. »

قال ركن الدين : « كلا ياسيدتى .. انه قتل جهرا .. »

قالت شجرة الدر : « ومن قتله ؟ .. »

قال ركن الدين : « نحن قتلناه لأنه لم يترك للصلح مكانا ، وقد بالغ فى الطيش والهوج وكرر مغاضبتنا وأسمعنا الاهانة .. ولم يعجبه المماليك البحرية مماليك أبيه الملك الصالح .. وكلما ذكروا أمامه استخف بهم .. مع انهم أصحاب السيف ، حماة هذه الدولة .. وهم الذين ردوا الافرنج عن هذه البلاد . وقد صور له طيشه انه الفاعل لما يريد ، واننا حشرات لا يعتد بنا ، حتى بلغنا انه كان يصف الشموع ، ويأخذ رءوسها بالسيف وهو يقول : انه هكذا سيفعل بنا .. وقد صبرنا على ذلك حتى بلغنا ان هذا لايرضى مولاتنا أم ولد الملك الصالح ــ رحمه الله ــ فأضمرنا له السوء ، فلما كان صباح اليوم باكرا جلس فى موكبه من الأمراء ، والأكراد أصحابه بين يديه ، ورءوس النواب واقفون أمامه بعصى كسيت بالذهب ، كأنه يقول لنا انى سلطانكم رغم أنفكم .. فصبرنا عليه حتى مضى الموكب وحضر السماط فجلس عليه كجارى العادة ، فتقدم اليه جماعة منا بأيديهم السيوف ضربوه على أصابعه فقطعوها ، فقام وهرب ودخل البرج الخشبى وأغلق عليه بابه ، فأطلقنا النارعلىالبرج فخرج منه وألقى نفسه فى البحر وصار يسبح فيه والنشاب يأخذه من كل ناحية ، وهو يقول : « خذوا ملككم ودعونى أرجع الى حصن كيفا » . فلم يغثه أحد. وما زال على ذلك حتى قتل .. فكأنه مات حريقا غريقا قتيلا ،

فأخرجناه من البحر وتركناه على الشاطىء ، وسيبقى هكذا حتى لا يُعرف له قبر .. »

— ٦ —

طارق قلبى

وكان ركن الدين يقص خبره باهتمام ، وشجرة الدر مصغية لا تبدى حراكا ، لكن الاهتمام باد فى عينيها ، فلما فرغ من كلامه قالت : « مات طوران شاه ـــ رحمه الله ـــ انه أخطأ فى تصرفه ، ولم يحسن سيـاسة الملك الذى أعطيناه اياه .. وكل من لا يسوس الملك يخلعه » ثم نظرت الى ركن الدين وقالت : « وهل عندك خبر آخر غير هذا ؟ .. »

قال ركن الدين : « عندى خبر سيتلوه عليك مولاى الأمير عز الدين ايبك فى صباح الغد .. »

قالت شجرة الدر : « لعله خبر هام ؟ .. »

قال ركن الدين : « أظنه كذلك .. » وابتسم

فأدركت شـيئا من مراده ، لكنها حولت الحديث وقالت : « لم تخبرنى عن القواد الأبطـال الذين فتكوا بالملك المعظم هذا ، هل أنت منهم ؟ .. »

قال ركن الدين : « نعم .. انى أحقرهم .. وقد فعلت ذلك بأمر مولاى الأمير عز الدين .. »

فأعجبها تواضعه واحتشامه ، فقالت : « أراك تتنصل كأنك

تعد هـــذا العمل عارا .. انه عمل يحق لك الافتخار به ، وقد أنقذت البلاد من الخراب لأن هذا الرجل لم يكن أهلا للسلطة ، ولو طال بقاؤه فى هذا المنصب لجر علينا الدمار .. فلا تخف ، وقد أنبأنى عز الدين ببلائك . وأنا طالما توسمت فيك البسالة والاقدام وسيكون لك شأن عظيم . فاذا صدق توسمى فيك أهديتك أثمن ماعندى..» قالت ذلك ونظرت الى شوكار وضحكت

فأدركت شوكار غرضها فغلب عليها الحياء ، لأنها لم يخطر ببالها حب أحد . وقد كفاها من نعم المولى أن تكون حائزة على رضى سيدتها شجرة الدر . فلما سمعت تلميحها تصاعد الدم الى وجنتيها وأطرقت .. وودت لو انها بالنقـــاب لتغطى وجههـــا ، لكنها لم تكن تستعمل النقاب بين يدى الأمراء ..

أما ركن الدين بيبرس فأعجبه اطراء شجرة الدر شجاعته . وكان يسمع بجاذبية شوكار ولطفها وجمال صوتها ، ولم يكن يتوقع أن تكون يوما من نصيبـــه .. لكنه رأى شـــجرة الدر تشترط عليه للظفر بها أن يصدق توسمها فيه ، فلم يدر بماذا يجيب .. فقال أخيرا : « أشكر لمولاتى حسن ظنها بعبـــدها ، وأرجو أن أكون أهلا لثقتها . وعلى كل حال انى رهين اشارتها بما تأمرنى به فأفديها بروحى »

ففرحت شجرة الدر بهذا التصريح لأنها انما أرادت أن يكون طوع ارادتها لتستخدمه فى أغراضها ، لما تحققته فيه من البسالة ورباطة الجأش ..

ولما سمعت شوكار موافقة ركن الدين على تلك الصـورة أحست بشيء لم تحس بمثله من قبل .. وظهر التأثر فى عينيها ، وخفق قلبها خفقانا لم تعرفه من قبل.. لكنها أطرقت وظلت ساكتة

وأما شجرة الدر فقد سرها ما وفقت اليه من مقتـل الملك المعظم ، وهى التى كانت أمرت المماليك أن يقتلوه ، ولولا ذلك لم يجسروا على قتله . وقد أغراهم على ذلك عز الدين ايبك حبيبها ، وهو كبير قواد المماليك . وكان لركن الدين بيبرس اليد الطولى فى هذا العمل ، وكانت قد سمعت من عز الدين عن بسالته وتفانيه فى طـاعته وطـاعة شجرة الدر .. فأرادت أن تستزيده من طاعتها فوعدته بشوكار . فلما لاحظت تعلق آماله بها تحركت فى مجلسها كأنها أرادت استئناف الحديث فقالت : « ومتى يصل البنا الأمير عز الدين ؟ .. »

قال ركن الدين : « أظنه يصل فى صباح الغد ، وسيأتى معه سائر الأمراء والعسكر ، وسيحدث تغيير عظيم فى أمور الدولة . وقد حفظ الأمير عز الدين حق هذه البشارة لنفسه ، وحرمنى منه .. وهو أهل لذلك ، فهو كبيرنا ومولانا »

فضحكت شـجرة الدر وهى تنهض عن السرير ، وقالت : « أظنك نلت جائزة حسنة .. وانما أرجو أن تحقق ظنى فيك يا ركن الدين » ..

فأدرك انها تصرفه ، فتحول وهو يلتفت الى شوكار لفتـة الوداع وهى لا ترفع بصرها اليه .. لكنها رأته ورآها وتفاهمت

العيون وتناجى القلبان .. وما أسرع تناجيهما اذا توافقت الطباع

خرج ركن الدين وقد شغله ذلك الوعد عن دهشة الخبر الذى حمله من فارسكور الى القاهرة ، وما يرجى أن يحدث من التغيير فى أمور الدولة بسببه .. وسار توا الى برج من أبراج القلعة كان يقيم فيه مع بعض المماليك من رفاقه

— ٧ —

عز الدين ايبك

أما شجرة الدر ، فانها حين توارى ركن الدين مشت نحو شوكار ، وهى تجر مطرفها وراءها ، فنهضت لها احتراما وأطرقت امتنانا وهى لا تدرى .. هل أحسنت اليها بذلك الوعد ، أم أساءت ؟ .. ولم تستقر أفكارها لتحكم فى الأمر ، فابتدرتها شجرة الدر قائلة : « أرجو أن تكونى مسرورة من هذا النصيب يا شوكار .. »

فرفعت بصرها والخجل يغشاه ، فرأت شجرة الدر تنظر اليها نظر المداعب فأجابتها : « يظهر ان سيدتى شجرة الدر ملت رفقتى فأرادت التخلص منى .. » وضحكت ..

قالت : « لا .. لكننى نظرت الى مستقبلك البعيد ، فمن كانت فى مثل ما أنت فيه من الجمال والعلم ورخامة الصوت يجب أن تنال نصيبا حسنا . وأنا على ثقة من ان هذا الشاب الباسل من خيرة الشبان وله مستقبل مجيد . فاذا أخطأ ظنى فيه ولم يكن

الرجل الذى أرضاه لك لا أزوجك به . لا تخافى فانى شـديدة الغيرة على مصلحتك لأنك بمنزلة ابنتى كما تعلمين .. والآن ينبغى لنا أن نتهيأ للذهاب الى الفراش ، فقد تعبنا .. » ..

فقالت شوكار: « ولكن التعب جاء بنتيجة ترضينها ياسيدتى . ان الرجل الذى كنا نشكو منه قد مضى لسبيله ، وعادت الأمور الى مجاريها .. فمن ياترى سيتولى هذه السلطنة ؟ .. أرجو أن لا يعودوا الى بيت أيوب مرة أخرى ، ان هؤلاء قد مضت أيامهم .. ولكل أيام دولة ورجال .. »

فأظهرت شجرة الدر انها خاليـة الذهن من أمر المستقبل . وانها تتوقع أن تعرف الحقيقة فى الغد البعيد بعد مجىء عز الدين. فأكبت شـوكار على يد شجرة الدر فقبلتهـا للوداع ، فقبلت شجرة الدر رأسها ..

ولمـا خلت شجرة الدر بنفسـها انصرفت من باب سرى فى الايوان الى قصرها وقد توسط الليل . فلما صارت فى غرفتها كان الخصيان قد أناروها وهى فى أجمل ما تكون من الرياش ، وعلى جدرانها ستـائر الديباج عليها الأبيات من الشعر ، أو الصور والنقوش بأزهى الألوان . فما أن دخلت غرفتها حتى استلقت على سريرها واستغرقت فى هواجسها وجعلت تناجى نفسها قائلة : « قتلوا طوران شاه لا أقامه الله .. وقد قتل بسعى عز الدين حبيبى » ولما ذكرت اسمه تنهدت وقالت : « هو حبيبى لكنه شرير ، لا أظنه أمينا فى محبته .. وهؤلاء الرجال لا يؤمن

جانبهم من هذا القبيل . ما لى وله ، فليكن كما يشاء . ألم يخدمنى فى هذا الأمر . ليس بعد قتل طوران شاه الا أن يعود الملك الى يدى . هكذا وعدنى عز الدين ، فهل بر بوعده ؟ .. يظهر انه فعل .. فاذا صرت ملكة فأنا أول ملكة فى الاسلام ، وسأكافىء عز الدين خيرا لأنه أخلص الخدمة فى مصلحتى .. »

قضت هزيعا من الليل فى مثل هذه الهواجس .. ولما نامت حلمت انها تولت الملك وقبضت على صولجانه ، لفرط رغبتها فى هذا المنصب مهما كلفها الوصول اليه .. فقد كانت من طلاب السيادة بأية وسيلة كانت ، وقد مر ذلك فى خاطرها منذ ولدت للصالح ابنها خليلا لعلمها انه سيكون وسيلة الى مطامعها ، أو يكون هو السلطان ، وهى الوصية عليه ، ولكنه توفى طفلا ..

وفى صباح اليوم التالى ، جاءتها الجارية الموكلة بالاشراف على غرفتها ، وقالت : « ان الأمير عز الدين ايبك ينتظرك فى الايوان ياسيدتى .. »

فنهضت وأصلحت من شأنها ، وبذلت جهدها فى ذلك كى تظهر بين يدى حبيبها فى أجمل مظهر .. وهذه طبيعة فى النساء على الاجمال ، فكيف فيمن تعلق على ذلك الحب غرضا سياسيا مهما ؟ .. لبست ثوبا مخططا معتم اللون ، وضفرت شعرها ضفائر قليلة أرسلت منها اثنتين الى جانبى وجهها ، وغطت رأسها بقبعة مرصعة بحجارة كريمة فوق الجبين ، ولها ذيل مزركش يغطى العنق من الخلف حتى يسترسل الى الظهر . وقد تقلدت

عقـــدين : أحـــدهما من اللؤلؤ ، والآخر من العقيق وغيره . وتمنطقت بمنطقة مشبكها من الذهب المرصع .. وبرغم أنها على أبواب الكهولة ، فقد كانت نضارة الشباب لا تزال تتـــلألأ فى محياها ، ولا تزال عيناها ترسلان اشعاعات الهيبة والقوة الى قلوب الناظرين ، وليست اشـــعاعات اللطف والوداعة كما فى عينى شوكار ..

وكان عز الدين ايبك يشعر بقوة تلك المرأة وسيطرتها على قلبه ويحبها حب الهيبة والاحترام ، لا حب عطف وتلهف . وزاده رغبة فيها ما كان يعلمه من منزلتها عند الملك الصالح ، وتقدمها فى داره ونفوذها عليه ، فتودد اليها .. وهى قد أحبته مثل حبه لها ، ووافق ذلك مصلحتها لأنها مع مطامعها الواسعة لا حول لها وهى امرأة ، فلا تطمع فى قيادة جنـــد تستعين بهم فى تحقيق أغراضها ، فرأت فى ارتقـــاء عز الدين الى منصب كبير أمراء المماليك فائدة لها فأعانته على الظفر بذلك المنصب فى عهد الملك الصالح .. فلم ينس هذا الجميل لها . ولما سنحت فرصة أخرى يخدمها فيها بقتل طوران شاه ، قام بتدبير ذلك لمصلحته أيضا ..

فلما أتم عمله بالأمس ، بعث مع ركن الدين بجانب من الخبر ، واحتفظ ببقيته لنفسه ليتلذذ بسماع الاطراء والاعجاب بدهائه وبسالته . ولكى يغتنم الفرصة للاجتزاء من الغنيمة لنفســـه . وجاء فى ذلك الصباح على جواده مع جماعة من حاشيته وقواده .

ولم يرتح الا قليلا ، ثم جاء الى الايوان .. وبعث الى شجرة الدر لتوافيه الى هناك ..

- ٨ -

الخبر السار

ولم تمض برهة حتى جاء الخصى بخبر قدومها ، فوقف لها عز الدين . ولما أقبلت أكب على يديها كأنه يقبلهما .. فأجفلت وتراجعت ، فأشار اليها أن تجلس على السرير ، وجلس هو بين يديها .. وأمرت الخدم بالخروج ، فلما خلت به قالت : « أهلا بك ياعز الدين .. قد بلغنا بلاؤك فى انقاذ البلاد من ذلك الغلام ، جزاك الله خيرا .. انها خدمة فى مصلحة المسلمين »

قال عز الدين : « انما فعلت ذلك فى خدمة سيدتى وحبيبتى شجرة الدر وطوعا لأمرها » قال ذلك بلهفة المحب الولهان

فأثر كلامه فى خاطرها وهى تحبه ، فهاجت أشجانها ، فقالت : « انى أقدر لك هذا الجميل ياعز الدين .. وليست هذه هى المرة الأولى التى برهنت فيها على صدق مودتك ، فأنا أسيرة ودك » ..

قال عز الدين : « يكفينى منك لفتة رضى ياسيدتى ، ولاسيما الآن بعد أن صرت ملكة المسلمين »

فتظاهرت بالدهشة ، وقالت : « ملكة المسلمين؟ ماذا تقول ؟»

قال عز الدين : « انت الآن ملكتى والقابضة على قلبى وستصبحين غدا ملكة المسلمين وعصمة الدنيا والدين ... »

قالت شجرة الدر : « وكيف ذلك ؟ أفصح .. »

قال عز الدين : «حينما قتل الملك المعظم أمس اجتمع الأمراء ، ودار الحديث على من يتولى السلطة بعده . واختلفت الآراء فقلت لهم : « اننا لا نحب أن نستقدم أحدا من آل أيوب ، وقد رأينا مصيرنا معهم ، وشدد آخرون بأنه يجب أن يكون السلطان من البيت الأيوبى ، فقلت لهم : نتخذ طريقا وسطا .. نحن انما نحترم من الأيوبيين مولانا الملك الصالح ــ رحمه الله ــ ولا نأمن أحدا من أهله .. وهذه أم ولده خليل كانت أعز الناس عليه وهى عاقلة مدبرة ومن أبناء جلدتنا ، تغار علينا ، فأرى أن نوليها هذا المنصب . فرضى القوم بذلك واتفق رأيهم أن تكونى ملكة على مصر .. ألا يحق لى أن أقبّل يدك وأطلب رضاك ؟ » ..

قالت شجرة الدر : « معاذ الله .. استغفر الله .. انك حبيبى وصاحب الفضل على لأنى لولاك لم أحصل على هذا المنصب . فاذا تم لى الملك فأنت صاحب النفوذ الأول فيه .. فأدعوك مدبر المملكة ، ومن هو أولى به منك ؟ .. »

فانشرح صدر عز الدين لهذا الوعد ، وهو ما كان يتمناه كى يتدرج منه الى ما هو أعظم .. فأظهر الامتنان ، وانه لايستحق هذا التقدير ونحو ذلك من أسباب المجاملة

أما هى فانها عرفت لصديقها فضله ، وأخذت تثنى على علو همته وغيرته ، وانها لا تثق الا به وقالت له : « انى لا أستغنى عنك فى تدبير شئون المملكة »

فقال عز الدين : « انت فى غنى عن تدبيرى ، لكننى طوع ارادتك فيما تأمرين »

وقضيا ساعة فى الحديث ، وكلٌ منهما قد طار قلبه فرحا بما ناله ، ثم قالت : « ومن الحكمة أن نوزع المناصب على أصحابنا الذين معنا من الجند لتأييد هذه الدولة .. فماذا ترى ؟ »

قال عز الدين : « قد دبرت كل شىء ولا يخفى على حبيبتى شجرة الدر أن جندنا مؤلف من أتراك ، وجركس ، وروم ، وأكراد ، وتركمان ، وأكثرهم من المماليك المبتاعين . وانما يهمنا نحن أن نقوى الاتراك لأنهم جندنا الأصليون فنقدمهم فى مناصب الدولة وهم كما تعلمين طبقات من حيث المناصب ، وفيهم أمراء المئين وأمراء الألوف ، وكلهم من الفرسان الأشداء وهم عضد الجند وقوته .. فنوزع هذه الوظائف على كبار الأمراء الذين أخذوا بناصرنا فى هذا العمل ، ومناصب الدولة غير العسكرية عديدة ، أعظمها أمير السلاح وهو الذى يتولى حمل السلاح للسلطان فى المجامع الجامعة . والدوادار الذى يبلغ الرسائل عن السلطان ويقدم القصص اليه ، ويتلو على من يحضر الى الباب ، ويقدم البريد ان حضر ، ويأخذ خط السلطان على عموم المنشورات والتوقيعات والكتب . والحاجب يقف بين الأمراء والجند . وأمير جاندار وهو يسلم الزردخانة ومن أراد السلطان قتله كان على يده .. والأستاذدار واليه أمر بيوت السلطان كلها

وغير ذلك من المناصب (١) فما الذى ترينه من أمر هذه المناصب ولا بد من ارضاء الجند بالعطايا »

قالت شجرة الدر : « انى تاركة أمر ذلك كله اليك لأنك ستكون مدبر المملكة ، فتولى هذه المناصب من تثق بهم من رجالك والذين تعتقـد فيهم الاخلاص لنا . لكننى أطلب أمرا واحدا وهو أن تنظر فى أمر ركن الدين بيبرس الشاب الذى الذى بعثت رسالتك معه .. انه من خيرة الأمراء ، فولّه منصبا بحيث يكون قريبا منا .. »

فلما سمع اطراءها أحس بالغيرة ، وبرغم ثقته بركن الدين حدثته غيرته أن يطعن فيه — هى الغيرة تعمى وتصم — ولكنه رجع الى صـوابه ودهائه وقال : « ان ركن الدين من خيرة الأمراء .. صدقت ، وأرى أن توليه الدوادارية .. وبذلك يكون قريبا منا » ..

وأحست شجرة الدر بغيرة عز الدين — والمرأة أرق شعورا من الرجل — لكنها تجاهلت وأغضت لأنها لم يكن لها مطمع فى حب أحد ، وانما هى تحب العلى وتهوى السلطة وتبذل كل شىء فى سبيلها ثم قالت : « ومتى يأتى الأمراء من المنصورة ؟ .. »

قال عز الدين : « أظنهم يكونون هنا غدا ليحتفلوا بتولية شجرة الدر ملكة على هذه الديار .. ما أجمل هـذا الاسم فى فمى ؟ وما ألطف وقعه على قلبى ؟ فهل لاسمى شىء من ذلك فى

---

(١) السيوطى ١١١ — الجزء الثانى

قلبها ؟ » قال ذلك ونظر اليها نظرة عتاب ودلال

فنظرت اليه وقد أدركت مراده ، وقالت : « سترى ثقتى وحبى ، وستعلم مركزك بالفعل لا بالكلام .. أراك تلمح وتستطلع كأنك تشك فى صدق مودتى ؟ .. سامحك الله ياعز الدين .. » وظهر العتاب فى عينيها

فاعتقد بصدق قولها ، وقال : « معاذ الله ياسيدتى .. »

فابتدرته قائلة : « لا تقل سيدتى .. انت حبيبى .. انت سندى .. انت موضع ثقتى ، وعليك اعتمادى .. كن واثقا من ذلك .. »

قال عز الدين : « انى واثق منه .. ولكن المحب كث .. »

فقطعت قوله وقالت : « دعنا من ذلك فانه مفهوم بيننا ، وهلم الى تدبير شئوننا .. انى أسمع لغطا فى الدار .. »

— ٩ —

وفد الأمراء

فأسرع عز الدين وهو يقول : « أظن ان الأمراء قد وصلوا من المنصورة .. ولعلهم يطلبون السلام عليك .. »

قالت شجرة الدر : « هل ترى أن أستقبلهم ؟ » قالت ذلك مبالغة فى اكتساب قلبه ..

قال عز الدين : « لا أرى بأسا من استقبالهم اذا طلبوا ذلك لأنهم أصحاب فضل فى هذا الأمر ، وقد رأيت منهم اذعانا سريعا

حين اقترحت أن تصير السلطنة اليك . ولكن .. طبعا سترسلين الستار بينك وبينهم ، ولاسيما الآن وأنت ملكة المسلمين .. »

فنظرت اليه بطرف عينها وهى تبتسم ، وقالت : « ان عز الدين غيور ، وقد سرنى ذلك لأن الغيرة دليل المحبة .. على انى لم أكن أحتاج الى تنبيه ، وأنت تعلم انى لا أقابل أحـدا مثلما أقابلك » . قالت ذلك وأشارت الى الخصى الواقف فى خدمتها أن ينزل الستار .. ولم يكد يفعل ذلك حتى جاء الحاجب يقول : « إنكبار أمراء الجند يلتمسون التشرف بمقابلة السيدة الجليلة» وذكر الحاجب أسماء الأمراء : بلباى ، الرشيدى ، وفارس الدين اقطاى ، وبيبرس الدين البندقدارى ، وسنقر الرومى

فقال عز الدين بالنيابة عنها : « فليدخلوا »

واستقبلهم عز الدين بلطف ، فألقوا التحية وتكلم الفارس اقطاى عنهم قائلا : « ان الأمراء قادمون للقيام بواجب العزاء الى السيدة أم خليل على القضاء الذى نزل بطوران شـاه ، ولابلاغها ان اختيارهم وقع عليها لتتولى أمور المسلمين ، فعسى أن يقع ذلك لديها موقع الرضى »

فأجاب عز الدين عنها قائلا : « ان مولاتنا السيدة الجليلة قد بلغها ما أتيتموه أيها الأمراء — فى سبيل مصلحة الدولة — من الشجاعة والبسالة .. وقد وقع القضاء على ذلك الملك ، وأسفت لما أصابه ، لكنه جنى على نفسه .. رحمه الله »

فقال الأمير سنقر الرومى : « انه ألجأنا الى ما قمنا به رغم

ارادتنا .. لأنه لم يكن يرى لنا يدا فى شئون الدولة . وما لنا وله .. ان مولاتنا زوج ملكنا المرحوم الملك الصالح أولى الناس بهذا الأمر » ..

فأجابتهم من وراء الستار : « انى شاكرة مروءتكم وحسن ظنكم ، ولا يسعنى الا الموافقة لما تم إتفاقكم عليه ، وأنتم نخبة الأمراء أصحاب السيوف . وانما أقبل هذا المنصب اعتمادا عليكم وثقة بكم لأنى لا أستطيع عملا ان لم تأخذوا بيدى .. »

فصاحوا بصــوت واحد : « نحن طوع أمر مولاتنا نفديها بأنفسنا ، وغدا نحتفل بتوليتها فى القلعة ان شاء الله »

ثم تحولوا للخروج ، فرافقهــم عز الدين وهو يقول لهم : « انمولاتنا شجرة الدر كانت تحدثنى قبل وصولكم عنامتنانها لبسالتكم .. وقد أعدت الهدايا للأمراء والرجال ، وقالت لى : انها انما ترضى بالسلطنة لأنكم اخترتموها لها .. »

فاعتقدوا صــدقه وسرهم ما سينالونه من الهدايا .. وهى العطايا يعطيها السلطان عند توليتــه . وقد عزمت شجرة الدر على أن تجعلها كبيرة لعلمها بما يعترض سلطنتها من العقبات ، لأنها أول امرأة تولت ذلك فى الاسلام

وخرج عز الدين لوداعهم وهو يثنى على اخلاصهم ، ويمنيهم بالأمانى الطيبــة .. ثم عاد الى شجرة الدر ولفت انتباهها الى الهدايا وأن تجعلها كبيرة ، وافترقا على أن يهيئوا الاحتفال ..

— ١٠ —

سلافة وسحبان

ولم تطلع شمس ذلك النهار حتى علم أهل جزيرة الروضة بما نالته شجرة الدر ، وانها أصبحت سلطانة مصر . وقع الخبر موقع الاستغراب عند كثيرين ، وموقع الغيرة والحسد عند زميلاتها جوارى الملك الصالح — وكل ذى نعمة محسود — وأشدهن غيرة جارية كردية الأصل اسمها سلافة ، كانت تفاخر سائر الجوارى بأنها من قبيلة الملك الصالح ، وكان هو يقربها حتى جعلها قيّمة قصره .. لكنها لم تلد منه كما ولدت شجرة الدر ، فأصبحت هذه أقرب جواريه اليه . وكانت سلافة بارعة الجمال ، لكنها قليلة الدهاء ، شديدة الغيرة ، سريعة النقمة

وكانت مشهورة بجمالها الفتان ، يتحدث أهل الروضة والقاهرة بحسنها ، وان لم يرها منهم الا القليلون . ومن جملة الذين أتيح لهم رؤيتها تاجر بغدادى اسمه سحبان ، كان يتردد على مصر ومعه الأقمشة الفارسية ، والهندية .. وكان الملك الصالح يدعوه اليه ويبتاع منه ما يختاره لنسائه من الأقمشة الجميلة ، ويوصيه بما يحتاج اليه من مصنوعات العراق ، وفارس ، وغيرهما من الآنية ونحوها .. فاتفق له وهو يعرض عليه بعض أقمشة النساء ، ان كانت سلافة حاضرة لتختار نوعا منها .. فما أن وقع عليها بصره حتى أخذت بمجامع قلبه ، لكنه

تجلد وتهيب . وشعرت هى بما جال فى خاطره وتجاهلت .. ولكنه أصبح بعد تلك المقابلة يغتنم الفرص للتعبير عما يكنه من الحب لها بهدايا ثمينة من بعض المصنوعات يبعث بها اليها مع بعض الخصيان ، دون تعليق أو اشارة .. فيظهر ذلك منه مظهر الاكرام للملك الصالح لأنها قيمة داره ورئيسة جواريه

فلما توفى الملك الصالح ، ضعف شـأن جواريه .. فتوسم سحبان بابا للنظر الى سلافة ، نظر المحب الطامع فى القرب .. فاحتال يوما بسلع حملها الى القصر كعادته ، فلقيه أستاذ الدار وتساوما .. ولم تتهيأ له الفرصة لمشاهدة سلافة ولا مخاطبتها .. وقد علمت هى بمجيئه وتجاهلت ، وفى خاطرها أن تراه ، ولكنها لم تكن ترى سبيلا الى ذلك ولا حاجة لها اليه لأنها لم تشعر بالميل نحوه ..

فلما علمت بما صارت اليه شجرة الدر فى ذلك اليوم ، وانهم سيحتفلون بتوليها العرش فى الغد ، وستصير ملكة .. وهى تعلم ان ذلك انما حدث بسعى عز الدين ايبك — ولم تكن تخفى على سلافة علاقته الودية بشجرة الدر — هبت نيران الغيرة فى قلبها وأصبحت تتقلب وتتعذب كأنها على الجمر . ولم تعد تعلم ماذا تعمل لايقاع الأذى بشجرة الدر .. لا لسبب آخر غير الغيرة .. ولو كان فى الاضرار بها نفع لسلافة لكان خيرا .. لكنها غدت تسعى الى ايذائها ولو لم يكن لها من وراء ذلك نفع . وانما لذتها أن ترى تلك النعمة قد زالت عنها .. ذلك هو داء الحسد

العضال . وبين أصحابه من يفضل أن يتعرض هو نفسه للأذى الذى ينوى ايقاعه بمحسوده ، على أن لايراه رافلا فى نعمته ..

ضاقت سلافة ذرعا من التفكير وهى جالسة فى غرفتها ، فأرادت أن تتشاغل ببعض الشئون .. فتنقبت والتفت بملاءة من الحرير، وخرجت من قصر النساء من دهليز يؤدى الى حديقة تابعة لذلك القصر ، فيها الأشجار ، والأنجم ، والرياحين ، والأزهار .. وكان قد تعود الملك الصالح أن يجلس فيها صباحا

وبينما هى هناك جاءها أحد خصيان القصر مسرعا يعدو وهو يقول : « ان الشيخ سحبان جاء بأقمشة جديدة .. »

فلما سمعت اسمه أجفلت ، لكنها أحست بانفراج كربها قبل أن تفكر كيف يتأتى ذلك .. وهو تنبؤ نسائى مبنى على مجرد الشعور بلا برهان .. وقد يصحبه البرهان ، لكنه يأتى بعده — أى ان المرأة تأتيها الفكرة أولا ثم تفكر فى برهانها — فالتفتت سلافة الى الغلام وقالت : « أين هو ؟ .. »

قال الغلام : « هو فى فناء القصر ، وقد ذكرك على الخصوص وقال : « ان بين أقمشته أشياء تسرك » ..

فقالت سلافة : « لا أرى أن أعود الآن الى هناك .. دعه يدخل الى هذه الحديقة من بابها الخارجى لأرى بضاعته » قالت ذلك وأصلحت من شأنها وتنقبت بطرف الملاءة ، وأصبح قلبها يخفق ولم تكن تشعر بشىء من ذلك فى مقابلاته السابقة

وبعد برهة دخل الغلام من باب الحديقة المشار اليه وهو

يقول : « هذا الشيخ سحبان ياسيدتى » ورجع

وكانت جالسة على مقعد بين الأزهار وعيناها شائعتان ، فالتفتت نحو الباب .. فرأت الشيخ سحبان كما كانت تراه من قبل بقلنسوته الفاوسية ، وجبته السوداء ، ولحيته القصيرة الخفيفة ، وعينيه البراقتين .. لكنها تفرست فيه هذه المرة ، فرأت فى وجهه معنى لم تلاحظه من قبل .. فلما دخل ألقى التحية فردت عليه السلام.. وأشارت اليه أن يتقدم ، وقالت : «أين الأقمشة؟»

فتقدم وقال : « انها لا تزال فى القصر مع الجمّال ، فاذا أذنت باحضارها الى هنا فعلت .. »

قالت سلافة : « لابأس ، دعها الآن هناك .. تفضل اجلس » وأشارت الى حجر منحوت كالكرسى .. فجلس عليه وهو يصلح قلنسوته ، فقالت له : « لم يكن من عادتك اذا جئت بأقمشة أو نحوها أن تطلب سلافة باسمها .. »

قال سحبان : « وهل ساءك ذلك ياسيدتى ؟ »

قالت سلافة : « كلا .. لكننى لم أفهم السبب لتغيير عادتك معى .. »

قال سحبان وهو يحكّ أنفه : « غيّرت عادتى تمشيا مع التغييرات الكثيرة التى انتابت أهل هذا القصر فى هذا العام »

— ١١ —

التشاكى

فتصاعد الدم الى وجنتيها وظهرت البغتة فى عينيها ، وتذكرت ما هى فيه ..

فقالت سلافة : « صدقت ياسحبان .. ان التغيير كثير .. رحم الله الملك الصالح ، فقد كان ذخرا لهـذه الدولة ، فلما مضى اضطربت أحوالها » وظهرت فى مآقيهـا دموع أوشكت أن تتساقط ..

فقال سحبان : « نعم .. رحمه الله ، ولكن ما العمل ؟.. هذا قضاء مبرم ياسيدتى .. والدنيا دول »

قالت سلافة : « هل علمت ماذا جرى ؟ »

قال سحبان : « اذا كنت تعنين ما صارت اليه شجرة الدر ، فقد علمت .. »

قالت سلافة : « نعم اياه أعنى .. وكيف تراه يا سحبان ؟ »

فاستأنس بمناداتها له باسمه بلا لقب ، وقال : « أرى .. ماذا أرى ؟ أرى أمرا أقل مايقال فيه انه لم يسبق له مثيل فى الاسلام »

فابتسمت سـلافة وقد أشرق وجهها وقالت : « أرأيت مثل هذه البدعة من قبل ؟ »

قال سحبان : « لا .. لكننى .. » وبلع ريقه كأنه يحذر أن يبدى رأيه ..

فقالت سلافة بلهفة : « قل .. ولكن ماذا ؟ .. قل .. »

قال سحبان : « ولكن .. كيف توصلت هذه الجارية الى هذا المنصب ؟ .. لا أدرى .. »

قالت سلافة : « توصلت .. ألا تعرف عز الدين ايبك التركمانى أتابك الجيش ؟ .. ألا تعرفه ؟ »

قال سحبان : « نعم أعرفه .. قد فهمت مرادك ياسيدتى .. نعم فهمت .. الآن عرفت الفرق بين السيدة سلافة الكردية وبين المحظية شجرة الدر التركية » ..

فتوسمت من عبارته ما يوصلها الى الموضوع الذى تريد الخوض فيه فقالت : « وما هو الفرق ؟ »

قال سحبان : « الفرق .. ان هذه أوفت الأمانة حقها بالنظر الى مولاها .. وتلك .. أشركت سواه فى حقه »

فأظهرت انها تعارضه وقالت : « لا .. لا تقل ذلك .. انها أم ولده خليل .. لا .. لا تقل ذلك .. »

فأدرك سحبان انها تعترض فى الظاهر فقط ، فقال : « قد قلت الحق ياسيدتى .. انى أتردد على هذا القصر منذ عدة أعوام وقد رأيت سلافة مرارا وعيناى شاخصتان اليها .. وفى كل مرة أحاول أن أحظى منها بلفتة فلم تفعل . ولم أر غيرها يحرص هذا الحرص .. أستأذنك ياسيدتى فى هذا التصريح .. وأما سواك فمع كونها أم ولده فان علاقتها مع عز الدين ايبك مشهورة .. ومع ذلك فهى الآن ملكة المسلمين .. ولا بد لكل منا أن يصدع

بأمرها » ..

فصاحت فيه : « انها لن تكون ملكة .. واذا صارت فالى أجل قصير » ثم رأت نفسها قد تورطت فى الجسارة والتصريح فتراجعت والتفتت حولها .. وتشاغلت بزهرة قطفتها من طاقة الى جانبها ، وهى مطرقة وقد علت الحمرة وجهها ..

فتوسم سجبان من ذلك المشهد فرجا ، فقال بصوت منخفض : « ياسيدتى لاينبغى لنا أن نطيل الحديث بغير جدوى .. اذا كان لابد لامرأة من أهل هذا القصر أن تحكم فأنت أولى من سواك ، لأنك أرقى درجة من سائر نسائه . وأنت من عصبية الملك الصالح ــ رحمه الله ــ ولكن ... »

فقطعت سلافة كلامه قائلة : « لا .. لا أريد أن أحكم .. ان النساء لم يخلقن للحكم يا سجبان . ولذلك قلت لك ان شجرة الدر لاينبغى أن تبقى فى الحكم طويلا .. والآن أقول لك لاينبغى أن تبقى » .. قالت ذلك وقد ظهر الغضب فى عينيها

وأدرك هو انها تستحثه على مساعدتها فى هذا الأمر ، فقال : « اذا كنت ترين فى مكانا لثقتك فانى رهين اشارتك .. افصحى لى عما ترينه » ..

فغلب عليها الحياء والوردة فى يدها ، فجعلت تتشاغل بنثر أوراقها بين أناملها .. كما يفعل مضطرب الأفكار وهو لايدرى.. فابتدرها سجبان قائلا : « اذا كنت لم تفهمى مرادى بعد فانى أتجاسر بالافصاح عما يكنه ضميرى لك ياسيدة الملاح .. انى

أسير هواك منذ عرفتك ، وما زلت كلما زدت اعراضا عنى أيام الملك الصالح أزداد اجلالا لأخلاقك الفاضلة . وأما الآن وقد مضى ذلك الملك الى حال سبيله ، فهل ترين فى سحبان ما يستحق التفاتك وثقتك ؟ »

فازدادت سلافة حياء وتوردت وجنتاها وشعرت بخفقان قلبها وأوشكت أن تنسى الأمر الذى كان شغلها الشاغل فى ذلك الصباح.. ثم التفتت الى ما حولها فلم ترَ غير الأشجار، والرياحين، ولم تجد ما تتشاغل به عن الجواب ريثما تعمل فكرها .. وأدرك سحبان ما دار فى خلدها فتحفز كأنه يريد النهوض ، فمدت يدها نحوه وأشارت اليه أن ينتظر . وظلت ساكتة وهى تعض شفتيها وتمسح جبينها وتصلح نقابها ، فقال لها : « دعينى أنصرف الآن لأنى أرى وجودى ثقلا عليك.. وربما كان سبيلا للقيل والقال..»

فنظرت سلافة اليه نظرة اخترقت أحشاءه ، وقالت : « وأى قيل وقال ؟ .. انى لا أخشى أحدا ، وأما وجودك هنا فانه لازم لى .. »

فهش لها سحبان وضحك كأنه نال أمرا لم يكن يتوقع الحصول عليه وقال : « اذا كان وجودى هنا لازما لك ، فانى رهين أمرك .. »

— ١٢ —

المهمة السرية

فاعتدلت سلافة فى مقعدها والجد باد فى عينيها ، ولو كشفت عن وجهها لظهرت دلائل العزم والاصرار حول شفتيها ، وقالت : « هل أنت صادق فيما تقول ؟ .. »

قال سحبان : « جربى ياسيدتى .. بعد أن تسمعينى كلمة منك يطمئن لها قلبى .. هل أنت ترين فتى الرجــل الذى يستحق رضاك ؟ » ..

فأشارت برأسها وعينيها أن نعم ، وقالت : « والدليل على ذلك انى سأعرض عليك أمرا خطيرا لا يجوز أن يطلع عليه أحد على وجه الأرض .. » وسكتت

فقال سحبان : « تفضلى ياسيدتى .. »

قالت سلافة : « وسأكلفك بمهمة لا تخلو من الخطر .. »

قال سحبان : « روحى فداك .. لا أبالى أن أموت فى سبيل رضاك .. »

فقالت سلافة : « أنت من أهل بغداد تسافر اليها كل عام .. أليس كذلك ؟ »

قال سحبان : « أسافر اليها متى شئت .. »

قالت سلافة : « ولماذا لا تمكث هناك ؟ »

قال سحبان : «هل من الضرورى الجواب على هذا السؤال؟»

قالت سلافة : « نعم .. »

قال سحبان : « ان هذه الجلسة التى سمح الزمان بها ، أشعر معها — برغم قصرها — أن قلبينا متحدان من عهد بعيد .. فأذنى لى أن أخاطبك بجسارة وصراحة »

قالت سلافة : « هذا ما أريده منك .. »

قال سحبان : « لا أقيم فى بغداد لأنى شيعى . والخلفاء العباسيون يكرهون الشيعة ويطاردونهم ، ولا سيما فى بغداد ، فانه لا تمضى سنة لايقاسون فيها اعتداء ، أو اضطهادا ، أو نهبا ، أو قتلا .. لذلك فضلت الرحيل عن ذلك البلد ، وان كنت فى غنى عن التجارة .. ولكننى جعلتها سبيلا للأسفار ، واذا سافرت الى بغداد فاننى لا أمكث فيها الا ريثما أبتاع البضاعة وأعود .. »

قالت سلافة : « هل تعنى ان الخليفة المستعصم الحالى يطارد الشيعة ؟ .. »

قال سحبان : « أكثر الخلفاء العباسيين فعلوا ذلك .. ولكن المستعصم هذا من أشدهم وطأة علينا ، فقد قاسينا فى أيامه الأمرّين .. » قال ذلك وصرّ على أسنانه والغضب يتجلى فى وجهه ..

فأطرقت سلافة ، وظهر التردد فى عينيها وسكتت ، فقال : « مالى أراك ترددين ؟ .. قولى ما يخطر الك .. »

قالت سلافة : « أخشى أن يكون فى قولى تعب عليك .. »

قال سحبان : « لا لذة فى الحب ان لم يرافقه التعب .. »

ولما ذكر الحب اختلج قلبهــا فى صدرها ، وقالت : « أنت تطلب ذلك باسم الحب يا سحبان ؟ .. »

قال سحبان : « اذا كنت تأذنين .. »

قالت ســلافة : « نعم .. انظر يا سحبان ان هــذه الجارية التركية لاينبغى أن تبقى ملكة ، الا ريثما تصل أنت الى بغداد وتعود منها .. »

ففهم سحبان مرادها وقال : « لك علىّ ذلك .. وهل تريدين أن أذهب بهذه المهمة من عند نفسى أم أكون رسولا منك ؟.. »

قالت سلافة : « بل تكون رسولا تحمل كتابا منى الى بغداد ولا يصل الكتاب حتى يأتى الجواب بخلعها لا محالة »

قال سحبان : « لمن تريدين أن يسلّم الكتاب ؟ .. »

قالت سلافة : « سلمه الى قيمة قصر النســاء هناك ، انها صديقتى ولى معها مودة .. هل تفعل ذلك ؟ »

فنهض سحبان وقال : « أفعله الساعة .. اعطنى الكتاب .. » ومد يده الى منطقته واستل منها دواة مغروسة فيها وأخرج القلم منها ودفعه اليها ، وأخذ من جيبه ورقة بيضــاء دفعها اليها ، فتناولت الورقة والقلم وهى تتفرس فى وجه سحبان ، وهو ينظر فى عينيها . بقيا لحظة على هذه الحال كأنهما يتفاهمان بالعيون .. ثم قالت سلافة : « اعلم يا سحبان ان هذه هى المرة الأولى التى تخاطبنا فيها وسأعهد اليك بأمر خطير .. ألا تعد ذلك تسرعا منى ؟.. وهل أسلم من الخطر ؟ .. »

قال سحبان : « جسّى قلبك .. من القلب الى القلب دليل .. واذا كنت فى ريب من صدق خدمتى أقسمت لك بما تريدين ، انى أخلص النية فى خدمتك »

قالت سلافة : « أتقسم ؟ .. أقسم .. »

فهمّ أن يقسم فأمسكت بيده وقالت : « لاحاجة الى القسم » وكانت المرة الأولى التى لمست يدها يده منذ تعارفا ، فأحس كلاهما بالقشعريرة المعهودة ، وهى دليل المحبة .. ولا تحدث عند كل تلامس بين الجنسين ، وانما تقع بين اثنين فى قلبيهما استعداد الى الاتحاد ـ وبالتعبير العلمى بين كهربائيتهما تجاذب ـ ويزيد هذه القشعريرة ظهورا قلة الاختلاط بين الجنسين والمبالغة فى التحجب . ويلوح للباحث فى نواميس الحب وظواهره أن أسبابه تقوى أو تضعف على حسب الأمزجة والأشخاص .. أو كأن الواحد متمم للآخر ، فاذا التقى اثنان من هـذا النوع شعرا بالتجاذب لأول مرة . وبعكس ذلك وجود استعداد للتنافر بلا سبب . على ان للجمال المادى والمعنوى قواعد أجمع النـاس عليها ، يغلب فى أصحابها أن يلفتوا أنظار الناس ويجتذبوا قلوبهم

فلما أحست سلافة بتلك الرعشة اتخذتها دليلا على صدق مودة سحبان ، وتناولت الورقة وأخذت تكتب . وكانت بارعة فى الخط والانشاء لأن السلاطين كانوا يعنون كثيرا بتعليم الجوارى الكتابة واللغة والأدب . ولما فرغت من الكتابة أغلقت الكتاب ودفعته اليه وقالت : « هذا سرّى قد عهدت به اليك .. فاذا نجحت فى

تحقيق ما أهدف اليه ، فقد برهنت لى على ما تقول .. »

فتناوله وقال : «أستودعك الله» ومشى وهو يلتفت اليها حتى خرج من الحديقة ، وظلت هى بعده واقفة تفكر فيما فعلته فخالج ذهنها ندم على تسرعها .. لكنها راجعت ما رأته وشاهدته منه ، وتذكرت تاريخ معرفتها به فلم تجد ما يوجب الحذر .. هذا الى أن حسدها لشجرة الدر هوّن عليها كل عمل فى سبيل اذلالها

— ١٣ —

الاحتفال

أصبحت القاهرة فى اليوم التالى وأهلها فى هرج ، والناس يزاحم بعضهم بعضا نحو القلعة .. بين راكب وماش ، رجالا ونساء .. حتى أصبحت ساخة الرميلة تحت القلعة غاصة بالناس من سائر الطبقات . وقد اختلط بهم الباعة يحملون أنواع الكعك ، والفواكه والثمار ، والمملحات ، والحلويات ، والمأكولات المجففة . وبينهم حملة الودع ، وكشاف البخت ، وضاربى المندل .. ينادون كل واحد على بضاعته على اختلاف الألحان وطبقات الأصوات . وقد علت ضوضاء الناس يتخللها نهيق الحمير ، وصهيل الخيل ، ونباح الكلاب ..

ولو أشرفت على الرميلة من سور القلعة لرأيت الساحة بقعا يشغل كل بقعة جماعة متشابهون فى ملابسهم وأشكالهم ،

أكثرهم يجلس القرفصاء ، ويشتغل أحدهم بشيء يمضغه ، أو عود ينكت به الأرض ، أو أداة يلاعب بها أصابعه . وهناك جماعات تكأكأوا على رجل يلاعب دبا ، أو قردا .. ثم يدور عليهم بدفه يجمع ما تجود به نفوسهم من الدراهم .. وجماعات هدأ جوهم لاشتغالهم بحديث يقصه عليهم شيخ منهم ، ويبذل جهده فى اجتذاب قلوبهم ولفت اعجابهم .. وهم يتطاولون بأعناقهم نحوه ، وقد أخذتهم الدهشة

ولو أتيح لك حضور تلك المجالس لرأيت عجبا ، وأخذتك الدهشة من أخلاق العامة ، وسرعة تصديقهم للغرائب .. لأنك قد تسمع حديثا أنت أدرى الناس به ، فتجده تشوه واضطرب حتى انقلب الى غير ما تعرفه ، وقد تنكره وتظنه حديثا آخر . ويزداد تشويشهم للأحاديث بنسبة ما تحويه من الغرابة عن مألوفهم . فما ظنك فى موضوع ذلك اليوم ، وهو تنصيب امرأة ملكة للمسلمين مما لم يسبق له مثيل فى تاريخهم .. فتضاربت أقوالهم فى ذلك ، واخترعوا الأسباب الباعثة عليه ، وافترضوا الأسرار ، وتكهنوا بمصير هذه الحال ، وزعم بعضهم أننا صرنا فى آخر الزمان وسوف تنقضى الدنيا لأن ذلك من دلائل الفناء ..

وبينما هم فى ذلك اذ سمعوا نفخ الأبواق ، وقرع الطبول . ثم رأوا موكب أمراء المماليك البحرية متوجها نحو القلعة ، وفى مقدمته كبراء الفرسان الذين تقدم ذكرهم ، وهم بالملابس المذهبة تتلألأ فى أشعة الشمس فتأخذ بالأبصار ، وبعدهم هودج شجرة

الدر تحمله البغال وقد تجلل بالحرير المزركش.. وحوله الفرسان من المماليك فى أزهى مايكون من الملابس بألوانها الجميلة ، وفيهم حملة الأعلام .. ووراءهم كوكبة من الفرسان أصحاب المزاريق ، ثم كوكبة من حملة الرماح . وخلفهم جماهير النـاس مشاة على أقدامهم يموجون كالبحر الزاخر .. هذا عدا من لحق بهم من الوقوف هناك ، وفيهم من أغلق دكانه وأوقف عمله لمشـاهدة موكب الملكة . وهو لايرجو شيئا من وراء تلك الخسائر ، وانما يساق العامة الى ذلك بفطرتهم السـاذجة وميلهم الطبيعى الى مشاهدة الغرائب . فهم يؤخذون بالظواهر ويتبعون كل ناعق ، ولذلك كان اجماع العامة على أمر لايدل على قربه من الصواب

وصل الموكب الى باب القلعة الأعظم المواجه للقاهرة . ويقال له الباب المدرج . وكانت طائفة من الجند قد وقفت هناك بالسلاح لتمنع الناس من الدخول الا الموكب وأتباعه . وللقلعة باب آخر نحو القرافة أغلقوه فى ذلك اليوم لئلا تتزاحم الأقدام فى ساحة القلعة . وهى ساحة كبيرة فى وسط القلعة تنتهى فى صـدرها بمصطبة وراءها باب كبير هو الباب الداخلى المؤدى الى الأبنية الخاصة بسكنى السلطان والأمراء والجنود ، وفيهـا الجامع للصلاة ، والايوان لمجلس السلطان ورجال الدولة

دخل الموكب القلعة من بابها المدرج ، وظل العامة خارجها يكتفون بما يسمعونه من قرع الطبول ، ونفخ الأبواق . وقطع الموكب الساحة حتى وصل الى الباب الداخلى المذكور ففتحوه ،

ولم يأذنوا لغير الخاصة بدخوله ، ولا سيما الأمراء وأرباب المناصب ونحوهم ، وخلفوا فى الساحة جمعا من الخاصة اكتفوا بأنهم امتازوا عن سائر العامة بدخول القلعة

ومر الموكب من ذلك الباب الى دهليز فسيح تحف به أبنية مخصصة للسكن وهناك ترجّل الفرسان واهتم جماعة بشجرة الدر فأنزلوها عن الهودج ، وبينهم وبين الايوان الكبير دهاليز وأبواب لابد من اجتيازها ، وكانوا قد فرشوها بالسجاد وعلقوا بأبوابها الرياحين ، والأعلام .. ومشى عز الدين ايبك وسائر الأمراء وهم بملابسهم الفاخرة بين يدى شجرة الدر ، وهى فى ذلك اليوم بأبهى ما يكون من الملابس .. لكنهم أعدوا لها قبة من الحرير المطرز قائمة على أربعة أعمدة يحملها نفر من القواد ، وقد أرخيت ستائرها وشجرة الدر فى داخلها ومعها جاريتها شوكار وبعض الخصيان ..

— ١٤ —

الايوان

وبالجملة لم يصل الى الايوان الكبير الا خاصة الخاصة وكبار الموظفين .. وهم أصحاب المطامع طلاب السيادة ، يسخّرون العامة لأغراضهم ويسوقونهم كالأنعام وهم لايدرون مصيرهم . وربما اكتسبوا رضاهم بوجبة يطعمونهم اياها ، أو بصلاة يتلونها بين

أيديهم ، أو دعاء لولى ، أو قديس يعرفون أنهم يؤمنون بكرامته

ظل أصحاب القبة سائرين حتى وصلوا الى صدر الايوان ، وكانوا قد نقلوا اليه سرير السلطنة الذهبى .. فجعلوا القبة فوق السرير وأرخوا ستائرها حوله ، فجلست شجرة الدر على السرير وبين يديها شوكار ، والخصيان يأتمرون بأمرها ، ولا يراها أحد من الحاضرين . ثم دخل قاضى القضاة فجلس الى يمين القبـــة ووراءه صاحب بيت المال وناظر الحسبة . والى يساره كاتب السر وغيره من كبـــار أرباب المنـــاصب وذوى الســـن وأمراء المشورة .. وجلس أمام القبة فى وسط الايوان الأمير عز الدين ايبك أتابك الجند وكبار أمراء المماليك ، وبينهم ركن الدين بيبرس . وخلف القبة أو السرير صفان من الســـلاح دارية والجمدارية والخاصكية ، وخلفهم الحجاب ونحوهم . وأتوا فى جملة ذلك بجماعة من أسرى الافرنج يرتدون ملابس الأسرى مبالغة فى الاعتزاز ..

وبعد أن استقر الحاضرون على هذه الطريقة ، وقف عز الدين ايبك ووجه خطابه الى الجمع قائلا : « أيها الأمراء والقواد ، لا يخفى عليكم ما أصاب الملك المعظم طوران شاه .. انه أســـاء السيرة وأراد التنكيل بجند هذا البلد البحرية الذين عرفتم بلاءهم فى زمن الملك الصالح ــ رحمه الله ــ فى حرب الافرنج وغيرهم . فوقع القضاء عليه .. ولما خلا كرسى السلطنة ممن يسوسها ، لم نجد من هو أولى بها من أصحاب الحق فيها الا مولاتنا ، الجهة

الصالحة شجرة الدر والدة خليل ، وصاحبة الملك الصالح ، لما نعلمه من ثقة مولانا المرحوم فيها وهى أم ولده ، وقد أجمع رأى الأمراء والنواب والقضاة على اختيارها ملكة تتولى شئون الدولة بمساعدة القضاة والنواب . وقد تعهد أصحاب السيوف بطاعتها لاحقاق الحق وحماية شرائع الدين.. ونحن الآن نحتفل بتنصيبها ، وسندعو لها على المنابر بعد مولانا أمير المؤمنين المستعصم بالله .. وسننقش اسمها على الدنانير والدراهم فادعوا لأمير المؤمنين »

فضج الجميع بالدعاء للخليفة وهم وقوف ، ثم تقدم قاضى القضاة فدعا لشجرة الدر قائلا : « واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة السلطان الملك الصالح »

فقال عز الدين ايبك : « وقد عهدت الىّ بتدبير المملكة باسمها وولت الأمير ركن الدين بيبرس الداودارية الخاصة . وأمرتنى أن أثبت أصحاب المناصب الموالين لنا فى مناصبهم من أصحاب الأقلام وأصحاب السيوف » ثم أشار الى صاحب الستار الواقف بجانب القبة فأزاح الستار فظهر داخل القبة .. فاذا هى مبطنة بأطلس أصفر مزركش ، وفى صدرها شجرة الدر جالسة على السرير قد أرخت النقاب ، وعلى رأسها العصائب السلطانية وهى صفراء ، عليها ألقاب الملكة المتقدم ذكرها مطرزة بالذهب

فعاد الناس الى الدعاء لها بمثل ما تقدم .. ثم أرخوا الستار ، وعاد عز الدين الى الكلام فقال : « وعما قليل نحتفل بقراءة

المرسوم الذى سيرد علينا من أمير المؤمنين المستعصم بالله يؤيد سلطنة مولاتنا حفظها الله »

وكان النـاس فى أثناء الاحتفـال سكوتا كأن على رءوسهم الطير ، وقد أخذتهم الدهشة لأنهم لم يسمعوا بمثل هذه الولاية وفيهم الغاضب ، والعاتب ، والمعترض .. لكن أحـدا منهم لم يجسر على الكلام لعلمهم ان هـذه السلطنة انما كانت بتواطؤ المماليك البحرية أصحاب السلطنة فى ذلك العهد

وقبل الفراغ من الاحتفال ، أشار عز الدين الى أحد الوقوف من الداودارية ، فمضى وعاد ومعه الأطبـاق عليها صرر النقود قاموا بتوزيعها على الحاضرين .. وكانت كل صرة عليهـا اسم صاحبها ..

ولما همّ الحاضرون بالانصراف ، وقف عز الدين ايبك وقال : « أيها الأمراء ان مولاتنا ملكة المسلمين اقتضت ارادتها أن تنقل دار السلطنة من جزيرة الروضة الى هذه القلعة ، وستكون هذه القلعة مقر أرباب المناصب بدلا من قلعة الملك الصالح فى الروضة لأن السبب الذى من أجله جعلها الملك المرحوم كرسيا للسلطنة قد زال » ..

فكان لهذا التغيير وقع حسن عنـد بعض السامعين ، ووقع سيء عند آخرين . ولكن لم يجسر أحـد على ابداء رأى أو ملاحظة . وانفضت الحفلة وانصرف كل الى مكانه ، وانتقلت شجرة الدر الى قصر خاص بالسلطنة هناك .. وأخذوا فى نقل

الرياش وغيرها من جزيرة الروضة .. ولم تعد تلك الجزيرة مقرا للسلطنة منذ ذلك الحين .. وأخذوا فى ازالة زخارفها ونقوشها ، ولا سيما حينما صارت السلطنـة الى عز الدين ايبك فانه أمر بهدمها ونقل ما كان فيها من الأعمـدة والنـوافذ والسقوف والأخشاب لبناء مدرسة باسمه فى القاهرة

وكانت شوكار فى أثناء الاحتفال مع شجرة الدر فى الهودج كما تقدم .. فلما رفع الستار عنه ، انزوت فى مكان بحيث ترى الحاضرين منه ولا يرونهـا .. وكان نظرها لا يتحول عن ركن الدين وهو بملابسه الرسمية المزركشة بالقصب ، وعلى رأسه القلنسوة العسكرية ، وقد زانه شبابه .. وسرت على الخصوص حين سمعت انه صار داودارا لسيدتها ، لعلمها انه أصبح أقرب اليها اذ يكثر تردده على قصر الملكة لقضاء مهام منصبه ، فخفق قلبها فرحا .. وتحققت من قرب سعادتها لأنها ستكون زوجة لداودار السلطنة ..

— ١٥ —

مهام الدولة

أما شجرة الدر ، فبعد انقضاء الاحتفال نقلت مركز الحكم الى قصر السلطنة . وقد أعدوا لها فيه غرفة فرشـوها بأحسن الرياش . دخلت الغرفة يحيـط بها الجوارى والخصيـان وفى

مقدمتهم شوكار، فأخذوا فى تبديل ملابسها الثقيلة بملابس أخف منها كى تستجم بعد ذلك العناء .. ثم أمرت الخدم بالانصراف ، فلما خلت بنفسها أخذت تفكر فيما صارت اليه مما لم تكن تحلم به فى صباها ، وتذكرت شبابها وكيف كانت تنظر الى السلاطين والملوك وما كانت تراه بينها وبينهم من الفروق الشاسعة.. وكيف أصبحت اليوم ملكة المسلمين تطأطىء لها الرءوس وتعنو لها الرقاب . فلما تصورت ذلك انشرح صدرها وانبسطت نفسها .. لكنها ما لبثت أن فكرت فيما ينطوى عليه ذلك المنصب من المشاق، وما فى مصر يومئذ من المشاكل والحروب مع الصليبيين ، عدا الأحزاب المختلفة بين رجال الدولة والجند .. فانقبضت نفسها ، لكنها حين تذكرت عز الدين مدبر المملكة ومن معه من الأمراء الذين يأخذون بناصرها للعصبية أو للعطاء ، هان الأمر عليها نوعا .. على ان الانقباض ظل ظاهرا على وجهها ..

وبينما هى فى ذلك ، اذ دخلت عليها جاريتها شوكار والفرح يتجلى على وجهها ، وأكبّت على يد سيدتها وقبّلتها وهى تقول : « الحمد لله على نعمه ياسيدتى .. أنت ملكة المسلمين .. ألم أقل لك عند مارأيتك على ذلك السرير انه لائق بك ؟ .. مالى أراك منقبضة النفس .. هل ساءك مجيئى الآن ؟ .. هل تأمرين بانصرافى ؟ .. »

فطوقت عنقها بيديها وضمتها الى صدرها وقبلتها وهى تقول : « كيف تنصرفين يا شوكار ؟ .. لا .. لا .. لست

منقبضة من شيء .. انى أشعر بالسعادة التى أنا فيها والحمد لله ، ولكننى أفكر فى المهام الكثيرة التى بين يدى .. كنت قبل الآن لايهمنى الا أن يتم لى هذا الأمر .. فلما تم ، ذهبت نشوة هذه الرغبة ، وتبينت لى حقيقــة المنصب عما يحف به من المشاكل ، ولا سيما الآن .. »

فأرادت شوكار أن تداعبها كى تشغلها عن تلك الهواجس ، فقالت وهى تضحك : « اذا كنت قد كرهت هذا المنصب ، فأنا آخذه منك وأخفف عنك مهامه »

فابتسمت شجرة الدر ، وقبلت شوكار ثانية وقالت : « لم أكره هذا المنصب ياعزيزتى .. فانى لم أذق منه شيئا بعد ، لكن لاينبغى لى أن أتغاضى عما يحيط به من أسباب العناء »

قالت شوكار : « ان هذه الأسباب لابد منها ــ وهذا مولانا عز الدين مدبر المملكة يحمل عنك كل أثقالها ــ وهــذا ركن الدين .. انه بطل .. » وحين ذكرته ، خجلت وأطرقت حياء ..

فضحكت شجرة الدر .. ومدت يدها الى جبينها تمسحه ، وقالت : « ان ركن الدين بطــل .. واذا شئت أن ترى ذلك وتختبريه ، فانى سأكلفه بمهمة ذات بال لا أرى بين الأمراء من أثق به وأعول عليه فى قضائها غيره .. هل تأذنين بذلك ؟ »

فخجلت شوكار من هذا الاستئذان وقالت : « من أكون أنا حتى يؤخذ الاذن منى ؟.. ألسنا جميعا عبيدا نصدع للأمر ؟ »

فلما سمعت هذا التعبير ــ وهو مما يقال للملوك ــ لأول

مرة ، عظم الأمر عندها .. لكنها كانت عاقلة تنظر فى الأمور الى حقائقها ولا يهمها الزخارف ، فقالت : « كلنا عبيد ياشوكار .. وانما سألتك لأن ركن الدين يهمك الآن .. وهو لك .. أليس كذلك ؟ .. »

فقالت وقد توردت وجنتاها من الخجل : « هبى انه لى .. فأنا لم أكن لأحصل عليه لولاك .. »

قالت شجرة الدر : « ليس هـذا هو الجانب المهم فى الأمر يا شوكار ، ولكننى أحب قبل أن يعقد له عليك أن يأتى عمـلا يوجب له الفخر على أقرانه ، فاذا تزوجك بعد ذلك زاد افتخارك به .. »

قالت شوكار : « الأمر لك على كل حال » .. لكنها فى الحقيقة لم يسرها هذا الأمر لأن ركن الدين من الأمراء المعروفين ، واذا لم يكن بد من زيادة أسباب شهرته فيصح أن يكون ذلك بعد العقد .. وقد أصبحت لفرط دهشتها بذلك النصيب ، تخشى أن يؤخذ منها .. لكنها لم تستطع أن تظهر غير الرضى

أما شجرة الدر فانها لاحظت ترددها ، وما خامر ذهنها من هذا الأمر ، فتنهدت ونهضت وقالت : « اتبعينى يا شوكار .. »

فتبعتها وهى تفكر فيما يحتمل أن يكون غرضها من هـذا النهوض ، فاذا هى قد مشت فى دهليز الى غرفتها الخاصة .. وهى غرفة أعدوها لها بأثمن الرياش ، فدخلت واستلقت على سريرها بغير كلفة وهى تقول : « آه يا شوكار .. لقد تعبت من

التفكير وشعرت بثقل العمل الذى أخذته على عاتقى .. اطربينى بصوتك الرخيم لعلى أروح عن النفس قليلا » ..

فسرها هذا الاقتراح ، وأمرت أحد الغلمان باحضار العود .. فتناولته وأخذت تعزف عليه باتقان ، وتغنى أغنيات تعلم ان شجرة الدر تطرب لها .. فآنست منها استحسانا كثيرا ، وهى تضحك لها وتعجب بها ، وشوكار تائهة الفكر فى ركن الدين وتود أن يكون حاضرا لتراه لعلها تتحقق منه شيئا .. لأنها لم تجد فرصة تسمع فيها قوله انه يحبها ، وأحست هى أنها أحبته ، وخشيت أن لا يبادلها شعورها .. فظهر انقباض قلبها على وجهها ، وانعكس أثر ذلك فى عزفها وغنائها ، فقالت لها شجرة الدر : « ما بالك يا شوكار ؟ »

فانتبهت لنفسها وقالت : « لا شىء ياسيدتى .. »

قالت شجرة الدر : « لا تقولى لا شىء .. انى أرى فى وجهك تغيرا .. »

فابتسمت لتخفى ما بها وقالت : « كلا يامولاتى .. انى محاطة بكل أسباب السعادة والحمد لله .. » وسكتت .. وفى سكوتها شبه انكار ..

— ١٦ —

ترابط القلوب

فأدركت شجرة الدر جانبا من الحقيقة ، فقالت : « لا شك

عندى انك سعيدة لما نالتــه مولاتك شجرة الدر .. ولكن فى خاطرك شيئا تكتمينه . هل ساءك ما قلته لك عن ركن الدين من أمر السفر ؟ .. »

قالت شــوكار بلهفة : « كلا ياسيدتى .. ان ما تأمرين به لايكون فيه غير أسباب الراحة والسعادة ، ولكن .. » وأطرقت حياء ..

قالت شجرة الدر : « ولكن ماذا ؟ .. ان هذا الاطراق يعجبنى من الفتاة فى مثل هــذه الحال .. يظهر انك تشتاقين الى رؤية ركن الدين قبل سفره . ولعلك تحبين أن تعرفى رأيه فيك .. انى سأدعوه الساعة يجالسنا بحجة عزمى على تكليفه بتلك المهمة..» قالت ذلك وصــفقت ، فجاء أحــد الغلمــان فأمرته أن يدعو الداودار ركن الدين ..

فخرج .. وعادت هى الى مشــاغلة شــوكار ، فقالت لها : « لايمضى كثير حتى يأتى ركن الدين وترينــه ويراك .. غنى شيئا من عندك .. »

فأخذت تغنى وقد فرحت بقرب قدوم ركن الدين ، لكنها أحست بخفقان قلبها ..

وبعد قليل جاء الغلام يقول : « ان الأمير ركن الدين بالباب»

فقالت شجرة الدر : « يدخل » وأشــارت الى شوكار أن تسكت ..

فدخل ركن الدين وألقى التحيــة فابتسمت له ، وقد ألقت

النقاب بعض الشيء على رأسها ، وفعلت شوكار مثلما فعلت .. وقالت شجرة الدر : « مرحبا بالبطل ركن الدين .. تفضل .. » وأشارت الى مقعد بين يديها .. فجلس عليـه وهو يتـأدب فى نظراته ، ويفكر فيما عسى أن يكون سبب تلك الدعوة ..

فقالت شجرة الدر : « هل تعلم يا ركن الدين لماذا دعوتك ؟ »

قال ركن الدين : « كلا ياسيدتى .. لا أعلم .. وانما أعلم انى سيف من سيوف مولاتى ، تقذف بى حيثما شاءت .. »

فقالت شجرة الدر : « بارك الله فيك .. لكن هل تفعل ما تفعله اكراما لى وحدى ؟ »

فلما سمع قولها علم انها تداعبه وتشير الى علاقته بشوكار ، فسره انها فتحت الحديث ، فقال : « نعم ياسيدتى لأنك أنت صاحبة الأمر والنهى من كل وجه » والتفت الى شوكار وابتسم

فخجلت شوكار ، وظهر الخجل فى عينيها وأطرقت ، فقالت شجرة الدر : « أرى شـوكار قد خجلت ، ويعجبنى الحياء ، لكننى أحب أن تسمعنـا لحنا آخر يشـاركنا ركن الدين فى سماعه .. ما رأيك ؟ .. »

فقالت شوكار : « انى رهينة أمرك ياسيدتى .. »

قالت شجرة الدر : « أسمعينا أو أسمعيه .. لعله يسمعنا ما يطرب من غير لحن أو نغم .. »

فتناولت العود ، وأخذت تغنى وتعزف على العود حتى أخذت بمجامع قلب ركن‌الدين.. وقد طرب طربا كثيرا وهاجت عواطفه ،

وكان قد سمع عن صوت شوكار ولكنه لم يسمعه .. أما وقد سمعه فازداد اعجابا به وتعلقا بصاحبة الصوت ، وأدرك عظم النعمة التى وهبته اياها شجرة الدر حين وعدته بتلك الغادة المطربة

وكانت شوكار تعزف وتغنى .. وعيناها تراقبان حركات ركن الدين ، فرأته قد هاجت أشجانه وبان الطرب والهيام على وجهه ولولا تهيبه من تلك الملكة لقال أشياء كثيرة . ولاحظت شجرة الدر أيضا ذلك وسرها ما لاحظته ، لأنها كانت تريد أن تسيطر على قلب ركن الدين لتستخدمه فيما تريد من الأمور الهامة ، اذ أصبحت بعد أن صارت ملكة تخشى من الدسائس والخونة من الداخل والخارج . وقد توسمت فى ركن الدين همة عالية وبسالة ، فأرادت أن تملك قلبه ليكون طوع ارادتها فيما قد ترى تحقيقه ، لأنها كانت سيئة الظن بأعوانها .. حتى عز الدين ايبك صديقها العزيز ، فانها كانت تعتقد انه غير أمين لها ، وانه انما يظهر الطاعة لغرض فى نفسه ..

فلما رأت هيام ركن الدين بشوكار ، قالت له : « هل أعجبك صوتها يا ركن الدين ؟ »

فتحرك احتفاء بذلك الاستفهام وقال : « تسألينني عن صوتها ألا يكفى انه يعجب ملكة المسلمين ؟ .. ومن لا يطرب لهذا الصوت الرخيم ؟ .. »

قالت وهى تضحك : « أرجو أن لايكون الصوت وحده الذى أطربك .. »

فالتفت خلسة الى شوكار وسكت ..

فقالت شجرة الدر : « أراك تستشيرها فى ذلك .. هل تشك فى أنها تعجب بك ؟ .. »

قال ركن الدين : « اذا كانت ترى فتى شيئا حسنا فانما تراه لأن سيدتى الملكة رضيت عنى .. »

قالت شجرة الدر : « لا أنكر انى وسيلة التعارف بينكما .. لكنها تسمع عن البطل ركن الدين من قبل ، ويكفى ما تسمعه منى عن بسالتك . ويعجبنى منها انها لايعجبها غير رجال الحرب المستبسلين فى الدفاع عن الدولة.. ولذلك سألتك حين دخولك : « هل تعلم لماذا دعوتك ؟.. فأجبت جوابا وقع فى نفسى موقعا حسنا . ولاشك انه وقع مثل هذا الموقع عند شوكار . وقد لاحظت ذلك فى عينيها ، وبدلا من أن أتم حديثى معك طلبت اليها أن تسمعك صوتها وقد فعلت . وانى فى غاية السرور من تقارب قلبيكما .. فلنعد الى ما كنا فيه . قل لى : هل تعلم لماذا دعوتك ؟ ونحن فيما نحن فيه من أمر الافرنج فى دمياط وما حولها ؟ »

قال ركن الدين : « انك تريدين أن أكفيك أمرهم .. وهذا هين .. »

قالت شجرة الدر : « سيعهد اليك بذلك الأمير عز الدين غدا ، ولكننى أحببت أن أطمئنك ان هذا العمل يرضى شوكار ، وانها تحب الشجعان البواسل .. ومن ناحية أخرى لاحظت من شوكار انها .. » وضحكت وهى تنظر اليها ثم قالت : « لاحظت

انها تحب أن تتحقق من رأى ركن الدين فيها .. »

فغلب الهيام على ركن الدين وقال : « وهل لركن الدين رأى بعد أمر مولاتنا الملكة ؟ »

قالت شجرة الدر : « هى لا تريد أن يكون حبك لها طوعا لأمر الملكة .. »

قال ركن الدين : « ان أمر الملكة كان فاتحة الكلام.. ولكننى أحبها الآن طوعا لأمرها . ويكفينى أن يكون عندها نصف ما عندى » قال ذلك ونظر اليها فأطرقت خجلا .. وتكلمت عيناها بما يعجز اللسان عن الافصاح به ..

— ١٧ —

عز الدين

فلما تأكدت شجرة الدر من ترابط القلبين ، قالت : « لا أظن أن أحدكما يحتاج الى دليل آخر.. والآن يا ركن الدين كن رجلا مثل عهدى فيك ، وان نجاحك فى هذه المهمة ضامن لما ستبلغ اليه من الرتب الرفيعة .. سر فى حراسة الله ، ولكن قبل ذهابك صافح شوكار ، وضع يدك فى يدها .. انى أسمح لكما بذلك »

فتقدم ركن الدين ومد يده ومدت شوكار يدها وتصافحا ، وهى أول مرة تلامست يداهما وكأنهما تفاهما أو تعاقدا . ثم انحنى ركن الدين أمام شجرة الدر ، وودعها وخرج .. فأحست

شوكار كأن قلبها خلع من صدرها وسار معه ..

فابتدرتها شجرة الدر قائلة : « ألم أقل لك انه يتفانى فى حبك وسيزداد حبك له حين ترينه يعود ظافرا من ساحة الحرب .. وهو سيناضل ويحارب باسمك .. أهنئك ياعزيزتى بهذا البطل .. »

فأطرقت وقلبهـا يخفق طربا ؛ ثم أمرت بانصرافها لتتفرغ لمهام الدولة ..

ولم تكد تخرج من عندها حتى جاءها الحاجب ينبئها بقدوم عز الدين نائب السلطنة ، فقالت للحاجب : « قل له ينتظرنى فى الايوان .. »

وكان عز الدين قد جاء الى الايوان للقاء حبيبته على حدة ليهنئها بما نالته ، وهو يتوقع أن تكثر من الثناء عليه عند المقابلة على انفراد ؛ لأنه كان السبب فى ظفرها بذلك المنصب .. ولولاه ما ظفرت به .. فلم يجدها فى الايوان ، وقيل له انها فى غرفتها فلم ير بأسا من لقائها هناك. ولم يدن من الغرفة حتى رأى ركن الدين خارجا من عندها وعلى وجهه امارات الهيام ، فبغت ركن الدين عند مشـاهدته وحيـاه تحية عادية اذ لم يكن فى نفسه شيء نحوه .. أما عز الدين ، فان الشك تسرب الى ذهنـه وهبت الغيرة فى قلبه .. فلم يزد على رد التحية ، وعزم على استطلاع سبب وجود ركن الدين هناك حالما يلاقى شجرة الدر فى غرفتها

فلما عاد اليه الحاجب يطلب منه أن ينتظر شجرة الدر فى الايوان ، زادت وحشته وتعاظمت غيرته ، وخيل اليه ان شجرة

الدر غلبت الكبرياء على قلبها حتى أصبحت تستنكف من لقاء صديقها وسبب نعمتها فى غرفتها .. لكنه أخذ يغالب شكوكه ، وتجلد وذهب الى الايوان فى انتظارها .. واتفق انها تباطأت فى الوصـول ريثما بدلت ثيابها ، ثم جاءت وهى تجر ذيل ثوبها الملكى والخصيان بين يديها . فلما دخلت وقف لها ورحب بها ، فحيته وأشارت اليه أن يجلس ، وصرفت الخدم ..

فلما رآها تهش له تغير ما فى نفسه ، وأغضى عما سبق الى ذهنه وقال : « جئت لأهنىء الملكة بمنصبها وأرجو أن تتـأيد دولتها » ..

فابتسمت ابتسامة الشكر ، وقالت : « انى لا أنسى فضلك فى ذلك ياعز الدين ، ولا بد لى من الاعتمـاد عليك فى فض المشاكل التى تنتاب الدولة .. »

فقال عز الدين : « انى رهين الاشارة ياسيدتى .. »

قالت شجرة الدر : « انت نعلم ما يحيط بنا من الحساد ، وما يهددنا من الأعداء ، ولا سيما الافرنج فانهم لن يكفوا عن مناوأتنا » ..

قال عز الدين : « لا يشغلك شاغل من أمر هؤلاء فانى مدبر أمرهم » ..

قالت : « بارك الله فيك .. غير انى رأيت ركن الدين يليق بهذا العمل .. وقد سمعتك تثنى على بسالته ، وقد اتفق انى رأيته اليوم وذكرت له أمر الافرنج .. فرأيت منه ارتياحا الى

الخروج اليهم ، غير انى أحببت أن يكون ذلك برأيك » ..

فلم يعجبه قولها انها رأته اليوم ، وكيف تراه ان لم يكن ذلك بموعد بينهما ، وكيف يكون ذلك فى غرفتها لا فى الايوان .. لكنه تجاهل وقال : « ان ركن الدين أهل لثقتك .. ولا بأس من أن يعهد اليه فى ذلك بأمر منك رأسا »

فمدت يدها الى جيبها وأخرجت ورقة ملفوفة وقالت : « اليك ما كتبته له فى ذلك .. »

فتناول الورقة وفضها فاذا هى أمر صادر منها الى ركن الدين بهذا المعنى وهذا نصه :

« من ملكة المسلمين عصمة الدنيـا والدين ذات الحجاب الجليل ، والدة المرحوم خليل ، وزوجة الملك الصالح ــ رحمه الله ــ الى القائد الباسل الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى . نظرا لثقتنا الكبرى ببسالتك وعلو همتك بعد ما ظهر من بلائك فى دفع الافرنج عن بلادنا . ولما كان هؤلاء الملاعين لايزالون يناوئوننا فى جهات دمياط ، فقد عهدنا اليك بعد مشورة أتابك جنـدنا الأمير عز الدين ايبك أن تخرج اليهم برجالك الذين تختارهم ، وتكفينا أمرهم وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ..

« والدة خليل »

فلما قرأ الأمر أعجبه قولها انها فعلت ذلك بعد مشورته فطوى الكتاب وبعث به الى ركن الدين . وعاد الى محادثتها فى شئون الدولة ، وهى تبذل جهدها فى مجاملته ليطمئن قلبه لها ، ولايزال

الشك يخامره ـــ والمحب كثير الشكوك ـــ لكنه كان يطرد تلك الشكوك من خاطره ؛ فلما انصرف من عندها وخلا بنفسه عادت اليه الشكوك ..

أما ركن الدين فانه لما بلغه كتاب شجرة الدر بادر الى تنفيذه ، وقد اتسعت آماله فيما تطمح اليه أنظاره من الارتقاء فى مناصب الدولة : وهو يرى نفسه أهلا لأكبر المناصب . فانه كان كبير المطامع عالى الهمة والدولة فى اضطراب ، وقد خطر له أن الدولة التى تستطيع امرأة أن تصير ملكة فيها .. كيف لا يستطيع ذلك ، قائد باسل .. لكنه يعلم ان مطلبه عسير وعز الدين أمامه ، وهو صاحب النفوذ الأقوى عند الجند وعند شجرة الدر نفسها . على ان ما آنسه من ملاطفة هذه المرأة فى ذلك اليوم شجعه نوعا ، لكنه كتم مطامعه هذه عن الجميع لعلمه بما يعتور ذلك من الخطر . ومع ذلك فان حبه شوكار هون عليه كل عسير ، وصار حبها من أقوى الدوافع له على طلب العلى

— ١٨ —

طارق مهم

وأما عز الدين فبعـد خروجـه من الايوان مشى الى المنزل الخاص به فى القلعة .. ودخل غرفة منه تطل على القاهرة ، وقد تعمد الخلوة ليفكر فيما طرأ عليه فى ذلك اليوم من الظنون ..

واتفق أن جلس على مقعد بجوار النافذة ، فوقع بصره على القاهرة وما وراءها من الفسطاط الى النيل ، وفيه جزيرة الروضة فتذكر الملك الصالح ، وأيامه هناك مع شجرة الدر . فمر فى مخيلته تاريخ علاقته بها فلم يجد ما يوجب شكا ؛ فعاد الى حسن الظن ..

وبينما هو فى ذلك ، اذ جاءه غلام ينبئه بمجيء امرأة منقبة تريد مقابلته ؛ فسأل الغلام من هى تلك المرأة ؟.. فقال : « لم أستطع تمييزها لأنها منقبة وقد غطت وجهها »

فنهض وهو يفكر فيمن عساها أن تكون ، وسار الى غرفة خاصة بمقابلة القادمين ، فوجد تلك المرأة جالسة على المقعد وقد التفت بملاءة ثمينة . ويدل مجمل حالها على انها لم تأت تطلب صدقة .. فدخل وحياها فردت التحية وهى تتحفز للنهوض ، فأشار اليها أن تجلس فجلست .. وجلس هو بين يديها وقال لها : « من أنت ياسيدتى ؟ .. وماذا تريدين ؟ .. »

فأزاحت النقاب عن وجهها ولم تجب .. فاذا هى سلافة قيّمة قصور الملك الصالح ، وكان معجبا بجمالها وله معها مواقف كانت هى الظافرة فيها ، نظرا لما كان لها من المنزلة عند الملك الصالح . وكان يحترمها من أجل ذلك .. ولم يكن يتوقع أن يراها آتية اليه على هذه الصورة . فلما كشفت وجهها بادر الى الترحيب بها والاعتذار لها لأنه استقبلها هناك فقالت : « لم

آت اليك لضيافة ولكننى جئت ألتمس منك شيئا أنت صاحب الأمر فيه .. »

فقال عز الدين : « وما هو ؟ .. »

قالت سلافة : « علمت اليوم ان أمور الدولة صـارت الى صديقتك شجرة الدر . وأنا كما تعلم قيمة قصور الملك الصالح . فالملك الصالح مات وقصـوره نهبت ، ونقل أثاثها الى هـذه القلعة ، وصار الحكم الى احدى جواريه .. لا تؤاخذنى فى هذا التعبير .. وهب انها جارية ، فيكفى انها صديقة عز الدين ايبك .. وهو الذى رفعها الى مقام الملك .. انت رفعتها الى ذلك المقام لأنها صديقتك. ولك الخيار فيما فعلت.. هنأها الله بهذا المنصب ، وانما جئت الآن أطلب منك أن تطلق سراحى من الخدمة ولم يبق لى عمل فى هذه القصور ، اذ لم يبق فيها دور للحريم .. بعد أن صارت ملكتنا من الحريم فاصرفنى .. أم أنت لا تستطيع أن تفعل ذلك من تلقاء نفسك بدون أن تستشير ملكة المسلمين ؟ »

وكان لكلام سلافة وقع شديد فى نفس عز الدين وهو فى تلك الحال من التردد والشك .. وكان يجل قدرها ، ويحب أن يتقرب منها ، لكن لم تكن تسنح له فرصة فى حياة مولاها .. وحين جاءته فى تلك الحال وقع فى حيرة وتنبهت فيه عوامل كثيرة ، أهمها احتقار نفسه لأنه خضع لامرأة على حين لم ترض امرأة مثلها أن تخضع لها . وتنبه فى خاطره حب كان كامنا ، هاجه ما قام فى نفسه من الغيرة . ولم يسعه السكوت مع ذلك عن الدفاع



« ودخل عز الدين غرفة ..من المنزل الخاص به فى القلعة..تطل على القاهرة
وقد تعود الخلوة ليفكر فيما طرأ عليه بعد ذلك اليوم من الظنـــون .. »

حفظا لكرامته فقال : « ان شجرة الدر لم تصل الى هذا المنصب الا لأنها أم ولد السلطان كما تعلمين .. »

قالت سلافة : « صدقت .. بارك الله فيكم ـ لم تبايعوها الا لأنها أم ولد السلطان .. ما شاء الله ـ وأين ذلك الولد ؟.. قد مات .. واذا كان الغرض المحافظة على نسب السلاطين الأيوبيين فى هذه السلطنة ، ألم يكن الأولى أن تولوا عليكم ولو غلاما أيوبيا يكون الأتابك عز الدين وصيا عليه ويكون ذلك الأمر بيد الأتابك .. والأمير عز الدين الآن أتابك ، ولكن هل الأمر بيده ؟ أنا أعرف جنس النساء .. انهن لايحفظن الوداد .. لا أقول ان شجرة الدر هكذا ، لكن طبيعتنا نحن النساء هكذا . ويؤيد ذلك ما جاء عنهن فى كتب الدين ، وفضلا عن ذلك فان هذه السلطنة لا تثبت ان لم يأت كتاب أمير المؤمنين العباسى راضيا عن هذا الاختيار »

فقال عز الدين : « وهل تظنين ان أمير المؤمنين يعترض على هذا الاختيار ؟ »

قالت سلافة : « لاشك عندى فى ذلك .. »

قال عز الدين : « أظنك مخطئة يا سلافة لأن شجرة الدر حكيمة عاقلة ، وقد اختارها الأمراء والقواد .. فلا أظن ان أمير المؤمنين يخالفهم »

قالت سلافة : « أؤكد لك أن أهل بغداد كافة سيغضبون لهذا العمل وليس الخليفة فقط . وسوف ترى .. انى أعرف هذه

الأمور من قبل .. ما لنا ولذلك .. أرجو الآن أن تصرفنى وتطلق سراحى ، لكن بدون مشورة أحد .. »

قال عز الدين : « والى أين تذهبين اذا أطلقت سراحك ؟ ..»

قالت سلافة : « أضرب فى هذه الدنيا .. » وغصت بريقها وتساقطت دمعتان على خديها ، فمسحتهما وأظهرت انها خجلت من الضعف الذى ظهر عليها وسكتت ..

فأثر منظرها فى قلبه وقال : « بدلا من ذهابك فى هذه الدنيا امكثى عندنا » ..

قالت سلافة : « أين أمكث ؟ .. قد ذهبت القصور والنساء وحيثما مكثت أكون أسيرة سجينة ، أو أكون رهينة رضى ملكة المسلمين أو غضبها . وهـذا لا صبر لى عليه مثل صبركم أيها الرجال العظام والقواد البواسل ، فانى امرأة ضعيفة ولا صبر لى على ذلك » ..

فأحس بالتهكم الذى يتخلل أقوالها ووجدها مصيبة فيما تراه ، وأعجب بجسارتها حتى تقول له صراحة ، فقال لهـا : « يا سلافة .. يكفى تأنيبا وتعنيفا .. ما حدث فقد حدث .. وأنا أعرف قدرك ، ولا أحب أن تخرجى على هذه الصورة ، فامكثى عندى .. و .. »

فقطعت كلامه قائلة : « أمكث عندك ؟ يامسكين .. وما الذى يصيبك لو علمت شجرة الدر بوجودى هنا ؟ .. »

فوجد أن الحق معها .. لكن كبر عليه أن يعترف بهذه الحقيقة

فقال : « ما لها وما عندى ؟ .. أنا لا أتعرض لما عندها .. »

قالت سلافة : « وما هو الفرق بين الملوك وسواهم ؟.. هل يجوز لنا ما يجوز للملوك ؟ هل يخيل اليك انك لو رأيت رجلا خارجا من غرفة شجرة الدر صديقتك الحميمة ، وأنت وضعتها فى هذا المنصب ؛ يحق لك أن تسأل عن سبب وجوده هناك ؟.. أما هى فلها كل الحق أن تعد أنفاسك وتحاسبك على كل خطوة »

فتذكر مشاهدته ركن الدين فى ذلك الصباح خارجا من عندها وما خامره بسبب ذلك من الشكوك .. فأطرق برهة يفكر ، لكنه خشى أن يدل ذلك على ضعف فيه ، وهو لا يريد أن يظهر ذلك ، ولا سيما بين يدى سلافة بعد ما أسمعته اياه من اللمز والتعريض ، فقال : « انت تعتقدين اذن أن وصول شجرة الدر الى هذا المنصب أبعد ما بينها وبينى ، فحق لها أن تتصرف كما تشاء . فما الذى يمنعنى من أن أفعل أنا ما أريده ولا ألتفت الى ما يرضيها أو يغضبها ؟ »

فقالت سلافة : « لا .. لا أشير عليك بذلك .. انه يكون سببا فى تنغيص العيش ، ولا أحب أن يكون ذلك بواسطتى »

قال عز الدين : « هل تظنين ان وجودك عندى يغضبها ؟ .. ومع ذلك لا أرى حاجة الى اطلاعها على وجودك عندى .. »

فهزت رأسها وقالت : « انها جرأة عظيمة ياسيدى .. اذا أحببت أن أكون تحت ظلك لا أرى أن أقيم معك فى منزلك ، بل أقيم فى مكان آخر .. وأنا على كل حال صديقتك وسأبقى

على ودادك ولو صرت ملكة المسلمين .. على انى لا أضمن ذلك .. لأن الانسان عرضة للتغيير » وضحكت ..

فقال عز الدين : « ما الذى يجول بخاطرك الآن وتخشين ان يتغير ؟ .. »

قالت سلافة : « يجول بخاطرى ان النساء لايصلحن للحكم . وان السلطة لا تليق الا بك ؛ فأنت قائد الجند ، وأنت حاربت الافرنج وقهرتهم ، وأنت دبّرت كل شىء .. هذا ما أراه الآن ولا أغيّر فكرى فيه » ..

فكان لهذا الاطراء وقع جميل فى قلبه .. والانسان تخدعه ميوله حتى تريه الأسود أبيض ، والخرافة حقيقة . ومن فطرته أن يؤمن بصدق مادحه واخلاصه ، ويميل اليه قلبه .. وقد عرف هذه الطبيعة أصحاب التدبير الذين يحتاجون الى مصانعة الناس فى التجارة أو غيرها فاتخذوا مدح « زبائنهم » واطراء مناقبهم وسيلة للتقرب اليهم واكتساب ثقتهم .. واتخذ هذه الخطة أيضا طلاب رضى النساء ، وجعلوا اطراء جمالهن أو سجاياهن وسيلة لاكتساب قلوبهن ، ولذلك قال أمير الشعراء :

خدعوها بقولهم حسناء   والغوانى يغرهن الثناء

والحقيقة ان الثناء لايغر الغوانى فقط ، بل هو يغر كل انسان ويندر أن ينجو عاقل من الوقوع فيه

فلما سمع قول سلافة فيه اعتقد صدقها وانها على حق فيه ، وتوهم ان لا غرض لها غير تقرير الحقيقة .. وهيأ له اعتقاده

اخلاصها وصدق مودتها ، وكان ذلك باعثا على التباعد بينه وبين شجرة الدر بدون أن يشعر . وافترقا على أن تقيم سلافة فى قصر خاص بها وتكون تحت رعاية عز الدين

وبعد أن ذهبت سلافة ، أخذ يفكر فيما قالته ، فوجده فى جانب الصواب .. اذ كان يجب أن يتولى السلطنة أحد غلمان بنى أيوب ، ويكون هو مدبرا للمملكة ، ولا يكون هناك مجال للاعتراض . وذلك أفضل من أن تتولى الدولة امرأة . وغلب على اعتقاده انه أخطأ فى توليتها وان المرأة لا تصلح للملك . وقد زاد هذا الاعتقاد رسوخا فى نفسه ، أن سلافة جاءته به من باب المدح له .. وفرح من ناحية أخرى لأن سلافة قيّمة قصور الملك الصالح صارت فى حوزته ..

أما شوكار فانها أصبحت بعد سفر ركن الدين الى دمياط شديدة الميل الى سماع أخبار الحرب واستطلاع ماجرى . وهى تصبر نفسها ، وكلما طال انتظارها ازدادت شوقا ولهفة . وأما هو فكان يغتنم قدوم بعض خاصته للسؤال عنها وتتبع أحوالها

مضى على ذلك ثلاثة أشهر ، لم يأت الى القاهرة فى خلالها الا مرتين ، واختلس الفرص فاجتمع بشوكار ـ بعد استئذان شجرة الدر ـ وسمع غناءها ..

وفى المرة الثانية تواعدا على العقد بعد رجوعه ، فمكثت تنتظر ذلك بفارغ الصبر كأن قلبها دلها على سوء سيصيبها .

– ١٩ –
رسول الخليفة

أصبح أهل القاهرة والناس يتهامسون عن رسول قادم من أمير المؤمنين العباسى ، وقد نصب فسطاطه فى ضاحية القاهرة . وأخذوا يتكهنون عما عسى أن يكون مضمون رسالته . ويندر أن تأتى رسالة من الخليفة العباسى الا اذا كان هناك أمر مهم من عزل أو تولية ..

وكان ذلك الرسول حال اشرافه على القاهرة قد بعث رجلا من سعاته ينبىء القواد والأمراء بقدومه ، ليرسلوا من يستقبله على جارى العادة احتراما للرسالة التى يحملها منخليفة الرسول. ولم يمض كثير حتى ضجّت المدينة وغصت الشـوارع بالمارة والوقوف ، ولاسيما فى الشوارع الممتـدة من باب النصر الى القلعة حيث يمر ذلك الرسول. واستعد الأمراء والقواد فى القلعة للاجتماع وسماع الرسالة عند تلاوتها . وأكثرهم يظن انها تتعلق بسلطنة شجرة الدر ، والأرجح عندهم انها تثبيت لها فى المنصب على جارى العادة فيمن يولونه من السلاطين .. وتقاطر الأمراء والقواد الى الديوان ، وفى مقدمتهم عز الدين ايبك وغيره من الأمراء البحرية .. الا ركن الدين ، فانه كان لايزال غائبـا فى دمياط . أما شجرة الدر فقد كانت على سريرها فى صدر الايوان

وعليها وثوبها الملكى الذى لبسته يوم الاحتفال بتوليتها منذ ثلاثه أشهر ومعها شوكار . وكانت هذه متأســفة لغياب ركن الدين فانها كانت تود حضوره

أما سلافة فكانت أعلم أهل القاهرة بفحوى تلك الرسالة ، اذ جاءها رسول خاص من قيمة قصر الخليفة المستعصم بالله ، كان مرافقا لرسول الخليفة .. وعلمت منه ان الرسالة تتضمن خلع شجرة الدر عن سلطنة مصر ، فكاد قلبها يطير من شدة الفرح .. وأحبت ابلاغ ذلك الى عز الدين ، وكان يتردد عليها فى أثنــاء هذه المدة وقد تحابا وبلغ خبرهما الى شجرة الدر فاستاءت ، لكنها كظمت . فلما علمت سلافة بما تضمنته رسالة الخليفة ، بعثت الى عز الدين فجاءها فقالت له : « بلغنى انه جاءكم رسول يحمل كتابا من أمير المؤمنين فما هو فحواه ياترى ؟ .. »

قال عز الدين : « لا أعلم يا سلافة .. »

قالت سلافة : « وما ظنك أن يكون فحواه ؟ .. »

قال عز الدين : « قلت لك انى لا أعلم .. فهل أنت تعلمين ؟ »

فضحكت وقالت : « نعم أعلم .. وقد حدثتك عن فحواه منذ ثلاثة أشهر .. ألا تذكر ؟ .. »

فأطرق وهو يفكر ، فتذكر حديثها الأول معه يوم جاءته الى القلعة ، وقالت له يومئذ ان الخليفة لايسلم بسلطنة شجرة الدر فقال : « أظنك تعنين حديثنا عن شجرة الدر ؟ »

قالت بتهكم : « نعم .. عن ملكة المسلمين »

قال عز الدين : « أذكر أنك تنبأت بأن الخليفة لا يقبل سلطتها فهل جاء الرسول بهذه المهمة ؟ »

قالت سلافة : « جاء بهذه المهمة .. وفحوى رسالته خلع هذه المرأة عن المملكة »

فأدهشته هذه المفاجأة لأنه لم يكن ينتظرها ، واستغرب اطلاع سلافة على ذلك الخبر قبل أن يسمع به أحد ، والرسول لم يدخل القلعة بعد ، والكتاب لا يزال فى حقيبته ، فقال لها : « كيف عرفت ذلك يا سلافة ؟ .. هل أتاك علم الغيب ؟ .. »

فضحكت وقالت : « عرفته وتنبأت به قبل حدوثه لعلمى أن تلك السلطنة لا ترضى أمير المؤمنين . والآن كن حازما واعلم ان الرأى الذى ذكرته لك منذ ثلاثة أشهر هو الرأى الصواب ، هل تذكره ؟ .. »

فغلبت الدهشة على عز الدين وأحس بضعفه بين يدى تلك المرأة ، وأعمل فكرته فيما تطلبه منه ، فتذكر انها أشارت عليه يومئذ بأن يولى أحد أبناء الأيوبيين ويكون هو أتابكا ، ثم يغتنم الفرصة ويستقل بالسلطة بعد أن تستقر قدمه فيها ، فقال : « أذكره .. نعم أذكره .. لكن ما هو السبيل الى اتمامه ؟ .. من الغلام الأيوبى الذى يمكننا تنصيبه ؟ »

قالت سلافة : « متى بلغتم الى هذا الأمر أنا أدلك على واحد يصلح لذلك » ..

قال عز الدين : « قولى الآن اذ ربما لا تسنح الفرصة باعادة النظر » ..

قالت سلافة : « صدقت .. هل تعرف موسى بن صلاح الدين ابن مسعود بن الكامل ؟ »

قال عز الدين : « نعم أعرفه ، لكنه غلام لا يتجاوز سنه ثمانى سنين » ..

قالت سلافة : « لو كان عمره خمس سنوات لكان أصلح لما نريده .. هذا الغلام هو أولى الأيوبيين بهذه السلطنة ، ومتى كنت أنت أتابكه كان كل شىء فى يدك .. »

قال عز الدين : « ولكن من يضمن لى الأتابكية ؟ .. »

قالت سلافة : « أنا أضمنها لك بشرط أن لا تظهر ضعفا وأن تكون أنت المقترح لسلطنة موسى هذا .. واتمام ذلك علىّ .. »

قال عز الدين : « وهل تحضرين الاحتفال معنا ؟ »

قالت سلافة : « أحضر مع النساء من وراء الستار » فودعها وخرج من عندها ، وقد سيطرت على عقله بعد أن ملكت قلبه .. وحينما وصل الى القلعة وجد الأمراء فى انتظاره ، وأكثرهم قلقا على غيابه شجرة الدر .. فقد علمت بغيابه وهى وراء الستار ، وكأن قلبها دلها على تنافر بينهما . ومكثت تنتظر وصول الرسول وتلاوة الكتاب وهى لا تعلم ما هو مخبوء لها

– ٢٠ –

أمر الخليفة

ونحو الظهر ماجت الأقوام فى ساحة القلعة وجاء الخبر بوصول الرسول .. فتقدم الحاجب لاستقباله عند مدخل الايوان ، وقد وقف الأمراء من الجانبين وشجرة الدر على سريرها وراء الستار ومعها شوكار . وقد لاحظت شوكار اضطراب سيدتها وخوفها ، فأخذت تخفّف عنها وتطمئنها وتداعبها ، وهى تتجلد وتصغى لما يدور من الحديث فى الخارج ، ثم سمعت عز الدين يقول : « أيها الأمراء .. هذا رسول مولانا الخليفة أمير المؤمنين المستعصم بالله ـ حفظه الله ـ ومعه كتاب من الخليفة سيتلوه علينا فاسمعوا له وأضمروا الطاعة لما يحويه لأنه من خليفة الرسول (صلى الله عليه وسلم) .. »

فصاح الجميع : « نحن مطيعون للرسول وخليفته »

فتقــدم حامل الكتاب ووقف على دكة وفضّه ، وأخذ يقرأ والناس سكوت كأن على رءوسهم الطير ، ويكاد الواحد منهم يوقف تنفّسه لئلا يشـّوش عليه سمعه .. وهذا نص الكتاب :

« من أبى أحمد عبدالله المستعصم بالله بن المستنصر بالله أمير المؤمنين الى أمراء الجند والوزراء فى مصر . السلام عليكم . وبعد فقد بلغنا أنكم وليتم أمركم شجرة الدر جارية المرحوم الملك الصالح وقلدتموها أمور الدولة وجعلتموها سلطانة عليكم ، فاذا

لم يكن عندكم رجال يصلحون للسلطة فاخبرونا نرسل اليكم من يصلح لها . أما سمعتتم فى الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة ؟.. »

ولم يفرغ القارىء من تلاوة الكتاب حتى ضج الناس وعلت الضوضاء ، ولا تسَل عن شجرة الدر وما أصابها حين سمعت ذلك .. لكنها كانت عاقلة حازمة ، فلما سمعت أمر الخليفة وعلمت انه لا مندوحة لها عن العمل به تجلدت وأومأت الى الحاجب أن يزيح الستار المنصوب بينها وبين المجلس .. فأزاحه والتفت الناس نحو السرير وتهيبوا ، ولبثوا ينتظرون ما يبدو من شجرة الدر بعد تلاوة ذلك الكتاب فاذا هى تقول : « يا معشر الأمراء .. قد سمعتم ما أمر به أمير المؤمنين ، وطاعته فرض على كل مسلم .. لقد صدق ــ حفظه الله ــ ان النساء لا يصلحن للسلطة .. وأنا لم أقبل هذا المنصب الا عملا برأيكم .. أيها الأمراء والقواد .. ورغبة فى استقرار الأحوال بعد اضطرابها . أما الآن وقد استقرت الأمور وسمعنا رأى مولانا الخليفة ، فانى أخلع نفسى وأطلب اليكم أن تختاروا من ترونه يتولى هذا الأمر .. وأنا أول خاضعة له »

فاستحسن محبوها هذا التنازل منها لأنه دل على كبر نفسها وسعة عقلها .. ولم تستحسنه سلافة لأنها كانت تحب أن تتردد فينزلوها كرها ، على انها اكتفت بخلعها .. وحينما فرغت شجرة الدر من قولها ، خرج صوت من وراء حجاب يقول : « لا نقبل علينا سلطانا ان لم يكن من سلالة آل أيوب »

ولم يعرف الأمراء من أين خرج الصوت ، لكنه عبَّر عن شعور كثيرين . فأمّنوا عليه — وهذا هو شرط النجاح فى الاقتراحات العامة لمصلحة الأمة — يشترط أن يكون الاقتراح فى محله يعبِّر عن شعور القوم .. أى أن يكون شعورهم بذلك سابقا للتصريح به . ولا عبرة فيمن هو المنادى به ، فان الناس يتبعونه ويقولون قوله والغالب انهم مفلحون . أما اذا كان الاقتراح لم يسبقه شعور الأمة ، ولم تكن هى فى حاجة اليه ، فيذهب صياح المقترح صرخة فى واد .. وقد يعود بالضرر

فالمصريون عند تولية شجرة الدر كان أكثرهم غير راضين عن توليتها ، ويطلبون تولية رجل من آل أيوب ، لكنهم أذعنوا خوفا من الجند . فلما خلعت وسمعوا صوتا يقترح ما يشعرون به أجابوا بالموافقة ، ولو لم يعرفوا المقترح .. وعلا الضجيج والصوت الغالب اختيار سلطان من آل أيوب . فتوجهت الأنظار نحو كبير الأمناء هناك ، وهو عز الدين أيبك ، كأنهم يستشيرونه فقال : « ان مولاتنا شجرة الدر قد برهنت بتنازلها عن الملك على انها مخلصة لمولانا أمير المؤمنين وانها حريصة على حقوق المسلمين . ونحن لم نكن وليناها هذا المنصب الا لأنها والدة المرحوم خليل من سلالة الأيوبيين . أما الآن فما علينا الا اختيار أحد أمراء تلك السلالة . واعلم ان منهم مولانا موسى بن صلاح الدين بن مسعود .. لكنه صغير السن » ..

فقاطعه حامل الكتاب قائلا : « لا يضره صغره فانك أتابكه

وقائد جنده ومدبر أموره .. فما رأيكم أيها الأمراء ؟ »

فصاحوا جميعا : « هذا هو الصواب لا نرى أصوب منه »

فاستغرب عز الدين قول صاحب الكتاب وهو قادم من بغداد كيف عرفه ورشحه لهذا المنصب .. فلما سمع مصادقة الجمهور ، وقف ساكتا .. فقال حامل الكتاب : « بما أنكم قد وافقتم على تولية موسى بن صلاح الدين فلنفعل ذلك الآن . وقد دفع التى مولانا أمير المؤمنين شارات السلطنة لألبسه اياها »

قال ذلك ، وأشار الى أحد رجاله الوقوف هناك ، فدفع اليه حقيبة كالصندوق .. فأمره ففتحها ، وفرش ملاءة ، وأخذ يخرج ما فى الصندوق ويضعه فوقها والناس ينظرون . فكان أول شىء أخرجه خلعة سوداء هى شارة بنى العباس ، ثم عمامة سوداء ، وأخرج طوقا من ذهب للعنق وقيدا من ذهب للساق .. فلما صارت كلها على الملاءة قال : « هذه شارات السلطنة فأتونى بالسلطان موسى بن صلاح الدين لنلبسه اياها ، فقد أوصانى أميرالمؤمنين أن لا أخرج من مصر الا وعليها سلطان من آل أيوب » ..

فاهتم عز الدين باحضار ذلك الغلام ، ولم تمض مدة قصيرة حتى جىء به وهو طفل فى الثامنة من عمره .. فألبســوه تلك الشارات على قدر الامكان ونادوا به سلطانا ، على أن يكون عز الدين ايبك أتابكا له ومدبرا لأمور الدولة عنه (١)

كل ذلك وشجرة الدر على سريرها ترى وتسمع ، فلما فرغوا

(١) السيوطى ــ الجزء الثانى

من تنصيب السلطان الجديد وأرخوا الستار عليهـا تنفست الصعداء وأكبت على كتف شوكار ، وأخذتا فى البكاء .. وشوكار تتجلد وتقول : «هلمى ياسيدتى نذهب الى غرفتك لئلا نفتضح»

فأطاعتها ، ومشتا نحو الغرفة .. ولما وصلتا الى هناك ، أخذت شوكار تخفف عن سيدتها ، وهذه تتأوه وتتنهد ، وأخيرا قالت : « لا أعلم سبب هذا التغيير ، ولكننى أحسنت بالتنازل من تلقاء نفسى .. ولا تظنى اننى حزينة لاعتزال هذا المنصب الشاق ، وأنت أعلم الناس بما كنت أشكوه من ثقل أعبائه . ويكفينى انى أول امرأة تولت الحكم فى الاسلام، وأنت الآن تعزيتى الوحيدة»

فلم يعجبها قولها لأنها أصبحت تفضل أن تكون تعزية ركن الدين ، فسكتت فابتدرتها شجرة الدر قائلة : « انما أتأسف لأنى لم أبق على كرسى الملك حتى ينال ركن الدين ما هو أهل له من الرتب العالية .. لكنه سينالها من سواى ، ولو كان هنا اليوم لنال شيئا .. وربما كان هو المختار للأتابكية »

فانقبضت نفس شوكار عند سـماع ذلك ، وتأسفت لفوات الفرصة ، لكنها عادت الى اطراء سيدتها ، وقالت : « انما يهمنى ياسيدتى أن تكونى سعيدة »

قالت شجرة الدر : « انى سعيدة بك ياشوكار كما تعلمين .. والحمد لله قد تخلصت من أعباء الحكم ، ولكننى ذقتها .. فلا أحسد أحدا عليها ولا أتمنى أن أعود اليها »

قالت شوكار : « صدقت ياسيدتى لأنى رأيتك منذ توليت

السلطنة قلقة الخاطر ، وكنت قبلها منشرحة الصدر .. متى يعود ركن الدين ياترى ؟ .. »

قالت شجرة الدر : « سيعود قريبا .. انه حين يسمع بهذا التغيير سوف يأتى .. ومتى أتى تنالين ما وعدتك به » فأطرقت وسكتت

– ٢١ –

لم يكن فى الحسبان

لم يمض ذلك النهار حتى خلعت شجرة الدر ، وتولى موسى ابن صلاح الدين ولقبوه بالملك الأشرف على أن ينوب عنه فى تدبير الأمور عز الدين . وأما هذا فقد أحس ان ما ناله فى هذا اليوم انما كان الفضل فيه لسلافة .. فلما انصرف القوم ، كان أول شيء عمله أنه ذهب الى منزل سلافة ، فرآها جالسة جلوس الملك الظافر وهى تضحك لنجاح مهمّتها .. فلما دخل ألقى التحية ، فقالت : « ما رأيك أيها الأمير ؟.. ألم تكن سلافة عاقلة تفهم سرائر الأمور ؟ .. »

قال عز الدين : « صدقت والله انك جئت بالمعجزات .. ألا تخبرينني كيف استطعت الاطلاع على هذه الأمور قبل وقوعها ؟»

قالت سلافة : « أما وقد علمت صدق مودتى لك ، فلا أخفى عنك انى أنا السبب فيما رأيته من التغيير والتبديل بسبب صداقتى لقيّمة قصر الخليفة المستعصم بالله .. فانى كتبت اليها

كتابا ترتب عليه ما رأيت ، ولكنها اشترطت عليّ أمرا ضمنت لها تنفيذه ، ولم أقل لك عنه قبل الآن ، لعلمى انك لا ترى مانعا من تحقيقه » ..

قال عز الدين : « وما هو ؟ .. »

قالت سلافة : « هل تعدنى انك تفعله ؟ .. »

فقال فى نفسه : « ماذا عسى أن يكون طلبها ؟ .. » وخشى أن يكون فيه ما يسوءه ، لكنه لم يسعه الا الطاعة ، فقال : « انى فاعل ما تريدين .. »

قالت سلافة : « هذا كتاب قيمة القصر تقول فيه ان مولانا أمير المؤمنين بلغه وجود فتاة رخيمة الصوت تتمتع شجرة الدر بغنائها ، وهو يطلب الىّ أن أرسلها اليه حالا .. لأن أمير المؤمنين مغرم بالغناء وسائر وسائل الطرب .. هذا ما ضمنته لرسول الخليفة .. ضمنت له انى سأرسل معه جارية شجرة الدر هدية للخليفة » ..

قال عز الدين : « لعلك تعنين المغنية شوكار ؟ »

قالت سلافة : « نعم .. اياها أعنى ، فماذا ترى ؟ »

قال عز الدين : « هذا هين علىّ .. وأظنه يسر تلك الجارية لأنها ستنتقل من خدمة ملكة مخلوعة الى قصر خليفة عظيم »

فأعجبها قوله : « ملكة مخلوعة » وابتسمت وقالت : « ولا يخفى عليك ان ارضاء الخليفة لابد لك منه الآن ، وأنت ستحتاج

الى رضاه عنك اذا أحسنت التدبير وصرت سلطانا مستقلا .. أظنك فهمت مرادى »

فأومأ برأسه أنه فهم كل شىء ، وأسرع الى النهوض ، وأشار اليها مودعا وهو يقول : « ائذنى لى فى الانصراف للقيام بهذه المهمة »

قالت : « سر فى حراسة الله .. وشوكار ستسافر مع الرسول غدا .. أليس كذلك ؟ »

قال : « بلى .. » وتحول نحو القلعة وهو متنكر خوفا من أن يسترعى انتباه الناس . وكان فى أثناء الطريق يفكر فى سلافة واقتدارها وقد شعر بامتنان لها . وأحس بأنه لم يكن أمينا نحو حبيبته شجرة الدر .. ولكنه اغتفر لنفسه ذلك بما كان قد داخله من الشك من أمرها مع ركن الدين بالأمس . وكان يحب أن يؤجل مقابلة شجرة الدر الى الغد ريثما يهدأ روعها ، لكن الحاح سلافة بعثه على سرعة لقائها

فلما دخل القلعة سار توا الى منزل شجرة الدر ، وكانت جالسة فى غرفتها مع شوكار ، وقد أخذت شوكار تعزف على العود وتغنى لتخفف عن شجرة الدر .. وحينما أقبل عز الدين على باب الدار ، سمع عزف العود فأشار الى الحاجب أن يخبر شجرة الدر بقدومه

— ٢٢ —

العتاب والنفور

دخل الحاجب وأنبأها بذلك ، ولم ينتظر عز الدين جوابها بالاذن فدخل بدالّة الصداقة ..فلما أقبل على الغرفة رأى شجرة الدر بثياب المنزل وقد عصبت رأسها بعصابة مزركشة لا تريد بها الزينة ، لكنها أرادت تخفيف صداع ألمّ برأسها على أثر ما كابدته فى ذلك اليوم ؛ فلما رأته داخلا تثاقلت فى النهوض وهى تتألم من الصداع . ولم يكن الصداع وحده سبب تثاقلها ، لكنها كانت قد شعرت بتغير قلبه وتحول محبته .. ولم يفتها أمر سلافة وتردده عليها قبل خلعها ، وتأكدت تغيره فى ذلك اليوم لأنها كانت تراقب حركاته .. وعلمت انه حال انفضاض المجلس ذهب اليها توا ، وكان ينبغى له أن يبادر الى شجرة الدر يؤانسها ويخفف عنها . هذا ما كانت تتوقعه لو كان لايزال على عهده معها . فلما رأته داخلا انقبضت نفسها واختلج قلبها فى صدرها عتبا وغيظا.

أما هو فأسرع اليها وهى تتحفز للوقوف ، وقال : « اجلسى ياسيدتى لا حاجة الى وقوفك .. انى أراك مريضة .. فماذا أصابك ؟ » ..

فعادت الى مقعدها وهى تصلح العصبة وتلتف بالمطرف وتتكمش كأن البرد يتمشى فى عروقها .. وظلت ساكتة

فجلس عز الدين على مقعد بين يديها ، وقال : « أظنك مصابة

بالصداع الذى كان يتردد عليك أحيانا .. »

فقالت شجرة الدر : « انه صداع شديد لم أصب بمثله من قبل .. لا أراك الله مثله ياعز الدين وحماك من غوائله » ..

فلم يعجبه قولها وأدرك انها تعنى شيئا تضمره ، فقال : « لا ينجو أحد من الصداع يا شجرة الدر .. وليس الصداع مما يئوبه له ، ولا يلبث أن يزول »

قالت : « انه يختلف عما تعودته قبلا .. وتغيير العادة صعب أليس كذلك ؟ » وظهر العتب فى عينيها

فأدرك مرادها ، لكنه تجاهل وقال : « ان الانسان لايستطيع أن يتعود الآلام ، فاذا عاودته رآها فى كل مرة جديدة ، كأنه لم يذقها من قبل .. ولو علمت انك مصابة بالصداع لأسرعت اليك قبل هذه الساعة »

قالت : « لا حاجة الى تعب قلبك مع هذه الملكة المخلوعة ، وأنت الآن فى شاغل بأمور الدولة وغيرها .. »

قال : « وهل تظنين مهام الدولة تشغلنى عن شجرة الدر .. وقد كان يجب أن أبادر الى تهنئتك بالنجاة من أثقال هذه المهام.. وأعجبنى منك ما أظهرته فى هذا الصباح من رباطة الجأش وسعة الصدر . وقد أحسنت بكل ما صدر منك فلم تتركى لأمر الخليفة بالخلع قوة أو أثرا .. » وتنحنح وبلع ريقه وقال : « والحق يقال ان ذلك الأمر اذا ظل له أثر فانما يكون أثره موجها الينا .. أو الىّ على الخصوص لأننا ألجأناك الى قبول السلطة .. ولم يدر

فى خلدنا أن يكون ذلك مخالفا لارادة أمير المؤمنين »

فأحست من خلال أعذاره بثقل المن عليها بأنه هو الذى جعلها ملكة ، فقالت : « أنتم أخطأتم فى الاقتراح ، وأنا أخطأت فى القبول .. على ان نزولى عن عرش الملك لم يترك أثرا كبيرا فى نفسى بقدر ما ترك .. » وسكتت وهى تنظر اليه نظر العتاب

فأدرك انها تشير الى تغيُّره ، فبادرها قائلا بلهفة : « أخشى أن يكون قد داخلك شك فى صداقتى و ... »

فقطعت كلامه قائلة : « لا .. لا .. لم يداخلنى شىء .. ولكننى تعلمت ان الانسان لاينبغى أن تغره ظواهر الأمور دائما .. والذى أراه الآن أن نترك العتاب ونروّح عن نفوسنا بلحن نسمعه من شوكار » والتفتت الى شوكار ، وكانت قد وضعت العود من بين يديها ، فتناولته وأصغت لما تأمرها به سيدتها فاذا هى تقول لها : « أنت ياشوكار تعزيتى الوحيدة الآن .. ولا أخشى تغيرك .. غننى لحنا محزنا » قالت ذلك وتلألأ الدمع فى عينيها

فتأثر عز الدين من منظرها ، وخاصة بعد ما رآه من تعلقها بشوكار وهو قادم ليأخذها منها .. فظهرت البغتة فى وجهه ، لكنه تشاغل بسماع الغناء ، وهو يظهر انه يسمع ، والحقيقة انه وقع فى حيرة .. ولم يعد يعلم ماذا يفعل ، والوقت لايساعده على تأجيل مهمته . قضى برهة وهو يفكر فى حيلة ينتحلها للدخول فى الموضوع وطلب شوكار منها .. فلما فرغت شوكار من الغناء التفت عز الدين الى شجرة الدر وهو يبتسم وقال : « يظهر انك

تحوّلت عن كل شيء الى شوكار .. أليس فى قصرك من يحسن الغناء سواها ؟ »

قالت شجرة الدر : « لا أعنى الغناء فقط ، لكننى أعنى انها تؤانسنى ، وأعتقد أنها تحبنى ولا أخشى أن تتحوّل عن محبتى »

فأدرك عز الدين انها تشير الى تغيره عليها .. لكنه صمم على أن يصل الى مراده ، فقال : « ولكن ليس من الحكمة أن تعلقى آمالك بها الى هذا الحد .. أنا آتيك بمغنية أحسن منها متى شئت .. »

فقالت شجرة الدر : « لا .. لا أريد سواها .. »

فقال عز الدين : « الأفضل أن تطلبى سواها .. »

فقالت وقد أحست بشيء يضمره : « هل تنوى أن تسلبنى هذه التعزية أيضا ؟ » واختنق صوتها

قال عز الدين : « لم أكن أحسب أن لها هذا المركز لديك ، ولولا ذلك لما وافقت على أخذها »

فأجفلت وصاحت : « أخذها .. من يأخذها منى ؟ لا .. لا .. انها جاريتى وأعزها معزة أولادى .. لا أسمح بها لأحد أبدا .. »

فتشاغل بحك أنفه بسبابته وهو مطرق ، ثم قال : «صدقت ، يحقّ لك أن تحرصى عليها ولا تسمحى بها لأحد.. ولكن الانسان لا يستطيع أن يفعل ما يشاء دائما .. ولا سيما اذا كان الطالب لا يمكن رد طلبه »

فنهضت ونظرت اليه بدهشة وقالت : « من طلبهـــا ؟.. قل ياعز الدين .. »

قال عز الدين : « لا تغضبى ياســيدتى .. ان طالبها أعظم رجل بين المسلمين »

فجلست وقالت : « أظنك تعنى المستعصم بالله .. أمير المؤمنين أما كفاه خلعى عن الملك حتى يطلب جاريتى اليه .. »

قال عز الدين : « يسوءنى انى لا أرى مندوحة عن اجابة طلبه وهو أمير المؤمنين ، ونحن تحت رعايته ، وهو خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم »

قالت شجرة الدر : « وكيف طلبها ؟.. ومن جاء ليأخذها ؟ »

قال عز الدين : « رسول الخليفة حامل كتابه وقد رأيتــه بالأمس » ..

فتناثر الدمع من عينيها رغم ارادتها ، والتفتت الى شــوكار فرأتها مطرقة ساكتة ودموعها تتدحرج على خديها .. فأثر منظرها فى نفسها ، وهاج غضبها وقالت : « وهل وافقتــه على ذلك ياعز الدين ؟ .. »

قال عز الدين : « وهل فى الامكان رد طلبه ؟.. وقد رأيت أمره نافذا فيما هو أعظم من ذلك كثيرا »

فوقفت وأخذت تمسح عينيها بمنديلها وهى تكاد تتميز من الغيظ ، ثم رفعت بصرها اليه ، وقالت : « ولكن هــذه الفتاة مخطوبة ! » ..

قال عز الدين : « أعلم .. وانما أعلم ان طلب أمير المؤمنين يجب عليّ أن أنفذه ، ومن كان له شـأن فيه فليطالب أمير المؤمنـين .. » قال ذلك ونهض وقـد ظهر الاصرار والجد فى حركاته ثم قال : « فلتستعد شوكار للسفر غدا صباحا ، واعلمى انها ستسافر معززة مكرمة وانه لا خوف عليها فهى مطلوبة لأمير المؤمنين » وخرج ..

ولم يكد يبلغ الدهليز حتى سمع بكاءها وشهيقها .. لكنه تجاهل وأوصى الحراس هناك أن يراقبوها لئلا تفر خلسة فى أثناء الليل ..

— ٢٣ —

ركن الدين وشجرة الدر

وقد أحسن بهذه الوصيّة لأن شجرة الدر كانت قد عزمت على انقاذها ، فلما تحققت من استحالة ذلك عظم الأمر عليها ، وتمكنت البغضاء من نفسها ، وأصبح همها التخفيف عن شوكار والتهوين عليها ، وتجلدت أمامها وبينت لها ان ذلك الأمر لا مناص من الطاعة فيه ، ولكنها ستبذل جهـدها فى انقـاذها ، وأكدت لها ان ذهابها لا خوف منه

أما شوكار ، فكان أكبر همها أن ترى ركن الدين ، وأن تعرف احساسه بعد أن يسمع ذلك الطلب .. وما الذى يبدو من غيرته أو فتوره ، ولكن لاسبيل اليه وهو بعيد .. والوقت لايساعد

على استقدامه في ذلك الليل ، فاستسلمت وتوكلت .. وكان ذلك في عرف تلك الأيام شيئا عاديا .. لما تمكن في نفوس الناس من امتياز الخلفاء والأمراء ، وان أولئك الجوارى مثل سائر المتاع لا ارادة لهن ولا رأى ، فتعودن الاستسلام لما يطرأ عليهن فى الانتقال من سيد الى سيد . ولولا خوف شوكار أن تخسر ركن الدين لكان انتقالها الى بيت الخليفة يحسدها عليه كثيرات ومع ذلك فلم يكن لها أن تختار

وفى صباح اليوم التالى ، حملها بعض الخصيان الى معسكر رسول الخليفة ، بعد أن ودعت مولاتها وداعا يفتت الصخر .. لكن شجرة الدر أكدت لها انها لن تتركها ، ولا بد من أن تهيىء لها أن تقترن بركن الدين ، فسافرت الى بغداد وقلبها فى مصر

أما شجرة الدر فقد شق عليها فراق شوكار كثيرا ، لكن غضبها من عز الدين انما كان سببه الغيرة من سلافة .. وحدثتها نفسها ان تلك الجارية هى سبب مصائبها ، لكنها نقمت على عز الدين خيانته المضاعفة ، فقد خانها فى قلبها وأحب سواها .. وخانها فى منصبها ، فسهّل استبدالها بغيرها ، ولم يبدِ اعتراضا على خلعها وهو قائد الجند وصاحب القوة الفعالة ، فاضطرت الى الاذعان لحكم الزمان ، اذ لم تر حيلة الى غير ذلك

على انها تذكرت ركن الدين وهو آت عما قليل الى القاهرة ، فكيف تقابله ؟ .. وماذا تقول له ؟ ..

أما هو فلما بلغه ماحدث من الانقلاب فى القاهرة أسرع اليها .

فوصل بعد سفر شوكار ، وتوجه الى شجرة الدر قبل أن يقابل عز الدين . فأخبرته بما جرى واهتمت على الخصوص بمسألة شوكار ، وأكدت له انها بذلت جهدها فى اقناع عز الدين ليبقيها ، فأبى وبالغت فى وصف قحته وفظاظته كى توغر صدره عليه ..

وكان ركن الدين لايزال بثياب السفر وهو يسمع حديثها فعظم عليه الأمر ، وقام فى خاطره لأول وهلة أن عز الدين فعل ذلك نكاية فيه ليحرمه من شوكار .. لكنه كان رابط الجأش واسع الصدر حريصا على سره ، فلمْ يجب بكلمة واحدة .. مع ان الغضب ظهر فى عينيه ، وكانت شجرة الدر تلاحظ ذلك فيه فتعيد الشكوى وتتوقع أن يقول قولا يشفى غليلها ، ولا يشفيه الا أن يتوعد عز الدين بالقتل .. فقد تحوّل حبها له الى كره بعد أن ظهرت خيانته ..

وبعد حديث طويل وهو ساكت ، ملّت سكوته ، فقالت : « ما بالك يا ركن الدين ؟ .. لعلك سررت بذهاب شوكار من يدك كما سررت بذهاب الدولة مني .. وكلاهما من فضل ذلك الخليفة الخليع ! .. »

فعظم عليه ذلك التعبير عن الخليفة ، فقال لها : « وأى خليفة تعنين ؟ » ..

قالت شجرة الدر : « أعنى المستعصم صاحب بغداد الذى استعظم أن يتولى المسلمين امرأة ، ولم يستعظم أن يتولاهم رجل

عديم المروءة ضعيف الرأى ، مشتغل باللهو والجوارى والقيان وسماع الغناء » قالت ذلك وقد ظهر الغضب فى عينيها ، وتاقت نفسها الى معرفة وقع هذا القول من ركن الدين ، فوجدته لم يزدد الا اطراقا وسكوتا

ولو أوتيت قراءة الأفكار لعلمت ان سكوت ذلك الأمير أدل على غضبه من الكلام ، وأنفذ لغرضه من السهام . وقد تنازعته عوامل كثيرة ، كل واحد منها يقيم ويقعد .. وقامت فى نفسه أمور لو اطلعت عليها شجرة الدر لاشتفى غليلها وخفت نقمتها ، لأنها كانت تستحثه على المسير ذراعا وهو يريد أن يمشى ميلا أو فرسخا ..

فلما رأته لايزال ساكتا ، أشكل عليها أمره .. فقالت : «تكلم ياركن الدين ، تكلم لقد ضاق صدرى من سكوتك ، لعلك لم تصدق قولى ، تمهل انى سوف آتيك برجل يعرف هذا الخليفة حق المعرفة ، وقد جاء من بغداد أمس ، اسأله وهو ينبئك عن أفعال ذلك الخليع .. تفضل اجلس وأنا أبعث به اليك الساعة »

فجلس وهو يلاعب شاربه ولحيته بيده ، ويوشك أن يقتلع شعرهما بأنامله من فرط التأثر ، وهو لا يشعر .. وبعد قليل دخل البغـــدادى ، فلما رآه ركن الدين عرفه فانتبه له وناداه قائلا : « سحبان »

فصاحت شجرة الدر : « قد أنطقك الله بعد طول السكوت ، الحمد لله .. الفضل فى ذلك لسحبان حفظه الله ، قل ياسحبان ما

الذى تعرفه عن المستعصم صاحب بغداد.. ولا تخف من التصريح فان ركن الدين صديقنا ، قل ما قلته لى البارحة » ..

- ٢٤ -

التردد

وكان سحبان قد عاد من المهمة التى بعثته فيها سـلافة ، وقضاها كما تريد .. فلما جاء الى بيتها وقص عليها ما فعله لم يجد منها عطفا ، ثم لاحظ تردد عز الدين ورأى جفاء منه أيضا ، فتحوّل حبه لسلافة الى بغض، ونقم عليها وعلى عز الدين .. وهو ناقم على تلك الدولة بأسرها لأنه شيعى من أهل بغداد ، وقد برحها فرارا من ظلم العباسيين واضطهادهم الشيعة بحيث لم يعد فى امكانه الصبر على الضيم هناك .. فجاء الى القاهرة منذ بضعة أعوام ، واجتمع بمن فيها من الشيعة ، فاشتركوا فى التشاكى وهم صابرون حتى تسنح الفرصة لعلهم يستطيعون أن يستعيدوا الأمر للعلويين ، كما كان فى أيام الفاطميين . وكان سحبان ذا ثروة وتجارة واسعة ، وقد أحب سلافة وكلفته بتلك المهمة كما علمت ، فلما عاد شق عليه تغيرها ، ولم يجد خيرا من أن يثير غضب شجرة الدر عليها ، وعلى العباسيين ، وعلى سلطانهم بمصر جملة .. وهو يعلم انه يسهل انقيادها اليه لما هى فيه من الغضب على منصبها ، وعلى خيانة عز الدين لها .. فجاء بالأمس بوصفه تاجرا ، وكانت تعرفه كما تعرفه سلافة.. فأظهر انه قادم من بغداد

بسلع جديدة تليق بها ، وتطرق فى الحديث حتى أثارها على الخليفة ، وأكد لها خيانة عز الدين .. فكتمت ذلك

فلما جاء ركن الدين قصت عليه ما عرفته ، ولأجل التأكيد استقدمت سحبان كما رأيت ..

فلما رآه ركن الدين بشّ له فألقى التحية ، فدعاه ركن الدين الى الجلوس ، فقالت شجرة الدر : « كيف فارقت أمير المؤمنين يا سحبان ؟ » وضحكت

فقال سحبان : « فارقت رجلا لا همّ له الا سماع الغناء والاشتغال بالطعام واللهو » ..

قالت شجرة الدر : « وكيف ترى دولته ؟ »

قال سحبان : « انى أخشى على دولته من أهلها .. ان لم أخف عليها من المغول ، فقد أوشكوا أن يحملوا عليها والناس خائفون . أما الخليفة فلا يهمه غير الطرب واللهو ، واذا ظل على هذه الحالة فالدولة ذاهبة لا محالة .. »

فضحك ركن الدين وقال : « هل تذهب دولة العباسيين ؟ .. قد سمعت أصحاب الأخبار يؤكدون انها تبقى أبد الدهر ولا يمكن أن تخلو الأرض منها »

قال سحبان : « يقولون.. ولكن الواقع انها ذاهبة لا محالة »

قال ركن الدين : « هل تخلو الدنيا من خلافة ؟ »

فقال سحبان : « كلا يامولاى .. »

قال ركن الدين : « فمن أين نأتى بالخليفة ؟.. ومن يثبت

سلاطيننا على مصر ؟ »

قال سحبان : « ألا يصح التثبيت الا اذا كان من العراق ؟ ألا يصح أن يكون من مصر؟.. ألم تكن مصر هذه خلافة زاهية منذ أقل من مائة سنة ؟ ألم تكن أحسن حالا وأوسع جاها ؟.. و..»

فلم يصبر عليه ركن الدين حتى يتم كلامه ، فقال له : « أظنك تعنى دولة العبيديين ، ولكن أولئك من الشيعة »

فقال سحبان : « وماضرّ انهم شيعة أو سنّة ، أليسوا مسلمين من قريش ؟ وانما الفرق ان الخلافة يكون مركزها فى هذه البلاد ، فيزداد عمرانها وتتسع تجارتها وتعمر أساطيلها وتمتد فتوحها ، وتصير العراق امارة من اماراتها بدلا من أن تكون صاحبة الأمر عليها »

وكان سحبان يتكلم وركن الدين شاخص اليه مستغرق فيما يهدف اليه من كلامه ، ليستطلع حقيقة ما يضمره .. وهو يعلم غرض الشيعة ضد السنة ، فصدق من كلامه ما يوافق غرضه ، ولم يبد ملاحظة ولا صرّح بما جال فى خاطره .. وما زاد على قوله : « لقد أفدتنا يا سحبان جزاك الله خيرا » ونهض يريد الانصراف فنهض سحبان واستأذن ، وانصرف وقد أدهشه سكوت ركن الدين وتكتمه ، وقال فى نفسه : « انه رجل لا يؤمن جانبه » ..

أما شجرة الدر فلم تكن أقل دهشة من سحبان ، فلما خرج قالت : « يا ركن الدين قد آن لك أن تتكلم ولا أزيدك شيئا على

ما سمعته من تضعضع العباسيين فى بغداد ، ولا عن حال السلطنة المصرية ، فان سلطانها غلام سنه ثمانى سنوات.. والحكومة كلها فى يد أتابكه عز الدين » قالت ذلك وصرّت على أسنانها غيظا

قال ركن الدين : « أراك غاضبـــة على عز الدين .. لعلك غضبت لأنه سمح بارسال شوكار الى الخليفة لتكون عنده فى جملة المغنين ؟ » ..

قالت شجرة الدر : « نعم .. هذا هو سبب غضبى الرئيسى ، ولى على عز الدين أمور أخرى تخصنى »

فقال ركن الدين : « وهل ذهبت شوكار راضية ؟ »

قالت شجرة الدر : « كلا .. انها ودعتنى باكية وهى تذكر ركن الدين ، وأوصتنى بأن أقول لك انها باقية على حبك لاترضى عنك بديلا ولو كان الخليفة نفســه ، وأنا أكدت لها انك لن تتخلى عنها .. ان البطـل ركن الدين سيكون ركنا قويا لنا ، وأعنى بقولى (لنا) أنا وهى ، لأنى أصبحت الآن وحيــدة .. وهذا عز الدين قد شغل بسواى وبمنصبه ونسى الصداقة .. لا بأس ليكن كما يشاء ، والله مع الصابرين .. »

قال ركن الدين : « اذن .. شوكار ما زالت على حبها لى .. فهل ترين أن لا أكون أنا مثلها ؟ »

قالت شجرة الدر : « لاشك عندى انك ستتفانى فى سبيل انقاذها والانتقام لها .. كيف وجدت قول سحبان من حيث الخلافة الفاطمية ؟ »

قال ركن الدين : « لم يعجبنى قوله .. ان الرجل يطلب خلافة شيعية ، وهذا لا يصح ولا يليق بنا .. ولكننى لم أجبه سلبا ولا ايجابا . ولا أقول شيئا الآن على كل حال بل أترك ذلك الى حينه ، والأمور مرهونة بأوقاتها .. أستأذنك ياسيدتى .. » قال ذلك وهمّ بالخروج ..

فقالت شجرة الدر : « فى حراسة الله »

— ٢٥ —

المناجاة

ذهب ركن الدين من بين يدى شجرة الدر ، وقد خلف أثرا عميقا فى قلبها .. رأت منه فى ذلك الموقف ما لم تره من قبل ، وعظم أمره فى خاطرها .. وقد زادها تهيبا منه ، تكتمه لما يجول بخاطره .. فما هدّد ولا توعّد ولا نقم ، ولكنها كانت تقرأ ذلك كله على أساريره وفى عينيه ..

أما هو فسار توا الى غرفته فى القلعة .. ولم ينبه أحدا الى مجيئه .. وأجل لقاء الأتابك عز الدين الى الغد .. دخل غرفته وأغلق بابها وأخذ فى نزع ثيابه وهو غارق فى التفكير فيما سمعه فى ذلك اليوم من الأمور الغريبة . وهو لايزال فى مقتبل العمر قليل الاختبار . وتلك أول مرة فطن فيها الى مطامع الرجال الكبار على أثر ما سمعه عن قلب السلطنة بمصر ، وما هى عليه

الخلافة فى بغداد ، ولم يفته غرض سحبان من ذم الخلافة العباسية والثناء على الخلافة الفاطمية .. ولا انطلى عليه قصد شجرة الدر من المبالغة فى سيئات المستعصم والتحريض عليه . وأدرك ما فى نفسها من النقمة على عز الدين ، وانها اذا أحبت فوز ركن الدين فانما تريده انتقاما من الذين أساءوا اليها .. مرّ كل ذلك فى خاطره وهو يبدل ثيابه ويلبس ثوب المنزل ويتخفف بعمامة صغيرة .. وجلس على فراشه وهو لايزال يفكر ..

فرسخ فى ذهنه ان شجرة الدر وسحبان انما حرضاه على طلب السيادة ، لا حبا له بل انتقاما لنفسيهما .. ولم يجد ضيرا فى ذلك ولا رآه غريبا ولا عده خداعا لأنه كان عاقلا حكيما ينظر الى الأمور من حيث حقيقتها . فلم يكن يرجو من صديقه مساعدة ليس له من ورائها مصلحة ، لعلمه ان الناس لايأتون عملا بلا قصد ، ولا يقدمون على أمر ان لم يتوسموا من ورائه نفعا لهم . ومن زعم انه يفعل الخير بغير مقابل ولمجرد نفع الآخرين ، فقد أخطأ أو وهم أو كذب . فاذا علمنا هذه الحقيقة سهل علينا أن نعامل أصدقاءنا معاملة سليمة ، فلا نتوقع منهم فوق المستطاع .. ولا نستقبح منهم أن ينظروا الى مصلحتهم فيما يخدمون به مصلحتنا ..

كان ركن الدين واثقا من هذه الحقائق .. وأدرك غرض صاحبيه من ذلك التحريض ، فقبله شاكرا وعزم على الانتفاع به ، لكنه فضل كتمان مقاصده الى حين الحاجة . فلما جلس على

فراشه وهو وحيد فى تلك الغرفة ، طفق يحدث نفسه قائلا :
« أخذوا شوكار منى .. أخذها الخليفة اليه فى بغداد ليسمع غناءها ، وهى نعمة قلَّ من ينلنها من الجوارى الحسان .. أرادت شجرة الدر أن تثير غضبى على المستعصم لأنه فعل ذلك ، وهل يلام لأنه طلبها اليه وقد رفع قدرها وزادها نعما ؟.. لا يحق لى أن أنقم عليه ، أو أعد عمله اساءة لى ، لأنه لم يتعمد أخذ شوكار وهو يعلم انها خطيبتى أو زوجتى . وقد يقال ان هذا الخليفة ضعيف أو محب للَّهو يجب قتله أو خلعه لأجل ذلك .. اذن هذا معقول . ولكن من يضمن أن خلفه لا يكون أكثر ضعفا منه ؟.. ومن يعرِّض نفسه للخطر فى سبيل خلعه أو قتله وهو لايرجو أن ينال حظا لنفسه من السيادة . وقد أضحكنى رأى ذلك الشيعى باحياء الدولة العبيدية أو غيرها من العلويين بمصر، اذ ما الفائدة لنا من احيائها ؟.. فمتى صارت مصر خلافة لايبقى مجال لطلاب السلطنة ، أى لا تبقى حاجة الى السلاطين .. أما اذا بقيت الخلافة العباسية فى بغداد تثبت السلاطين بمصر — وكان سلطان مصر يكاد أن يكون مستقلا — غير ان ذلك لا يمنع مجاراة الرجل ومصانعته لعل فى سعيه نفعا يأتى عن غير قصد منه . واذا لم ننجح فلا ضير من مسايرته »

ولما بلغ الى ذكر سلطنة مصر ، نهض من الفراش وقد هاجت مطامعه ، وتمشى فى الغرفة لحظة وهو مطرق ثم قال : « سلطنة مصر ؟ انها أفضل من خلافة بغداد .. هل أطمع فيها أنا ؟.. نعم

انى طامع فيها ، ولكن لو قلت ذلك للناس استجهلونى .. وقد أكون متطرفا فى مطامعى ، لكننى يجب أن أسعى منذ الآن . احذر يا ركن الدين أن تجعل أحدا يشعر بذلك »

وسمع وقع حوافر جواد مار أمام غرفته فانتبه لنفسه ، وتذكر سفر شوكار ، فقال : « هل أتغافل عن شوكار لا أطلبها ؟.. انى أحبها ، وان كان ذلك الحب جاءنى فى أول الأمر تكلفا ، لكنه تمكن من قلبى .. ويكفى انها تحبنى وتتوقع منى انقاذها ، هذا اذا ظلت هى على ودادى بعد دخولها قصر الخليفة .. »

- ٢٦ -

ضوء القمر

وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فعزم على أن يقضى بقية يومه مرتاحا ، على أن يبكر فى الصباح لمقابلة عز الدين والسلطان الجديد وتهنئته بما ناله ، ثم ينظر فيما يفعله ، فتناول العشاء واستراح قليلا .. فلم يشعر بحاجة الى النوم لشدة ما جاش فى صدره .. واستولى عليه الأرق

فلما أسدل الليل نقابه تزمل بعباءته وخرج يتمشى فى فناء القلعة نحو الجبل ، والجو صحو ، والقمر قد تكبد السماء ، وظهرت الطبيعة بأبهى ما يكون من الجلال والهيبة ، ويحلو للمفكر فى مثل تلك الليلة أن يقف على جبل أو فى واد أو حديقة

يناجى نفسه فى هدوء وسكينة كأنه يعهد بسره الى القمر ، أو يخاطب الطبيعة ويباحثها

وقد علمت ما كان فيه ركن الدين من الهواجس على أثر ما تزاحم فى ذهنه من المشاريع والمطامع .. فخرج وهو ملتف بالعباءة فلم يعترضه الحرس ، وتسلق الجبل فى ضوء القمر حتى بلغ الى سطحه ، فوقف والتفت الى القاهرة وما فيها من الحدائق وخلفها النيل ينعكس ضوء القمر على مائه ، وخلف ذلك الأهرام وقممها تناطح السحاب ، وحولها بساتين النخيل والجميز، لايظهر منها الا أشباحها كالظلال ، فجلس على صخر خلف بناء خرب أصله مسجد أو قلعة ، ولبث هادئا ساكتا كأنه يتأمل مناظر الطبيعة وقد يتهيب من سكوتها ، وأفكاره تنتقل به من موضوع الى موضوع ونصب عينيه شوكار وأين هى ، ويعترض تفكيره فيها مطامعه فى السلطنة وهل ينالها .. وضوء القمر يكبر أشباح الفكر فتتعاظم الأوهام حتى تظهر كالحقيقة

وبينما هو ساكت مطرق، اذ سمع حفيفا يشبه انسياب الثعبان على التراب فلم يخش ذلك ، لكنه لفت انتباهه الى انفراده هناك واستغراقه فى هواجسه .. فهمّ بالنهوض ، واذا هو يسمع قهقهة على مقربة منه .. فالتفت فلم ير أحدا ، فأوشك أن يتوهم ذلك الصوت من أصوات الجان .. وكانت هذه الخرافات شائعة فى تلك الأيام ، لكنه ما لبث أن سمع وقع أقدام خلف البناء الخرب من الجهة الأخرى ، فسكت .. لا خوفا ، ولا تلصصا ، لكنه لم

يكن يريد أن يشعر أحد بخروجه فى تلك الليلة من القلعة

وأصاخ بسمعه فاستنتج من مجمل ما سمعه ان هناك أناسا يتسامرون .. فساقه حب الاستطلاع الى الاستماع ، وان يكن ذلك مخالفا لما فطر عليه من البسالة والانفة . لكن حب الاطلاع على المخبئات من جملة طبائع الانسان .. وهو لم يسع اليه بالتجسس ، وانما سيق اليه مصادفة ..

وقد زاده رغبة فى التصنت انه سمع صوتا يشبه صوت سحبان ، وهو حديث العهد بسماعه فى ذلك اليوم .. سمع ذلك الرجل يقول لمخاطبيه : « ان سلافة هذه قد أدهشتنى بدهائها ومكرها » ..

فأجابه الآخر : « أظنك تعنى قيمة قصر الملك الصالح .. هل هى من دهاة النساء ؟ .. »

فقال سحبان : « مهما قلت فيها لاتستطيع أن تحيط بوصفها ، أما أنا فقد خبرتها بنفسى .. أرأيت هذا الانقلاب الذى جرى أمس والتبديل الذى حصل فى السلاطين ؟.. أرأيت خلع شجرة الدر، وتنصيب الملك الأشرف ؟.. انها هى وحدها السبب فى ذلك كله»

فقال الآخر : « هذه مبالغة منك ياسيدى .. كيف يتأتى لها ذلك ، وهى هنا والخليفة فى بغداد ؟.. لعلك توهمت هذا فيها حين رأيت عز الدين ايبك يتردد عليها حتى أفسدت ما بينه وبين شجرة الدر ، ولكن هذا .. » ..

فقطع سحبان كلامه قائلا : « أنا أقول لك عن ثقة .. ان

سلافة وهى فى القاهرة قلبت الحكومة وبدلت السلاطين »

فقال : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « يظهر ان نفوذها هناك عظيم جدا ، وكلامها مسموع فى قصور الخلافة »

فقاطعه الآخر قائلا : « صدقت لأنها هى فى الأصل من جوارى ذلك الخليفة وقد أهديت للملك الصالح .. ولكن قد يكون فى قولك مبالغة » ..

قال سحبان : « انى أقول لك شيئا خبرته بنفسى » وخفت صوته وقال : « أنا أخذت كتابها بيدى الى بغداد .. فلم يكن الا مسافة الطريق حتى جاء الجواب بخلع شجرة الدر .. و .. »

فضحك الرجل وقال : « ولكن ما الذى أدخلك فى هذه المهمة ؟ وما هو شأنك مع هؤلاء الأتراك يا سحبان ؟ .. »

قال سحبان : « لايهمك أن تعرف تفصيل ذلك ، ولكننى وجدت هذه المهمة قد تساعدنا فى مشروعنا ، وكنت أحسب ان خلع شجرة الدر على هذه الصورة يفضى الى ثورة تحقق لنا الأهداف المعروفة » ..

— ٢٧ —

كشف السر

فلما سمع ركن الدين هذا الحديث رأى فيه فائدة له ، فاغتفر

تصنته ومكث لسماع بقيته ، فسمع رجلا آخر يقول : « لقد أسأت ياسيدى بهذه المهمة لأنك أخرجت الدولة من يد امرأة الى يد رجل قوى ، أعنى عز الدين .. لأنه لايلبث أن يخلع ذلك السلطان الغـلام ويقبض هو على الدولة بيد من حـديد .. والحقيقة على ما أرى انك قمت بهذه الخدمة طمعا فى رضى سلافة .. انها فى الحقيقة بارعة الجمال .. »

قال سحبان : « صدقت .. انها جميلة .. وربما خطر لى أن أنال رضاها ، لكن المهمة فى أصلها خدمة للغرض المعروف »

فقال الآخر : « وهل نلت ما كنت تأمله من رضاها ؟ .. »

قال سحبان : « لا أدرى .. ان هذه المرأة سُر من أسرار الخليفة أو هى لغز لا يمكن حله .. يظهر أنها بلا قلب ، أو هى ذات خلق خاص .. أعترف لكم انى كدت أنال رضاها وسمعت من تقربها وتلطفها ما أكد لى حبها . ثم ما لبثت أن رأيتها تغيرت فرجعت من بغداد بالأمس ، واذا هى قد اختصت نفسها بالاتابك عز الدين .. وقد ملكت قلبه ولبّه ، حتى شعرت شجرة الدر بذلك وغضبت عليه . لكن هذه أصبحت بعد خروج الملك من يدها لا تستطيع غير العتاب والشكوى »

فتصدى رجل للسؤال قائلا : « كل ما تقوله صحيح وأزيد عليه ان السبب فى اهتمام المرأة بخلع شجرة الدر وتنصيب غيرها انما هو غيرة منها ، لأن شجرة الدر صارت ملكة ، وهى تحسب نفسها أحق منها بذلك لأنها كردية من قبيلة الملك الصالح .

ففعلت ما فعلته انتقاما وليس فيه شيء من الدهاء ، لأنها نقلت الدولة الى يد أخرى .. واذا صدقنا انها فعلت ذلك بدهائها ، فما الذى عاد عليها من هـذا العمل ؟ .. ثم انى لم أفهم كيف توصل الخليفة فى بغداد الى خبر شوكار المغنية حتى يطلبها .. »

فقال سحبان : « هى التى أوعزت اليه أن يطلبها نكاية فى شجرة الدر لأنها مغنيتها »

فلما سمع ركن الدين اسم شوكار خفق قلبه وزاد ميلا الى السماع ، وحمد الله على تلك المصادفة التى أسمعته هذا الحديث وهو فى أشد الحاجة الى معرفته ، لأنه كان غائبا عن مصر فى أثناء حوادثه ، فأنصت فسمع رجلا يقول : « وهذا لا شيء فيه من الدهاء .. لأن شجرة الدر يمكنها الاستعاضة عن شوكار بعشرات مثلها . ولكن السر الحقيقى فى نجاح هذه المرأة ان لها صداقة متينة مع قيمة قصر المستعصم ، ولها عليها حقوق مختلفة ، فكتبت اليها بما رأته ، وتلك صاحبة النفوذ هناك فأنفذته .. دعنا منها انها امرأة متلونة منافقة .. والسلام »

فضحك سحبان وقال : « صدقت .. انها منافقة لأنها خدعتنى ، وأظنها ستخدع سواى . ولكن لاشك انها صاحبة نفوذ عظيم فى قصر الخليفة .. ما لنا ولها .. هيا بنا .. »

فقال آخر : « لا تطاوعنى قدماى على الابتعاد عن ضوء القمر الجميل . ولكن قد حان وقت النوم .. فلا حول ولا .. »

وسمع ركن الدين وقع خطواتهم وهم خارجون من ذلك

الموضع المهجور ، فانزوى ريثما يبتعدون .. وعاد الى التفكير فيما سمعه عن سلافة وعن سر الانقلاب الذى جرى ، فانجلت له أمور كثيرة يرجو الانتفاع بها ..

ثم عاد الى غرفته يطلب النوم ، وقد أنهكه الأرق فضلا عن التعب .. فتوسد الفراش على أن ينهض فى الصباح لمقابلة الملك الأشرف وعز الدين اتابكه . فلما أصبح لبس ثيابه وذهب الى الايوان فلقى عز الدين ، فأخبره انه وصل أمس ، لكن التعب منعه من القيام بهذا الواجب ، فقدمه عز الدين الى الملك الأشرف فقص عليهم نتيجة مهمته فى دمياط ، وقد انتهت باخراج الافرنج من هناك بشروط مناسبة

فأثنى عز الدين على همته وبسالته ووعده بالمكافأة ، فشكر له غيرته ، لكنه لم ير فيه ما كان يعلمه من غيرته عليه .. أو لعله أحس بذلك بسبب ما خامره من المطامع وما سمعه من الأقوال ، وعلى كل حال فانه بالغ فى الكتمان ، ولبث يتوقع سنوح الفرص

— ٢٨ —

شوكار

ثم عاد الى التفكير فى شوكار ، وهو لايدرى هل يبحث عنها أو ينتظر ريثما يتأكد من بقائها على حبه ، لأنه كان كثير الشك فى ذلك لما ستلاقيه فى قصر الخليفة من التقدير والاعجاب .. ولم يكن من ذوى العواطف القوية الذين يضحون بمصالحهم المادية

فى سبيل الحب . ولكنه كان قوى العقل كبير المطامع ، ويغلب فى هؤلاء أن ينظروا فى كل شيء من حيث ما يحقق لهم مطامعهم .. ولذلك لم يصدّق ان شوكار سوف تبقى على وده بعد ذلك الانتقال ، على انه كان يشعر بميل شديد اليها وعطف عظيم عليها ، وانما يعزيه نوعا انها هناك فى نعيم لا خوف عليها من الاهانة ، ولا يمس شرفها بما يبعث على غيرته لأنها جارية مغنية فقط .. قضى برهة وهو يفكر فيما يعمل ، هل يسافر الى بغداد للبحث عنها .. أم يبعث أحدا فى طلبها ، وشغل أيضا بمهام منصبه ، لكنه لم يستطع الصبر على الفراق ، وهو لا يعلم ماذا يكون من حال شوكار هناك ..

فأصبح ذات يوم وقلبه قلق على شوكار ، وقد رآها فى منامه على غير ما يريد . فاهتم بأمرها وهو غير قادر على السفر اليها ، فخطر له أن يكلف سحبان بذلك ، وأن يطمئنه ويظهر له انه يؤيده فى رأيه .. فبعث اليه ، فجاءه وهو مستبشر طمعا فيما يرجوه ، فلما لقيه قال ركن الدين : « صدقت يا سحبان .. ان هؤلاء القوم لايصلحون للخلافة وهم فى هذا الفساد »

قال سحبان : « ألم أقل ذلك ياسيدى ؟ »

قال ركن الدين : « نعم .. وأنا أعرفه . وقد خبرته بالأمس مما فعلوه معى .. لا أعلم اذا كنت سمعت بأخذهم شوكار »

فقال سحبان : « كيف لا ؟ .. سمعت ، نعم سمعت .. وهذا لا يفعله الخلفاء العلويون .. و ... »

فقطع ركن الدين كلامه قائلا : « ولكن هل تعلم من هى شوكار ؟ .. »

قال سحبان : « نعم .. انها جارية شجرة الدر ومغنيتها .. »

قال ركن الدين : « وهى فوق ذلك خطيبتى .. »

فأظهر سحبان الدهشة وقال : « خطيبتك ؟ .. وأخذوها منك ؟ .. لله هم من قوم ظالمين .. ! »

قال ركن الدين : « لم يأخذوها وهم يعلمون ذلك .. ما لنا ولهم ، وانما يهمنى الآن أن أعرف حال شوكار هناك ، وأنا لا أستطيع السفر ، وأنت تسافر دائما فى تجارتك ، فهل تقضى هذه المهمة لصاحبك ركن الدين ؟ .. »

فاستأنس سحبان بذلك التلطف وقال : « أقضيها على الرأس والعين .. وأسافر فى الغد لأجلها .. قبحهم الله .. انهم مضيعون هذا الملك عن قريب .. » وهزّ رأسه هزة الاستغراب ..

فقال ركن الدين : « أشكر لك اخلاصك يا سحبان ، والأيام بيننا .. »

فقال سحبان : « ان خدمتك يامولاى واجبة علىّ .. انى مسافر غدا ولا أسألك عما تطلبه ، فانى أعرف كل شىء .. كن مطمئنا » قال ذلك وخرج بعد أن ودّع ركن الدين

وعاد ركن الدين الى شئونه وقد اطمأن باله نوعا ، وصبر نفسه ريثما تنقضى المدة اللازمة لذهاب سحبان الى بغداد ورجوعه منها ؛ وهى أكثر من شهر

لكنه لم يمض أسبوعان على سفره حتى جاءه رسول بكتاب من بغداد وصل فى المساء ، فلم يصبر على تبليغ رسالته الى الصباح .. وكان ركن الدين فى تلك الليلة عند شجرة الدر ، وقد أكثر من التردد عليها ليبدد عنها ما أصابها من الوحشة بعد وقوع الفتور بينها وبين عز الدين ، ولم يدر أن تردده يزيد تلك الوحشة ..

كان ركن الدين فى تلك الليلة عنـــد شجرة الدر ، وجاءه الحاجب يقول : « ان بالبـــاب رسولا يحمل كتابا الى الأمير ركن الدين ولا يرغب فى تسليمه الا اليه بيده »

فقال ركن الدين : « ليدخل » ولم يطاوعه قلبه على الصبر فوثب كالسهم حتى لقى الرسول وصاح فيه : « ما وراءك ؟ »

فقال الرســـول : « وهل الذى يكلمنى الأمير ركن الدين بيبرس ؟ » ..

قال ركن الدين : « نعم .. من أنت .. ومن أين أتيت ؟.. »

قال الرسول : « أنا رسول الى الأمير من فتاة تريد أن يصل كتابها اليه سرا .. »

فخفق قلبه وقال : « هاته .. »

فمد الرجل يده الى جيبه ، وأخرج الكتاب ودفعه اليه ..

فتناول الكتاب ودخل الى القاعة وأخذ يقرأه ، وشجرة الدر تنظر اليه وترقب حركاته وما يبدو على وجهه من التغير . ولم يفرغ من قراءته حتى بلغ الغضـــب منه مبلغـــا عظيمـــا وقلب

شجرة الدر يخفق ، وعيناها شاخصتان فيه . فلما فرغ من تلاوة الكتاب صاحت فيه : « ماذا قرأت ؟ .. ماذا جرى ؟ .. »

فرمى الكتاب اليها .. فتناولته وقرأته فاذا فيه :

« من المسكينة شوكار الى سـيدها وحبيبها ركن الدين . اختطفونى من بين ذراعى شجرة الدر وأنت غائب ، ولم تجد مولاتى حيلة لاستبقائى لحين حضورك . فبرحت القاهرة وقلبى فيها .. ولم أزل منذ برحتها وأنا أندب حياتى ، لا أجد لى سلوى رغم ما كان يبذله صاحب هذا الركب من أسباب الراحة لى .. وهم يستغربون البكاء من جارية طلبها أمير المؤمنين لتكون فى مجلسه ، على انى ما لبثت أن وجدت بكائى كان فى محله لأنى حين أشرفت على بغداد تغيرت حالى ، اذ نقلونى الى قوم جاءوا من قصر الخليفة ، وكنت أحسبهم جاءوا ليستقبلونى ، وعزمت على انى حينما أستأنس بهم أطلب اليهم أن يعيدونى الى مصر ، أو أوسّط أحدا للخليفة كى يأمر بارجاعى بعد أن أقصّ عليه خبرى لكننى لم أكد أقع فى أيديهم حتى عاملونى معاملة الأسيرة ، وساقونى لا أدرى الى أين . وكان فى الركب الذى حملنى من مصر الخصى عابد البصرى حامل هذا الكتاب اليك . وكنت قد استأنست به وأحسست بعطفه علىّ ، فاغتنمت فرصة كتبت فيها هذا الكتاب على عجل ، ورجوته أن يوصله اليك .. فاكرمه ما استطعت الى الاكرام سبيلا وأستودعك الله ، ولا أظننا سوف نلتقى فى هذه الدنيا . وقد ختمت هذا الكتاب بدموعى .. »

وكانت شجرة الدر تقرأ وركن الدين يخاطب حامل الكتاب على حدة ، فسأله عما يعرفه من التفاصيل

فقال عابد البصرى : « لا أدرى ياسيدى سوى انى كنت فى خدمة الركب الذى أتى بكتاب الخليفة ، ولما عاد ومعه هـذه الجارية رأيت فيها لطفا ، وكنت أنا المكلف بخدمتها . والمفهوم بيننا انها محمولة الى أمير المؤمنين لتكون مغنية فى قصره . وكنا نبذل جهدنا فى خدمتها وراحتها . فلما وصلنا الى ضواحى بغداد جاءنا وفد من الجند وقالوا انهم قادمون من قصر الخليفة ، وطلبوا الينا أن نسلّمهم شوكار .. فلم يسعنا الا الطاعة ، لكننا لاحظنا انهم ذاهبون بها الى غير قصر الخليفة . فأشفقت عليها وأخذت فى تعزيتها وسألتها عما تريد أن أفعله ، فقالت : « لا أريد شيئا سوى أن توصل هذا الكتاب الى الأمير ركن الدين وتسلمه اليه بيده .. وقد فعلت »

فقال ركن الدين : « وأين هى الآن ؟ .. وما ظنك ماذا يفعلون بها ؟ .. وما غرضهم من أخذها على هذه الصورة وهى لا تعرفهم ولا علاقة لها بهم ؟ .. »

قال عابد البصرى : « لا أدرى ياسـيدى .. وأنا أيضـا أدهشتنى هذه المعاملة .. »

فأطرق ركن الدين وأخذ يفكر .. ماذا عسى أن يكون سبب ذلك ؟ .. فلم يوفق الى رأى ، فقال : « والآن يا عابد اذا دفعت اليك كتابا هل توصله اليها ؟ .. وأين تجدها ؟ .. »

قال عابد البصرى : « أبحث عنها جهدى ، ولا انفك حتى أجدها ، وأكون طوع ارادتها فيما تريده وأفديها بروحى .. انها يامولاى تفدى بالروح للطفها وأدبها » ..

فأثنى ركن الدين على مروءته ، وقال : « تعال الىَّ فى صباح الغد ، وسوف تجدنى فى غرفتى بالقلعة .. هل تعرفها ؟ »

فأجاب باحناء الرأس أن : « نعم .. » وانصرف

— ٢٩ —

الاغراء

ووقف ركن الدين مطرقا ، وقد أخذته الدهشة .. ثم انتبه لشجرة الدر ، فتحول نحوها فرآها قد فرغت من تلاوة الكتاب وتغير وجهها ، وظهرت امارات الغضب فى عينيها .. فلما التفت اليها بادرته قائلة : « تلك هى أعمال الخلفاء الذين لم يعجبهم أن يتولى الحكم امرأة .. هذا المستعصم أمير المؤمنين .. ووالله لو أن امرأة سليطة تولت هذا الملك لدبَّرته أحسن من تدبيره .. شغل نفسه بالغناء واللهو .. يأخذ نساءنا من بين أيدينا .. ونحن صابرون .. »

فأدرك ركن الدين انها تستحث غيرته على شوكار للانتقام من المستعصم ، فقال : « ولكن ما أصاب شوكار الآن لم يكن من المستعصم » ..

قالت شجرة الدر : « ممن اذن ؟ .. ألم يكن هو الذى بعث فى طلبها اليه ؟ .. وهب ان الذين اختطفوها الآن لم يفعلوا ذلك بأمر الخليفة .. ولكن ألا يدل وقوع ذلك على ضعف الرجل وقلة هيبته ، حتى يجرؤ الناس على اختطاف مغنية آتية اليه فى موكب حافل ؟.. على اننى أعتبر أكثر الحق علىّ .. »

فقطع كلامها قائلا : « الحق كله على عز الدين .. هذه هى الحقيقة .. ولو شاء هو لاحتال فى استبقاء شوكار. »

فقالت شجرة الدر : « صدقت .. وهذا هو رأيى .. لا أدرى ماذا غيَّر هذا الأمير .. ان مطامع الدنيـا تغير الناس .. طمع عز الدين فى السلطنة ، فضحى بكل شىء فى سبيلها .. ضحى بأصدقائه وخلانه و ... » وغصت بريقها وسكتت

***

لم يكن ركن الدين يجهل ما فى خاطر شجرة الدر على حبيبها من الغيرة والنقمـة ، فأراد أن يخالفها لاكتشـاف ما يكنـه ضميرها ، فقال : « لا أظنه فعل ما فعله طمعا فى الملك لأنه كان فى نفس هذا المنصب ، وأنت سلطانة .. بل كان معك أقرب الى السيادة والنفوذ مما مع سواكِ .. ويظهر انه لم ير بدا من الطاعة لأمر الخليفة فى شوكار .. »

فضحكت ضحكة مغتصبة ، وقد امتقع لونها من شدة التألم والغضب وقالت : « لعـله أطاع بذلك غير أمر الخليفـة .. » وبلعت ريقها وتشاغلت بمنديلها تمسح به فمها وجبينها

فلاحظ ركن الدين انها تعنى سلافة ، فقال : « وهل تلومينه لأنه يبحث عن مصلحته ؟ .. ليس فى الدنيا أحد لا ... »

فقطعت كلامه قائلة : « كلا .. لا ألومه لذلك ، ولكننى ألوم غيره لأنه لا ينظر الى مصلحته أيضا .. ان هذا الأمير ضحى بشوكار ، وركن الدين ، وشجرة الدر فى سبيل مطامعه ، ولم يبـال بنا ونحن لا نزال نحافظ على عهـده ونلتـمس وده »

وتزحزحت من مجلسها وعلى ملامح وجهها انها لم تتم حديثها بعد

***

فأراد ركن الدين أن يستزيدها بيانا ، فقال : « أنا ناقم على هذا الأمير كما تعلمين ، لكننى لا أراه يستحق هذا الغضب منك .. لأن ما حدث لك ولشوكار لم يكن هو فاعله ، ولم ينل من فعله شيئا جديدا لم يكن يرجوه وأنت سلطانة »

قالت شجرة الدر : « قد أحرجتنى يا ركن الدين .. فأستأذنك فى كشف ما فى قلبى . قد يتبادر الى ذهنك انى كرهت عز الدين لأنه أحب تلك الجارية الكردية (سلافة) ، وهى التى ساعدته على ما فعل . وكنت أحسبها فعلت ذلك حبا له ، ولكننى عرفت الآن انه لم يكن يحبها ، ولكنه خدعها كما خدعنى ، فلما نال بغيته منها تخلى عنها .. هل علمت بما عول عليه وأوشك أن يفعله بمشورتها ومساعدتها ؟ .. »

قال ركن الدين : « كلا .. »

قالت شجرة الدر : « قد عزم عزما أكيدا على أن يستقل

بالسلطنة » ..

قال ركن الدين : « أليس هو مستقلا بها الآن ؟ .. وليس السلطان الملك الأشرف الا صورة لا معنى لها .. »

قالت شجرة الدر : « صحيح .. ولكنه سيخلعه ويطلب من الأمراء أن يبايعوه سلطانا بدله »

فهز رأسه هزة الانكار ، وقال : « هذا لن يكون .. وكيف يتأتى له ذلك ، والناس يحتجون بأنهم لا يخضعون لملك ليس من آل أيوب .. »

فقالت وهى تضحك ضحك الاستهزاء : « انك لا تزال قليل الاختبار يا ركن الدين .. لكنك لا تلبث أن تعلم ان هؤلاء القوم لا رأى لهم ولا صوت ، ينقضون اليوم ما قرروه بالأمس. والظاهر ان عز الدين قد تمكن من اغراء الأمراء المقربين له وأنت غائب وقبلوا مبايعته . وبلغنى انهم اختاروا له لقب أول الخلفاء الفاطميين بمصر وسموه « المعز » (١) فهل بعد ذلك شك ؟ .. ولعله لو طال بقاؤك فى دمياط لأمضى هذا الأمر فى غيابك .. أو أظنه أمضاه منذ ذلك الحين .. ألا تشعر انه تغير معك عما كان عليه من قبل ؟ .. »

---

(١) السيوطى ٤٧ الجزء الثانى

- ٣٠ -

الانتقام

فثارت الغيرة فى نفس ركن الدين ، وأوشك أن يبوح بما فى خاطره ، لكنه تجلد وتماسك .. وقد فتح أمامه بعد هذا الحديث باب جديد . لم يكن بالأمس يتصور انه يمكن لغير الأيوبيين أن يستقلوا بالسيادة ، فاذا هو يرى عز الدين استطاع ذلك ووافقه عليه الأمراء .. فازداد رغبة فى السلطة ، لكنه ظل حريصا على كتمان ذلك المطمع خشية الفشل ، وهو يعتقد فى القول المأثور : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان .. » لكنه غلب على ظنه بعد أن سمع من حديث القوم عن سلافة فى تلك الليلة أن عز الدين لم يفعل ذلك الا بنفوذها ، فأراد أن يستطلع رأى شجرة الدر فى ذلك ، فقال : « ألا تظنين أن لسلافة دخلا فى هذا الأمر ؟ .. »

قالت شجرة الدر : « لاريب عندى انها ساعدته فى ذلك ، نظرا لنسبها الكردى وعلاقاتها الودية مع بعض الأمراء أصحاب النفوذ من آل أيوب وغيرهم . ولعلها ارتكبت أمورا دنيئة فى هذا السبيل ظنا منها انها اختطفت عز الدين من شجرة الدر . ولكن خاب ظنها لأن هذا الرجل ليس لأحد منا وسوف ... »
قالت ذلك وابتسمت وعيناها تلمعان

ولاحظ ركن الدين فى عينيها معنى لم يكن فيهما من قبل .. رأى الغيرة والنقمة والغيظ والشماتة تتزاحم فيهما ، فقال : « لمن هو اذن يامولاتى ؟ .. »

قالت شجرة الدر : « أتريد أن أبوح لك بكل ما أعرفه عن هذا الخائن مرة واحدة ، لقد سألتنى لمن هو .. فأجيبك : انه يزعم انه لامرأة ثالثة »

قال ركن الدين : « من هى ؟ .. »

قالت شجرة الدر : « امرأة لا تعرفها .. ليست فى مصر .. »

فاستغرب قولها ، وقال : « أظنك تمزحين ! .. »

قالت شجرة الدر : « كلا .. انى أقول الصدق .. ان عز الدين يزعم انه ساع فىخطبة بنت بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل» (١)

قال ركن الدين ، وقد ظهرت الدهشة فى عينيه : « ان صاحب الموصل له مقام رفيع عند الخليفة .. وهل تظنينه يفوز بها ؟ »

فلم تتمالك عن النهوض من عظم التأثر والغضب ، وقالت وهى تشير بيدها اشارة الانكار : « لا.. لا.. لن يفوز بها . انه ليس لاحدى هؤلاء النسوة ، بل هو نصيب الرابعة » وأشارت بيدها اشارة رجل بيده خنجر يطعن به آخر الى جانبه . ففهم ركن الدين أنها تنوى قتله ، وتأكد ذلك بما ظهر فى عينيها من الاحمرار . فضحك وأظهر الاستخفاف بهذا الرأى ونهض وقد عزم على الانصراف ، وقال : « لا أظن ان الأمر يبلغ بك الى هذا

(١) ابن اياس ٩١ الجزء الاول

الحد .. قد انتصف الليل وآن لى أن أنصرف .. أستودعك الله»
وتحول يريد الخروج فصاحت به : « ويلك ياركن الدين.. تذهب على هذه الصورة وتتركنىعلى هذه الحالة.. ماذا جرى لك ؟ »

قال ركن الدين : « ماذا أصنع يامولاتى ؟ .. »

قالت شجرة الدر : « قد رأيت من أمرك عجبا .. تكلمنا فى نواح كثيرة ، وصرحت لك بأمور كثيرة كنت أكتمها عن كل انسان ، وأنت جامد كالصخر الأصم لا تقول شيئا .. اذا كنت تفعل ذلك عن دهاء فنعم الفعل ، والا فانك صلب بارد . وعلى كل حال فانى كنت أتوقع منك أن تقول كلمة .. ولو بشأن شوكار المسكينة التى ذهبت ضحية حبك وهى تقاسى العذاب ، وقد تقطر قلبى من كتابها .. ولو كنت خطيبها لركبت الساعة الى بغداد ، ولم أرجع الا وأنا منتقمة لها من ذلك الخليفة الظالم الذى لايهمه الا التمتع بملذاته » قالت ذلك وهى تتفرس فى عينيه ..

فكان لكلامها وقع السهام فى قلبه ، وأوشكت أن تحرجه وتضطره للتصريح بما فى ضميره .. لكنه تراجع وتمالك وتشاغل بالضحك ، وقال : « لله أنت من خطيب غيور شجاع . أما أنا فأظن عندى مثل ذلك .. لكننى سأنظر فيه واعمل ما يسرك وان لم أقل شيئا » قال ذلك وأبرقت عيناه وظهر الحزم والجد فى جبينه ..

فتقدمت اليه ووضعت يدها على كتفه ، وقالت : « هذا عهدى فيك وقد فهمت من هذه العبارة مجلدا كاملا .. واعلم انى فاعلة

ما يتمم عملك هنا .. أُقتل المستعصم وأنا أقتل عز الدين ، وأنت السلطان صاحب الأمر والنهى »

فتجاهل ما سمعه وقال : « أتأذنين لى بالانصراف الآن ؟ »

فأشارت اليه مودعة ، فخرج وهو ينتفض من الغضب وقد تضاربت المشاريع فى خاطره ، ولم يعجبه تصريح شجرة الدر بقتل المستعصم لاعتقاده ان مثل هذا الأمر الخطير لا ينجح الا اذا ظل مكتوما فى ذهن صاحبه ، عدا الشكوك التى تحوم حوله لصعوبة تحقيقه ، بل انه يكاد يكون مستحيلا

— ٣١ —

رسول آخر

مشى ركن الدين وقد انتصف الليل ، وأخذ منه التأثر مأخذا عظيما ، حتى أصبح لايرى طريقه من فرط ما تجاذبه من الهواجس. وأسرع فى خطاه رغبة فى الاختلاء بغرفته لمناجاة نفسه .. لكنه لم يكد يصل الى باب منزله فى القلعة حتى تصدى له أحد الحراس ، وحياه فرد التحية ومشى ، فتقدم اليه الحارس قائلا : « ان خادما فى انتظار مولاى هنا منذ ساعتين » وأشار الى رجل واقف بجانبه

فالتفت نحوه وقال : « من الرجل ؟ .. » وظنه لأول وهلة رسول شوكار جاء يأخذ جوابه اليها .. فاذا هو سواه

فتقدم الرجل ودفع الى ركن الدين كتابا مختوما .. فتناوله وأمر

خادمه أن يسرع الى غرفته ويضيء فيها المصباح .. ففعل

فدخل ركن الدين وحده وفض الكتاب أمام المصباح ، وقد أدهشه ما فاح من رائحة الطيب .. فترجح لديه انه من امرأة فأخذ يقرأ .. فاذا هو من سلافة جارية الملك الصالح ، فاستغرب ذلك وقرأ فيه : « سلافة جارية الملك الصالح وقيمة قصوره ترغب فى مقابلة الأمير ركن الدين بيبرس ساعة وصول كتابها هذا اليه ، وحامل الكتاب يرشده الى المكان .. »

فوقع فى حيرة وتولته الدهشة .. وأخذ يسأل نفسه ماذا عسى أن يكون غرضها من تلك المقابلة ، وليس بينها وبينه سوى معرفة بسيطة . وتذكر ما سمعه عنها من سحبان وما جرى من ذكرها بين يدى شجرة الدر وعلاقتها بعز الدين ايبك . فأصبح شديد الميل الى معرفة حقيقة نوايا هذه المرأة .. ولعل التعرف بها ينفعه فى تحقيق هدفه ..

ورآها تطلب اليه مقابلتها ساعة وصول كتابها ، فقال فى نفسه : « ماذا عسى أن يكون سبب هذه السرعة .. » ورغم ما كان فيه من التعب والقلق فقد عزم على اجابة الدعوة حالا ، فنادى الرسول اليه فدخل ، فقال له : « هل المكان بعيد من هنا ؟ »

قال الرسول : « كلا ياسيدى .. انه قريب جدا .. »

قال ركن الدين : « وهل أنت هنا من زمن طويل ؟ .. »

قال الرسول : « منذ نحو ساعتين .. »

قال ركن الدين : « ولماذا انتظرت كل هذه المدة ؟ .. »

قال الرسول : « لأن مولاتى صاحبة الكتاب أمرتنى أن لا أعود الا بالجواب .. »

فازداد ركن الدين دهشة واستغرابا وصمم على الذهاب . فلبس ثيابه وخرج والرسول يمشى بين يديه ، وقد أخذ القلق منه مأخذا عظيما .. ومرّ بباب القلعة فعرفه الحراس ولم يعترضوا سيره ..

خرج الى القاهرة والطريق مظلم ، الا بعض المصابيح التى على أبواب المنازل ، وما زال ماشيا حتى وصل الى باب كبير وقف الرسول عنده ، واستوقف الأمير ريثما يطرق الباب ، فطرقه ففتح له جزء منه (الخوخة) وأطل عبد خصى يسأل : من الطارق ؟ فأومأ اليه الرسول فوسع له ولرفيقه . فدخل ركن الدين الى حديقة مظلمة ، ولولا شموع مضيئة فى المندرة لكان الظلام حالكا . على ان ذلك النور الضعيف زاد المكان وحشة لأنه جعل ظلال الأشجار تظهر متكاثفة متلبدة على ما وراءها ..

فلما رأى نفسه فى ذلك المكان ندم على مجيئه ، وتوهم أشياء كثيرة بعضها يوجب القلق .. لكنه تجلد ومشى بقدم ثابتة لايبالى بما قد يهدده وهو لم يتعود الخوف ، لكنه خشى الفضيحة لعلمه بما بين صاحبة هذا المنزل وعز الدين من العلاقات ..

وكان الرسول قد تقدمه بالبشارة .. ولم يكد ركن الدين يتوسط الحديقة حتى عاد الرسول وأشار اليه أن يتبعه ، فتحول به الى قاعة منفردة قد أضيئت فيها الشموع على منائر

فى وسطها . وفرشت أرضها بالسجاد والوسائد .. وأدهشه ، على الخصوص ، ما شاهده بين ذلك الأثاث من الآنية التى كان يراها فى قصور الملك الصالح قبل هدمها وتخريبها .. وتأكد أن عز الدين هو الذى أحضر لسلافة هذا الرياش ، لأنه هو الذى خرب تلك القصور واستأثر بأنقاضها ورياشها (١)

استقبلته سلافة بباب القاعة ، وقد لبست أثمن ما عندها من الحلى والثياب ، ولم تتنقب الا قليلا .. وكان قبل وصوله اليها قد تنسم رائحة الطيب ، فلما تلاقى بصره ببصرها زاد ندمه لمجيئه لأنه توهم شركا يخشى الوقوع فيه ..

— ٣٢ —

ركن الدين وسلافة

أما هى فابتدرته بالسلام والترحيب ، وقالت : « قد أزعجناك أيها الأمير .. »

قال ركن الدين : « العفو يا سيدتى .. انى سعيد بهذه الفرصة ، فعسى أن تتاح لى خدمة أؤديها لك .. »

فمدت يدها للسلام عليه ، فمد يده وصافحها .. فوجد أناملها باردة كالثلج وفيها رعشة أثرت فيه ، لكنه تشاغل بالثناء على ترحابها .. ثم مشت به وهى تتقدمه ، ولا تزال قابضة على يده

---

(١) السيوطى ٢٦٩ — الجزء الثانى

حتى وصلت الى مقعد فى صدر القاعة . فأشارت اليه أن يجلس فجلس ، وقد اقشعر بدنه من لمسها . فأقلتت يده وجلست بين يديه على وسادة وهى تنظر اليه وترحب به ، وهو ينتظر أن تفاتحه بما دعته من أجله ، فلم تزد على الترحيب والمؤانسة . فلما أبطأت عليه قال : « جئت طوعا لأمرك .. فهل من خدمة أقضيها لك ؟ .. »

قالت سلافة : « بل أنا فى خدمتك يا ركن الدين ، ولعلك لم تكن تعلم بوجودى قبل هذه الليلة ، ولم أخطر ببالك .. وأما أنت فلم تبرح من فكرى لحظة وأنا أتتبع خطواتك منذ أعوام..» قالت ذلك واحمرت وجنتاها وأبرقت عيناها ، وكانت جميلة فزادها ذلك جمالا ..

أما ركن الدين فلم تعجبه هذه الفاتحة لأنه فى شغل عن المغازلة . وكان يسمع بجمال هذه المرأة ويعرف عنها بعض الشيء فى حياة الملك الصالح . ولم يكن أمرها يهمه ولا سيما فى تلك الليلة وهو فى ذلك الاضطراب . فلما سمع قولها أطرق ، وقال : « العفو يامولاتى .. كنت أسمع بمنزلتك الرفيعة عند المرحوم مولانا الملك الصالح ، ولكن الأحوال لم تأذن بالتعارف .. »

قالت سلافة : « هذا صحيح بالنظر اليك وحدك ، أما أنا فقد عرفتك جيدا . وطالما راقبت دخولك قصر الروضة وخروجك منه . وكثيرا ما كنت أسهر الليل بطوله أنتظر مرورك فى الحديقة لأراك من خلف الستائر » قالت ذلك بخجل ..

فاستغرب ركن الدين هذه المشاكاة وتجاهل وقال : « ان ذلك فضل منك يا سيدتى وأتأسف لأنى لم أكن أعلم به .. »

فقالت سلافة : « ألم تعلمـه الآن ؟ .. أرجو الاغضاء عن جسارتى يا ركن الدين ولا تكن قاسيا .. »

فلما سمع هذا التعريض أجفل وأسف لمجيئه ، وقال : « العفو ياسيدتى ، لم أكن أتوقع أن أسمع هذا التلميح وأنا اعلم ان مولانا الأتابك عز الدين يتردد على هذا المكان وهو صاحبه »

فتنهدت وقالت : « مولاك .. أو مولاى الأتابك لا يستحق هذه الحظوة ، دعه وشأنه ما لنا وله .. »

فظن ركن الدين انها تريد أن تلقى به فى الفخ لتستخدمه فى مهمة لها ، كما فعلت بسحبان .. فصمم على الرفض وسرعة التخلص ، فقال : « هل لهذا دعوتنى يا سلافة فى هذا الليل ؟ »

فأجابته ، وعيناها ذابلتان قائلة : « وهل هـذا أمر قليل الأهمية فى نظرك ياحبيبى ؟ .. »

فنهض وهو يقول : « ليس قليل الأهمية ، ولكننى فى شغل عنه الآن ياسيدتى » وهم بالاستئذان فى الانصراف

فنهضت ووقفت فى طريقه وقالت : « ما الذى يشغلك عنى ؟.. لم يبق الآن ما يشغلك ياقاسى القلب.. أين القاهرة من بغداد ؟»

فأدرك انها تشير الى شوكار وأخذها الى بغداد ، فنفرت نفسه منها وقال : « لا أزال فى شغل .. أرجو ياسيدتى أن تأذنى بانصرافى ناشدتك الله »

فأمسكت يديه بكلتا يديها وقالت : « تمهل يا ركن الدين لا تسرع فى الرفض .. وانتبه لنفسك واعلم ان سلافة وحدها تستطيع أن تحقق لك بغيتك .. مالك وللغناء ؟ أنت فى حاجة الى من يضع يده فى يدك .. واذا ألقيت الوقود فى النار ، نفخ فيها وأشعلها حتى تنضج الطبخة » ونظرت فى عينيه وابتسمت . فعلم انها تشير الى تفضيل نفسها على شوكار ، فقال : « بالله دعينى أنصرف لأنى فى شغل ذى بال »

قالت سلافة : « أنا أعلم الناس بشواغلك .. أما شوكار فلا سبيل اليها أبدا .. و ... »

فلما سمع تصريحها فجأة اجتذب يديه من يديها وقد غضب ، وقال : « ما الذى حملك على الحديث عن هذه المرأة الآن ؟ .. مالنا ولها ؟ .. »

قالت سلافة : « كيف لا أذكرها وهى سبب قلقى وعلة شقائى ، لكنها الآن بعيدة عنا .. »

فقال ركن الدين : « اذا كانت بعيدة الآن ، فانها ستكون قريبة باذن الله .. »

قالت سلافة : « من قال لك ذلك فقد خدعك . ان شوكار أصبحت فى غير هذا العالم ياركن الدين .. وقد نصحتك فانتصح »

فاقشعر بدنه عند سماع هذا الكلام وحملق وقال : « أتوسل الى مولاتى أن تكف عن هذا القول وتدعنى وشأنى .. دعينى أذهب بسلام » قال ذلك وقد مال الى تصديق قولها لكثرة ما

عرفه من دهائها وعلاقاتها ببغداد ونفوذها هناك . وخصوصا انها لم تستقدمه اليها الا فى الليلة التى جاءه فيها ذلك الكتاب من شوكار تشكو فيه الخطر .. فقام فى ذهنه ان سلافة تعرف حقيقة حال شوكار . فجلس وأشار الى سلافة أن تجلس وأظهر الجد وقال : « ياسيدتى أتوسل اليك أن تصغى لما أقوله لك .. قد علمت من كثيرين بما لك من المنزلة العالية والكلمة النافذة فى قصور أمير المؤمنين ببغداد ، فأرغب اليك أن تساعدينى فى أمر يهمنى هناك .. »

فقطعت كلامه وقالت : « انى طوع ارادتك فى كل ما تريد . ولا أنكر عليك ما لى من الكلمة النافذة .. ولعلك تعلم ان ما حدث من العزل والتنصيب بمصر انما كان على يدى .. »

فلم يخامره شك فيما تقوله ، واعتقد انها تستطيع أن تفعل كل ما ادعته وهو طامع فى السيادة .. لكنه أحسّ بشىء حال بينه وبين تلك المطامع . وأصبح همه انقاذ شوكار ، فقال : « أشكر لك تفضلك . ولا ريب عندى فى صدق ما تقولين . ولا أظننى أستغنى عن معاونتك فى بعض هذه الأمور ، لكننى أتوسل اليك الآن فى أمر واحد .. هل تقضينه لى ؟ .. »

قالت سلافة : « أقضيه على الرأس والعين .. »

فقال ركن الدين : « شوكار .. أريد أن أسترجعها من بغداد الى هنا .. »

فتغيرت سحنتها وقطبت حاجبيها ونظرت اليه شزرا وصاحت :

« لله أنت من أمير عاقل .. أبعد ما ذكرته لك تعود فتسألنى استرجاع هذه المغنية من بغداد ؟.. وقد قلت لك انها ليست هناك »

فقال ركن الدين : « أين هى ؟ .. فى مصر ؟ .. »

قالت سلافة : « ولا فى مصر .. انها غير موجودة فى مكان .. ألم يأتك خبرها ؟ .. »

— ٣٣ —

التصريح

فلما سمع سؤالها أجفل وتحقق انها تعلم بما أصابها ، فصاح فيها : « لم يجئنى خبر بسوء أصابها كما تقولين .. »

قالت سلافة : « انها لن ترجع اليك أبدا ، ولو علمت انها ترجع لأعدتها بيدى .. وهل قذف بها الى تلك الديار غيرى .!.. »

فاعتدل فى مجلسه واستغرب تصريحها ، وقال : « انت أرسلتها الى هناك ، ما الذى كان يضيرك لو بقيت هنا ؟.. انها لاتزاحمك فى نعمة ! » ..

فنهضت وهى تشير بأصبعها اليه ، وقالت : « انها تزاحمنى عليك يا ركن الدين » وغصت بريقها وظهر الهيام فى عينيها

فظنها تتقرب اليه تزلفا لغرض تريد أن يقضيه لها ، فقال : « بالله يا سلافة لا تطيلى تعذيبى .. اذا كنت تريدين منى خدمة أقضيها لك قضيتها حبا وكرامة . وانما أطلب منك أن تساعدينى

فى استرجاع شوكار .. »

فنظرت فى وجهه نظر المتفرس ، وقالت : « ويلى منك يا رجل ويا لشقائى.. أترامى عليك وأصرّح لك بما فى قلبى وأنت تصم أذنيك عنى .. مع علمك ان اكبر أمرائكم يتمنى رضاى » ثم أمسكت عن الكلام لأن الدموع أوشكت أن تغلبها وحولت وجهها عنه خجلا ..

فأشفق عليها وقال : « انى مقدر تنازلك حق قدره وأشكرك عليه شكرا جزيلا ، لكننى تقدمت اليك بخدمة أنت قادرة عليها و ... »

فقطعت كلامه قائلة : « انى رهينة أمرك فى كل شىء الا فى هذا .. يهون على أن أجعلك سلطانا على مصر .. وأما استرجاع تلك المرأة فلا يمكن .. ألم تفهم بعد ؟ »

وكان ركن الدين صاحب مطامع كما علمت ، وليس هو شديد التعلق بشوكار ، فكان المنتظر فيما تعرضه عليه سلافة أن ينصاع اليها ويستعين بها فى مطامعه .. لكنه بعد ما سمعه منها ضد شوكار أحس بميل جديد نحوها ، وخاصة لأن ارسالها الى بغداد انما كان بسببه ، لأن سلافة قالت له بصراحة انها أبعدتها ليبقى ركن الدين لها وحدها . فأصبح فى حيرة وأطرق يفكر فيما رآه وسمعه ، وفيما مرّ به فى تلك الليلة من الغرائب . واستعظم ما سمعه من تصريح سلافة وتحببها له ، وحدثته نفسه لحظة أن يسايرها حتى تساعده فى تحقيق مطامعه .. لكنه تذكر

كتاب شوكار الذى جاءه فى ذلك المساء ، وما فيه من دلائل التعلق به ، فأبت نفسه أن يساير عدوتها اللدودة

وكان هو مطرقا يفكر ، وسلافة تنظر اليه وترقب حركاته وتكاد تتلقفه ببصرها . ورفع نظره اليها فرأى فى عينيها معنى لا يعبر عنه بالكلام ، وأحس بحرج الموقف ، ولم ير بدا من تأجيل الكلام الى فرصة أخرى لأنه لفرط ما انتابه من التأثيرات المتضاربة أحس ان عقله قد أصيب بالكلل . فأحب أن يؤجل الحديث ريثما يستريح ويفكر ماذا يجيب

فنهض وقد ظهرت الحيرة فى عينيه ، ونظر الى سلافة وابتسم ابتسامة شكر وقال : « أشكر لسيدتى حسن ظنها بى ، فانى لا أستحق شيئا من هذا الالتفات وأستأذنها فى الانصراف » قال ذلك وانحنى مودعا ، ومدّ يده ليصافحها ..

فأبعدت يدها عنه وخبأتها خلف ظهرها وتراجعت ، ولم تجب بفمها ، لكنها أجابت بنظرة أفصح من خطاب .. انها عاتبة آسفة لسوء حظها وان قلبها لايطاوعها على الفراق

فخطا خطوة أخرى نحوها وقال كالمستعطف : « بالله يامولاتى ائذنى بانصرافى الساعة ، فقد تعبت وأصبحت فى حاجة الى للراحة » ..

قالت وهى تهز رأسها : « لله ما أسوأ حظى .. أشكو لك غرامى وأنت تشكو النوم . وكم فى شكواك هذه من دلائل الحب والهيام .. » قالت ذلك وتحولت عنه ومشت خطوة . ثم

التفتت نحوه ورمته بنظرة كالسهم أصابت صدره ، لكنها لم تؤثر فيه كثيرا ، وقالت : « سر فى حراسة الله .. سر الى فراشك أيها الأمير .. ولا تظن ان فشلى هـذا سوف يذهب هباء » ودخلت مخدعها مسرعة ..

— ٣٤ —

الانصراف

فلم ير ركن الدين بدا من الانصراف .. وقضى معظم الطريق وهو يردد كلامها ويفسر نظراتها ويعلل حركاتها . وقد عظم أمرها فى عينيه ولاسيما بعد أن تذكر ما سمعه عن نفوذها فى بغداد . وأصبح فى خوف على شوكار منها ، ولم يبق عنده شـك ان شوكار انما أصابها ما أصابها فى سبيله .. فهو السبب فى شقائها ، وان وجودها فى بغداد أصبح بعد هـذه المقابلة أكثر خطرا . وخيل له ان سلافة لا تلبث أن تبذل جهدها فى ايصال الأذى اليها ويكون ذلك بسببه فأحس بالتبعة التى تحملها بمجافاة سلافة لأنه بعثها على تعمد الأذى لشوكار . وشعر بقشعريرة وقف لها شعره ..

وكان قد دخل باب القلعة ودنا من غرفته ، ففتحها له الخادم وأضاء المصباح فأخذ فى خلع ثيابه

ثم وقع نظره على كتاب شوكار .. فأعاد قراءته ، فكان تأثره

بهذه القراءة أشد من تأثيره الأول كثيرا .. وغلب عليه العطف على شــوكار ، وأصبح لايرتاح باله الا اذا نجاها من ذلك الضيق .. ولا يستطيع أن يعهد بهذا الأمر الى أحد ، ولا سيما بعد تهديد سلافة .. فأخذ يفكر فى السفر الى بغداد ..

وبينما هو فى ذلك ، اذ سمع آذان الفجر .. فتوسد الفراش التماسا للراحة ، وكان نومه مضطربا متقطعا ولم تبرح صورة شوكار من خاطره لحظة . ولما نام رآها فى الحلم حزينة باكية وقد عاتبته لأنه شغل عنها بسلافة .. فأثر هذا الحلم فى خاطره تأثيرا شديدا ، وحين أفاق من نومه كان قد اعتزم أن يأخــذ بناصرها ..

***

وأصبح فى اليوم التالى واذا برسولها ببابه يطلب جوابه على كتابها فأدخله اليه وسأله عن السفر الى بغداد وكيف يكون ؟ .. وكان ركن الدين قد سافر اليها مرة وعرف أهم شوارعها وأحيائها ثم زوده بكتاب الى شوكار ، وبالغ فى اكرامه وملاطفتــه .. فسأله الرسول عما اذا كان عازما على السفر الى بغداد

فقال : « سأنظر فى ذلك » وصرفه بعد أن عرف المكان الذى يجده فيه اذا سافر الى هناك

أما سلافة فلا تسل عن غضبها لما لقيته من تردد ركن الدين ، لأنها كانت تحبه من كل قلبها . وكانت تحسب مكاشفتها اياه بحبها كافيا ليجعله أسير هواها .. فاذا هو يتردد ويظهر ميله

الى شوكار . وهى لا تستطيع أن تتصـــورها لأنها تعرف آنها منافسة لها على ركن الدين

وكانت سلافة تعرف ركن الدين ، وقد تعلقت به وهو لايعلم ، وكانت تتوقع فرصة لمفاتحته فى أمرها .. فرأت شجرة الدر حين صارت ملكة قد اجتذبته نحوها .. فكان ذلك فى جملة ماحملها على مقاومتها ، وبلغها أمر خطبته شوكار .. فجعلت رسالتها الى بغداد تتضمن النجاة من الاثنتين معا

فأنزلت شجرة الدر عن العرش ، وأبعدت شوكار الى بغداد . وانما أرادت بتقريب عز الدين أن تفسد ما بينه وبين شجرة الدر عدوتها ومناظرتها ، فأفلحت فى ذلك . ولم يبق لاتمام سعادتها الا أن تسترضى ركن الدين ليكون لها

***

وكانت الأخبار تأتيها من بغداد متواصلة ، فوصلها فى صباح ذلك اليوم خبر ما أصاب شوكار فى بغداد ، فتسلحت به بحيث يقطع ركن الدين كل أمل فى بقائها فيتحول الى سلافة . وكانت قد عزمت على بذل جهدها فى اسعاده وتقديمه ، ووطنت نفسها على الاكتفاء به . فلما رأت منه ما رأته غضبت وانقلب حبها الى حقد ،وعزمت على مناوأته ان لم يرجع الى صوابه ويسترضيها

فلنترك القوم بمشاغلهم فى مصر وننتقل الى بغداد

– ٣٥ –

بغداد

بلغت بغداد معظم عمارتها فى أيام المأمون حتى امتدت أبنيتها وبساتينها على بقعة قالوا ان مساحتها ٥٣٧٥٠ جريبا ، منها ٢٦٧٥٠ جريبا فى الجانب الشرقى ، و ٢٧٠٠٠ فى الجانب الغربى . والجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع ، ونسبته الى الفدان كنسبة ١٠٠ الى ٣٣٣ ، فتكون مساحة بغداد كلها نحو ١٦٠٠٠ فدان ، وهو شىء كثير .. ولكن يظهر انها كانت عبارة عن مدن متلاصقة . قال الخطيب البغدادى فى تاريخه : « انها أربعون مدينة وان الحمامات بلغ عددها فى أيام المأمون ٦٥٠٠٠ حمام » وقد أراد صاحب سير الملوك بيان مقدار عمارة بغداد ، فقال : « وكان عدد الحمامات فى ذلك الوقت ببغداد ستين ألف حمام ، وأقل ما يكون فى كل حمام خمسة أشخاص : حمّامى ، وقيّم ، وزبال ، ووقاد ، وسقاء .. فيكون ذلك ثلاثمائة ألف رجل . وذكر بأن يكون بازاء كل حمام خمسة مساجد ، ويكون ذلك ثلاثمائة ألف مسجد ، وتقدير ذلك ان أقل ما يكون فى كل مسجد خمسة أشخاص ، فيكون ذلك مليون وخمسمائة ألف نسمة » ومع ما فى هذه الأقوال من المبالغة الكثيرة فانها تدل على كثرة العمارة

وقد وصفها الأصطخرى الرحالة كما شاهدها فى القرن الرابع

للهجرة فقال : « وتفترش قصور الخلافة وبساتينها من بغداد الى نهر بين فرسخين على جدار واحد ، حتى تتصل من نهر بين الى شط دجلة ، ثم يتصل البناء بدار الخلافة مرتفعا على دجلة الشمالية نحو خمسة أميال ؛ وتحاذى الشماسية فى الجانب الغربى الحربية . فيمتد نازلا على دجلة الى آخر الكرخ الخ » ثم قال : « وبين بغداد والكوفة (أو بين دجلة والفرات) سواد مشتبك غير مميز ؛ تخترقه أنهار من الفرات » .. ثم عدد الأنهار التى تمتد من الفرات الى دجلة

وكانت بغداد فى ذلك العصر واقعة فى الجانب الغربى ، ولا تزال المدينة التى بناها المنصور هناك باقية بشكلها المستدير ، وحولها الأحياء فيها الأسواق والشوارع

أما فى زمن روايتنا فى القرن السابع للهجرة ، فقد تبدل حالها وانتقلت أكثر عمارتها الى الجانب الشرقى حيث قصور الخلافة ، ومحيت مدينة المنصور

أما من حيث حالتها الاجتماعية فكانت بغداد فى القرون الأولى من بنائها أم المدائن ومركز التجارة ، ومجتمع العلماء والشعراء وموئل طلاب الثروة والوجاهة .. على انها ما أن ضعف شأن الخلافة حتى تسربت اليها الدسائس ، وقامت الفتن بين أهلها ، وأهمها الشقاق بين السنة والشيعة ، وتكررت فى أواخر الدولة . فلم تكن تمضى سنة لا يقع فيها بين الطائفتين قتال تتوسط الحكومة فى شأنه .. ولأن الحكومة كانت سنية ، فالضغط كان

يقع غالبا على الشيعة ، وكانوا يقيمون فى الكرخ والكاظمية ، وهم صابرون على ما يكابدونه من الاضطهاد ، والحكومة مع ذلك توليهم مصالحها وتعهد اليهم بتدبير شئونها

وكان هذا الشقاق سببا فى سقوط بغداد ودخولها فى حوزة التتار على يد هولاكو ، وذلك طبيعى فى تاريخ الدول .. واذا تدبرت أسباب الانقلابات السياسية التى تنتقل بها السيادة من دولة الى دولة ، وجدت السبب غالبا انقسام أبناء البلاد فيما بينهم بالمشاحنات الدينية أو الأغراض السياسية ، حتى يستولى القنوط على الفئة الضعيفة اذا غلبت على أمرها .. فتستنجد بقوم غرباء يأخذون بناصرهم ، ثم لايزالون يتحينون الفرص حتى تصير الدولة اليهم .. وتكاد لا تجد انقلابا سياسيا فى تلك العصور يخرج فى سببه عن نحو ما تقدم

— ٣٦ —

قصور بغداد

وكان على دجلة جسران موصلان بين شرقى المدينة وغربيها ، كل منهما مبنى من أخشاب مثبتة على سفن مستديرة الشكل ، أهمهما منصوب بين حى قصر عيسى والرصافة .. ينتقل عليه الناس والدواب ..

وكان على ضفاف دجلة فى البر الشرقى قصور الخلفاء وأهم

أبنية بغداد .. أشهرها قصر التاج ، والقصر الحسيني ، والمدرسة المستنصرية التي بناها المستنصر بالله والد المستعصم بالله ، والمدرسة النظامية ، وقصر الريحانية ، وقصر الفردوس .. وأقرب هذه المباني من طرف الجسر الشرقي قصر لا اسم له ، كان يقيم فيه مؤيد الدين بن العلقمي وزير المستعصم ، وكان من أهل الكفاءة والدهاء ، ولكنه كان نصوحا مخلصا يرى ما في الدولة من الاضطراب ، ويبذل جهده في النصح للخليفة وتنبيهه الى ما يعود بالصلاح له وللدولة . وكان المستعصم ضعيف الرأي ، لكنه حسن الظن بوزيره ، فكان يصغي لنصائحه في أكثر الأحيان

غير ان ذلك لم يكن ضامنا للخير منقذا من الخطر ، لأن الرأس اذا كان مختلا اضطربت سائر الأعضاء وان كانت سليمة . ويغلب في مثل هذه الحال أن ينقاد الى المتملقين ، وذوي الأغراض من أهل الدولة ، أو العصبية .. وهم المفضلون عنده ، فيغتنمون ضعفه ويعيثون في الأرض فسادا لاشباع مطامعهم .. ولا يسمع الرئيس فيهم لوما ولا يصغي الى انتقاد

تلك كانت حال المستعصم في ذلك الحين ، حتى أصبح ألعوبة بين أيدي أعوانه ورؤساء قصوره .. لأنه كان غارقا في ألوان الترف ، شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الأغاني ، لايكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة .. وكان ندماؤه وأعوانه منهمكين معه في النعيم والملذات لايراعون له صلاحا (١)

---

(١) الفخري ٤١ وسيرة الملوك ٢١٥

وزد على ذلك انه انتهج طريقا لم ينتهجه أسلافه من الخلفاء . نعنى أن الخلفاء قبله كان أكثرهم يضيّقون على أولادهم وأقاربهم.. تلك كانت سنتهم الى آخر أيام المنصور. فلما تولى ابنه المستعصم أطلق أولاده فكان اطلاقهم سببا فى زيادة الاضطراب .. أكبرهم اسمه أبو العباس أحمد ، لكن العامة كانت تسميه أبا بكر.. وكان هذا الشاب مغرورا بمنصب والده فاتخذه ذريعة لأغراضه . وكان شديد التعصب على الشيعة يجاهر بذلك على رءوس الأشهاد . ولعل بعض المحيطين به من أرباب المطامع أثاروا فيه هذه العاطفة لأغراض لهم ، وهو لايدرك ذلك .. فكان يطارد الشيعة ويلحق بهم الأذى . وكان ابن العلقمى يتحمل منه ويصبر عليه مكرها ، وكثيرا ما شكاه الى أبيه

وزاد الطين بلة ان هولاكو التترى حفيد جنكيزخان ، كان قد أسس دولة عرفت بدولة ايلخان أو مغول الفرس . فلما استقر له الأمر فى فارس طمع فى بغداد ، وأخذ يتهيأ للهجوم عليها .. فاتفق انه كان يحارب الاسماعيلية فى فارس ويحاصر قلاعهم ، فكتب الى المستعصم يستنجد به ، فأراد أن ينجده .. فمنعه أمراؤه من ذلك مخافة أن يكون قصد هولاكو الخديعة لتخلو بغداد من الرجال فيملكها بسهولة . ثم فتح هولاكو تلك القلاع وبعث الى المستعصم يعاتبه ، فأشار عليه الوزير ابن العلقمى أن يسترضيه بالهدايا والأموال ، فأطاعه وأخذ فى تجهيز هدية من الجواهر والمماليك والبنات .. فاعترض الدوادار « قائد الجند »

وطعن فى نية الوزير وقال : « انه يروم تسليم الدولة الى التتر » فكف الخليفة وأرسل هدية يسيرة . فغضب هولاكو وبعث الى الخليفة ، انه لايرضيه الا اذا أتى هو بنفسه للاعتذار أو أن ينيب عنه الوزير أو الدوادار ، فلم يفعل وأرسل اليه أناسا لم يقبل هولاكو نيابتهم ، واتخذ ذلك ذريعة للحملة على بغداد

ولم يدرك المستعصم حقيقة مركزه ، فوقع ابن العلقمى فى حيرة من أمره .. فكان يكثر من التفكير فى مصير هذه الحال ، ويرى الخطر محدقا بالدولة ، فينصح ويحذر بلا فائدة . وكانت رسل هولاكو تأتيه سرا تحمل اليه كتب التحريض على الخروج اليه ، أو الاذعان فى تسليم بغداد ، ويعده بالوعود الكثيرة . وهو يتردد ويصبر لعل الخليفة يصغى لنصحه ، وكان اذا لقى المستعصم وخاطبه فى ذلك وعده أن يعمل برأيه ، ثم لا يلبث أن يفارقه حتى يرجع عن وعوده بما يدسه بعض الأعوان من الدسائس على ابن العلقمى ، ويتهمونه بالخيانة لأنه شيعى

وكان كبار الشيعة من جهة أخرى يحومون حول ابن العلقمى ، يشكون اليه ما يقاسونه من الاضطهاد والتعسف من ابن الخليفة (أبى بكر) ، حتى أصبحوا لا يأمنون على أموالهم ولا على أعراضهم . وهم يقيمون فى الجانب الغربى من بغداد ، وأكثرهم فى الكرخ والكاظمية . وابن العلقمى يخفف عنهم ويعدهم خيرا . لكنه كان يتجنب الاجتماع بهم جهارا ، خوفا من الاشتباه فى أمره ، فلم يكن يأذن لأحد منهم أن يزوره الا خلسة ، لأن

جواسيس المستعصم كانوا يحيطون به ، يعدون عليه أنفاسه

– ٣٧ –

ابن العلقمى

وأصبح ابن العلقمى ذات يوم وقد عظم ذلك الأمر فى نفسه ، ونفر من العمل وهو لايرى فيه مصلحة له ولا للدولة .. فأحب أن يبقى فى منزله وهو بملابس البيت ، وفى قصره شرفة مرتفعة تطل على دجلة والجسر والرصافة والكرخ جميعا ، كان قد بناها لهذا الغرض . فصعد اليها وأمر الخدم أن لايزعجوه بطلب .. كأنه مريض لا يستطيع مقابلة أحد

صعد الى الشرفة وقد التف بعباءة خفيفة ، وتعمم بعمامة صغيرة . وكانت الشرفة كالمصطبة أو المنظرة عليها الوسائد والطنافس ، وبعض أدوات التسلية لمن شاء من زائريه التلهى بها . وبينها رقعة شطرنج موضوعة على وسادة فجلس بجانبها . وكانت هذه اللعبة كثيرة الشيوع فى بغداد تلذ لأصحاب العقول المفكرة . ولا سيما الذين يهتمون بالسياسة ويحتاجون الى الحيل العقلية ، وهو يومئذ فى تردد واضطراب ، فأخذ ينظر فى تلك الرقعة ويتسلى بنقل أحجارها على سبيل التجربة ، فلم تجد نفسه راحة فى ذلك ..

فانتقل الى مقعد فى صدر المنظرة يطل على بغداد . وكان الجو صافيا فألقى نظره على تلك المدينة التاريخية يخترقها نهر دجلة

المبـــارك ، وعلى ضفتيـــه العمارة من القصـــور والمـــدارس ، والمستشفيات ، والمساجد ، والجوامع ، والحمامات ، والبساتين، والترع ، والجسور ، والشوارع ، والدروب ، والأسواق .. مما يشغل الخاطر ، واستحضرت ذاكرته تاريخ بناء هذه المدينة وسبب بنائها منذ نيف وخمسمائة سنة ، ومن توالى عليها من الخلفاء ، وما تقلب عليهم من الأحوال ، وما بلغت اليه فى أيام الرشيد من أسباب الحضارة .. يوم كانت عاصمة الاسلام فى أقطار الأرض تجبى اليها الأموال من معظم العالم المعمور ، من تركستان الى المحيط الأطلسى .. يتوافد اليهـــا ملوك الأرض يخطبون ود صاحبها ويتزلفون اليه

ثم صدمته فجأة نكبة البرامكة وما كان من ذلهم بعد عزهم ، وهم أصحاب الفضل الأول فى تلك الحضارة .. وما عقب ذلك من الفتنة بين الأمين والمأمون ، وما قتل فى سبيلهما من الأنفس.. الى آخر ماحدث من تقلبـــات السياسة حتى صـــارت الدولة العباسية الى التقهقر ، وغلبها الأمراء فى الأطراف على أمرها ، وأخذوا يستقلون عنها .. ثم طمع طلاب السيادة فيها ، فحملوا عليها حتى دخلوا بغداد فى زمن البويهية والسلاجقة وغيرهم . وأخذ نفوذ الخلفاء فى الأفول .. وأصبحت سيادتهم محصورة فى بغداد ، تكاد لا تتعداها ، وصاروا آلة فى أيدى دولتهم . وقد تصاغرت أحلامهم وانحصرت مطامعهم فى الملذات الجسدية ، وقضاء الوقت فى اللهو والغناء كما هو حال المستعصم

ولما تذكر المستعصم انتبه لنفسه ، واستحضر ما فى خاطره من أمره .. فوجه التفاته الى قصور الخلافة ، فرأى قصر التاج على ضفة دجلة اليسرى .. وبينه وبين مجرى النهر مسناة مرصوفة بالرخام ترسو عندها الزوارق .. وحوله البساتين فيها أنواع الأشجار والرياحين .. بينها قصور عديدة فى مثل ما هو فيه ، وتذكر ما كان عليه قصر التاج قبل مائة سنة ، يوم أن كانت واجهته مبنية على خمسة عقود ، وكل عقـد عشر أساطين من الرخام فى عرض خمسة أذرع .. وكيف شبت فيه النار وصيرته كالفحم ، فأبدلت أساطين الرخام بالآجر (١)

وانتقل بغتة الى الحجارة التى بنى منها ذلك القصر . فتذكر ان المكتفى بالله حالما تولى الخلافة فى أواخر القرن الثالث للهجرة أمر باتمام بنائه بأنقاض القصر الأبيض الكسروى . ولم يبق منه الآن الا الايوان . فحملوا أنقاض ذلك القصر الفخم وأتموا بها بناء قصر التاج . ومن أنقاضه ما وضع فى المسناة . فوقعت هذه الذكرى من خاطر ابن العلقمى موقع اعتبار وقال فى نفسه : « هكذا شأن الانسان والدنيا دول .. نقض العباسيون قصور الأكاسرة وبنوا بأنقاضها قصورهم ، وهذه قصور هؤلاء تؤول الى الخراب الآن .. فسبحان الباقى »

وبينما هو فى ذلك اذ سـمع ضوضـاء لم يحفل بها ، لأنها ضوضاء تلاميذ المدرسة المستنصرية بجانب قصره . وهى يومئذ

---

(١) ياقوت ٨٠٩ ـ الجزء الاول

فى ابان عزها ، وقد بناها المستنصر بالله والد المستعصم من عهد قريب .. وأقام فيها الأساتذة والمعلمون لتعليم الفقه ، والحديث ، والرياضيات ، والطب والحيوان ، وتقويم البلدان وغيرها (١) ، فالتفت اليها فرآها لا تزال فى رونقها لقرب عهدها من البناء . وحوّل نظره عنها الى سائر أبنية بغداد ، وكثرة ما فيها من الحمامات ، فرأى أكثرها سوداء اللون . وهو يعلم ذلك ويعلم ان سببه كثرة وجود القــار فى عين ما بين البصرة والكوفة ، فأهل بغداد يطلون حماماتهم به ، فتظهر كأنها مكسوة بالرخام الأسود (٢) لكنه لم يسبق له أن رآها وهو فى تلك الحال ، فأثر منظرها فى نفسه وتشاءم من سوادها

— ٣٨ —

قادم مفاجىء

ثم سمع لغطا فى داره على صورة لجاج وجدال .. فأصغى فسمع رجلا يطلب أن يقابله والخدم يقولون له : « ان مولانا الوزير فى شاغل عن المقابلة »

فاستأنس ابن العلقمى بذلك الصوت لأنه يعرفه .. فجذب حبلا بجانبه متصلا بالطبقة السفلى من القصر ، فدق جرســا هناك ــ وهى اشارة الاستدعاء عندهم ــ فجاءه غلام من غلمانه

(١) سيرة الملوك ٢٢١ (٢) ابن جبير ٢٢٩

فسأله عن سبب الضوضاء ، فقال : « ان رجلا غريبا يطلب أن يرى مولانا ولم يصغ الى رفضنا »

فقال ابن العلقمى : « قد سمعت صوته وأظننى عرفتـه ، لا بأس من ادخاله »

فعاد الغلام ، وبعد قليل جاء ووراءه رجل عليه ثياب الفرس ووجهه فارسى . فلما رآه مؤيد الدين عرفه فرحب به وقال : « سحبان .. »

فأكب سحبان على يد الوزير يهم بتقبيلها ، فمنعه الوزير من ذلك وصافحه وأجلسه بجانبه ، وأمر الخدم بالانصراف وقال : « سحبان .. منذ متى أنت هنا ؟ »

قال سحبان : « جئت بغداد مساء أمس ياسيدى »

قال ابن العلقمى : « من أين أتيت ؟ »

قال سحبان : « من القاهرة »

قال ابن العلقمى : « جئت من القاهرة ؟.. أذكر انى رأيتك هنا من عهد غير بعيد » ..

قال سحبان : « نعم يامولاى .. كنت هنا وسافرت ثم عدت »

قال ابن العلقمى : « سرعان ما سافرت ورجعت .. »

قال سحبان : « ألست تاجرا أحمل السلع بين بغداد ومصر ؟ فاذا نفدت بضائعى عدت لأشترى سواها ولا يهمنى تعب السفر كثيرا » ..

فابتسم مؤيد الدين وقال : « انقطعت للتجارة يا سحبان ؟ »

فضحك ضحكة مصطنعة وقال : « وهل ترى فائدة فى سواها أيها الوزير ؟ » ..

فأدرك ابن العلقمى انه يشير الى الوزارة التى هى عمله فقال : « صدقت .. لا فائدة فى سواها . ولا خير فى أعمال الحكومة ــ حتى الوزارة فان صاحبها متعب القلب بغير فائدة ــ مضت أيام الوزارة الحقيقية و .. و .. » وسكت كأنه خشى التصريح بما فى خاطره ..

فقال سحبان : « كل شىء الا الوزارة .. فانها أرقى مناصب الدولة والوزير هو صاحب الحل والعقد .. لكن يشترط أن .. » وبلع ريقه وسكت .. وهو يخرج منديله من كمه ليتشاغل به

فقال مؤيد الدين : « ماذا يشترط ياصاحبى ؟ هل تحسب وزير اليوم كما كان فى صدر هذه الدولة ؟ »

فقطع سحبان كلامه قائلا : « بل ينبغى أن يكون اليوم أقدر منه فى تلك الأيام لضعف الخلفاء وتقييد أيديهم .. »

فهز رأسه وقال : « ولكن هؤلاء الضعفاء لايسمعون نصيحة لأنهم يصغون الى خدمهم وخصيانهم .. »

قال سحبان : « أليس عندك علاج لهذا الضعف يا وزير ؟ » قال ذلك وظهر الجد فى عينيه

فقال مؤيد الدين : « وأى علاج تعنى ؟ »

قال سحبان : « أعنى علاج هذا الضعف .. هذا الرجل عضو فاسد ، والجراح يشير بقطعه لئلا ينتقل الفساد الى سائر البدن »

وحدق فى وجه الوزير يستطلع رأيه

فأكبر ابن العلقمى هذه الجسارة بين يديه ، فنظر اليه نظر المنكر العاتب . وقبل أن يقول كلمة تصدى سحبان وقال : « انك تعد قولى جسارة ، أو وقاحة كما تشاء .. ولكننى أقول ما أشعر به ، ونحن مشتركان فى المصلحة وبيدنا مفاتيح النصر لا ينقصنا غير الحزم .. تشبه اذا شئت بخلفاء صدر هذه الدولة وكفى »

فالتفت مؤيد الدين الى ما حوله كأنه يحذر أن يسمعهما أحد ، ثم نظر الى سحبان قائلا : « لا أوافقك على ما تقول ولم أفهم ما تشير اليه » ..

قال سحبان : « أجلك عن أن يفوتك مرادى .. ولكنك ترى من السياسة أن تتجاهل .. انى أشير الى ما فعله الرشيد بجعفر .. ألم يقتله ويقتل سائر البرامكة لأنهم شيعة ، ولأنه خشى أن يكون منهم سوء على سلطانه .. فقتلهم بمجرد التهمة . وقد أساء بقتلهم لدولته ولنفسه .. أما أنت فاذا انتقمت الشيعة بهذا الحزم فانك تنجى هذه البلاد من الخراب »

فاستعظم مؤيد الدين هذا التصريح وقال : « دعنا من هذا الكلام ياصاحبى .. اذ لا فائدة منه . والظاهر انك متألم من أمير المؤمنين أو بعض أهله فأردت ... »

فقطع سحبان كلامه قائلا : « كلا .. لا أقول ما أقوله عن غضب أو نقمة ، وليس بينى وبين هؤلاء علاقة شخصية ، لكننى غضبت لقومى وملتى .. غضبت للنفوس التى تقتل ، والأعراض



« فاكبر ابن العلقمى هذه الجسارة بين يديه ، فنظر اليه نظر المنكر العاتب ..
وقبل أن يقـول كلمة تصـدى سـحبان وقال : انك تعد قولى جسارة » . . .

التى تنتهك ، لا لشىء آخر سوى حبها للامام على وسائر أهل البيت » .. قال ذلك وغصّ بريقه لعظم التأثر ..

ولم يكن مؤيد الدين أقل منه غضبا ونقمة ، لكنه كان حذرا متأنيا فقال : « خفف ما عندك يا سحبان ودعنا الآن من هذا الحديث ، ان الأمور مرهونة بأوقاتها »

قال سحبان : « لا أرى وقتا أنسب من هذا .. ان هذا الأمر اذا كان مرهونا بوقت فهذا هو وقته .. اسألنى وأنا أجيبك .. »

قال مؤيد الدين : « لست أجهل ما يجول فى خاطرك ، لكننى لا أرى هذا وقته » ..

قال سحبان : « لا أظنك فهمت مرادى تماما .. عندى مشروع آخر غير الذى تعرفه .. غير هولاكو .. »

فلما سمع هــذا الاسم أجفل لأنه ما برح نصب عينيه منذ أشهر وهو سبب تردده .. فقال : « ما هو ؟ »

قال سحبان : « أشكر لك اصغاءك ياسيدى .. الأمر الذى عندى يوصلنا الى المطلوب رأسا . أعنى اننا نحيى الدولة العلوية فى بلد ظل مقر العلويين نحومائتىسنة ، وهم دولة عظيمة الشأن»

فقال مؤيد الدين : « أظنك تعنى مصر .. أين نحن منها ؟.. وقد تسلط عليها الأتراك .. و .. و .. »

قال سحبان : « أنا أعلم منك بحالهــا لأنى جئت من هناك أمس .. وأنا لا أسافر وأجىء للتجارة ، لكننى أريد حياة قومى ونصرة الأئمة المظلومين .. أنا فى مصر منذ أعوام وقد عرفت

دخائلها وهى فى يدى كما أشاء »

فضحك ابن العلقمى وقال : « ما أوسع أحلامك ، وما أكثر أوهامك .. كيف بلغ بك الغرور أن تتوهم أن مصر فى قبضة يدك ؟.. وهى الى ذلك سنية المذهب ، ورجال دولتها جميعا من الأتراك السنيين .. »

قال سحبان : « أنا أعلم ذلك ياسيدى .. ولكنهم منقسمون على السيادة ، وطالب السيادة الآن رجل حازم ناقم على السلطان الحاضر ، لأنه أساء فى أمر له ارتباط بقلبه .. فهو يبذل جهده فى تحقيق غرضنا .. وهو ناقم أيضا على خليفتك هذا لأنه أخذ خطيبته منه ، ولا يلبث أن يأتى للانتقام ، فاذا ساعدناه على قتل هذا الخليفة وبايعناه سلطانا على مصر أطاعنا فى اعلان الخلافة الفاطمية بمصر .. فنعود الى عزنا ونتخلص من هؤلاء الظالمين » وأبرقت أسرته كأنه نال ذلك فعلا

ولا بد أن يكون القارىء قد لاحظ مما ذكرناه من مساعى سحبان فيما تقدم ، انه كان من أهل الخيال وأصحاب الأوهام الذين يستسهلون الصعب ويتوهمون وقوع المحال.. فاذا تصور أحدهم أمرا يتمنى حدوثه تذرع الى تصديقه بأوهن الأسباب ، وأغضى عما يعترضه من العقبات ، أو يحول دون الحصول عليه من الموانع الطبيعية . وهذه الفئة من الوهميين كثيرة خصوصا فى بلاد الشرق .. ولعل الفرق بين الناس فى أسباب النجاح متوقف على تقديرهم للحقيقة حق قدرها ، والاحتياط للحوادث قبل

وقوعها ..

- ٣٩ -

الضوضاء

أما مؤيد الدين فانه كان من أهل التدبير والحزم ، ينظر فى العواقب ويتدبرها ولا تتملكه الأوهام .. ولولا ذلك لم يبلغ الى منصب الوزارة فى دولة مذهبها ضد مذهبه ، وبين قوم يكرهون الشيعة ويفتكون بهم .. فلما سمع كلام سحبان استخف برأيه ، وخاصة لأن ابن العلقمى لم يسرف فى مطامعه الى هذا الحد لعلمه بعجز الشيعة عن الفوز .. ولكنه كان يقنع بأن يستبدل الخليفة بآخر، فلم يشأ أن يفاتح سحبان بهذا الأمر، وعمد الى الاختصار فى الحديث ، فقال : « سننظر فى ذلك فى وقت آخر »

فأحس سحبان بما يضمره من احتقار رأيه ، فقال : « يظهر انك لم تكترث لقولى أو لعلك استبعدته .. ولو عرفت الأسباب التى عندى لوافقتنى .. »

قال مؤيد الدين : « نعم ياصديقى .. رأيت مطمعك عسيرا ، بل يكاد يكون محالا »

وكان سحبان يحترم رأى مؤيد الدين ، فقال : « اذا كان رأيى ضعيفا فأسمعنى رأيا خيرا منه .. أم أنت ترى أن نبقى فى هذا الذل حتى الموت ، ونحن سكوت ؟ »

قال مؤيد الدين : « كلا .. لاينبغى أن نبقى كذلك .. لكن

علينا أن نفكر ونقيس ونحتـاط ، لا أن نلقى الـكلام على عواهنه ، ونطلب المحال .. »

قال سحبان : « حسنا ياسيدى .. ما هو الممكن اذن .. ؟ ما هى الطريقة للنجاة ؟ »

قال مؤيد الدين : « لقد أحرجتنى فى الكلام يا سحبان ، ولم أكن أحب التصريح بما فى خاطرى الآن .. فاعلم اننا نحن الشيعة لاينبغى لنا أن نطمع فى اعادة دولتنا اليوم لأن الظروف لا تساعد على ذلك . ولابد من أن يأتى يوم يتمكن فيه أبناؤنا منه . أما الآن فيكفينا ابدال هذا الخليفة الضعيف المشتغل باللهو والغناء بخليفة عاقل حازم ينصفنا . هذه هى الخطة التى يجب أن نضعها نصب أعيننا .. »

فأطرق سـحبان وهو يعمـل فكرته ، وقد استصغر نفسه واستضعف رأيه ، وكان مع اسرافه فى الوهم سريع التقلب سهل الانقيـاد ، فاستصوب رأى ابن العلقمى وقال : « صـدقت ياسيدى .. انك فى الحقيقة وزير مدبر عاقل . قل لى ما هى المعدات التى أعددتها لتنفيذ هذا المشروع ؟ .. »

فنهض مؤيد الدين ، وهو يظهر أنه مل الحديث ، أو انه لا يريد التصريح بأفكاره لسحبان ، ووجه التفاته الى جسر بغداد القائم على السفن المستديرة ، فاذا هو يعج عجيجا بالناس على غير المعتاد .. وقد تزاحمت عليه الأقدام ، وأكثر المشاة يركضون كالهاربين من حرب ، فلم يستطع أن يتبين الوجوه ، لكنه توسم

فى الأمر شيئا هاما .. والتفت نحو سحبان فرآه أكثر منه دهشة ، وكان أقوى منه بصرا .. فصاح : « ألا ترى يامولاى ؟ ألا ترى ؟ .. هؤلاء جنود الخليفة عائدون من غنيمة يجرون وراءهم الأسرى والسبايا »

فقال وقد أجفل : « وأى حرب ؟ »

قال سحبان : « لا أدرى ، ولكننى أرى جندا وهذه راياتهم أمامهم . واذا صدق ظنى فانى أرى راية الدوادار فى مقدمتها ، وقد ذكرنى ذلك بما كنت أراه من تعدى هؤلاء الجنود على قومنا فى الكرخ والكاظمية »

فحدق مؤيد الدين فى المارة ، فلم يستطع أن يتحقق شيئا .. واذا به يسمع ضوضاء فى داره أشبه بالعويل منها بالصياح ، فأطل من نافذة تشرف على فناء الدار ، فرأى جماعة من النساء يبكين ويعولن ، وقد تلطخت أثوابهن بالدماء والتراب .. ومعهن شيخ أحنى ظهره الكبر وهو يتوكأ على عكاز ويبكى ، فتفطر قلبه لهذا المنظر ، لكنه لم يعرف القوم ، وكان سحبان واقفا بجانبه ينظر الى الدار ، ولم يكد يتفرس فيه قليلا حتى صاح : « وا .. والداه .. »

فأجفل ابن العلقمى وقال : « من هذا ؟ .. لعله أبوك ؟ »

قال سحبان : « نعم .. هو والدى ياسيدى .. أعهده مقيما فى الكرخ بسلام وأمان ، ماذا جرى له ؟ » قال ذلك واستأذن فى النزول فنزل مؤيد الدين فى أثره

ولم يكد يصـــل سحبان الى الدار حتى سمع أباه يقول : « أين الوزير ؟ .. أين مؤيد الدين ؟ » ولما وقع بصره على مؤيد الدين صاح فيه : « أنت وزيرنا ويصيبنا ما أصابنا ؟ .. اذا كان ذنبنا اننا نحب أهل البيت الكرام فقد قبلنا العقاب على الرأس والعين . والله يجزى كل نفس بما فعلت »

وكان سحبان قد وصـــل الى أبيه ، وقال : « أبى .. ماذا جرى ؟ .. ماذا أصابكم ؟ .. كيف خرجتم من البيوت على هذه الصورة ؟ .. »

فالتفت الشيخ الى ابنه ، ولما تبينه ألقى عصاه وأكب عليه وقبله وأخذ فى الشهيق والبكاء وقال : « ولدى .. سحبان .. هل أنت هنا ؟.. متى جئت ؟ .. آه .. يا ليتك جئت عندنا قبل مجيئك الى هنا .. أو لعلك أحسنت بعدم مرورك بنا لئلا تصاب بما أصيب به اخوتك »

فاقشعر بدنه وقال : « اخوتى ؟ .. ماذا أصابهم ؟ .. من فعل بكم هذا ؟ .. ولماذا ؟ .. قل .. قل يا أبى .. »

فأخذ يلهث حتى يسترد قواه ثم قال : « تسألنى من فعل بنا ذلك ؟.. ألا تعلم ممن تأتى مصـــائبنا ؟ .. انها تأتى من .. » والتفت يمنة ويسرة وهو خائف وعيناه يغشاهما الدمع ، وقال : « انت تعلم ممن تأتى مصائبنا .. »

فقال سحبان : « لعل هذا الجند المار الآن على الجسر كان عندكم ؟ .. »

فصـــاح : « اننا هاربون منه وجئنـــا الى هنا نلتجىء الى مولانا مؤيد الدين ، آه ياسيدى (والتفت الى الوزير) أنقذنا من هذا العذاب .. أخرجنا من هذا البلد » والتفت الى سحبان وقال : « انت تفر من هذه المصائب كل سنة وتنجو بنفسك وتتركنا أنا واخوتك معرّضين لهذا الخطر .. يا الهى متى نخلص من هذا العذاب ؟ .. »

فأجابه ســحبان وهو يرتعد من الغضب : « عن قريب ان شاء الله » والتفت الى مؤيد الدين فرآه واقفا يسمع ويتجلد ، وقد أومأ الى النساء أن يدخلن دار الحريم . ونظر الى الشيخ وتلطف فى خطابه وقال : « تفضل يا عماه واجلس هنا .. خفف ما عندك وقص علىّ ما جرى .. »

قال ذلك وجلس وأجلس الشيخ بين يديه ، وسحبان واقف لا يريد أن يجلس من شدة الغضب . فأخذ الشيخ يقص حديثه فقــال : « انت تعلم يامولاى حالنـــا مع هؤلاء القوم كيف يناوئوننا ويعذبوننا ، ونحن صـــابرون ننتظر الفرج .. لكنهم لم يرتكبوا من قبل ما ارتكبوه هذه المرة من القتل والسبى .. فانهم لم يبقوا على الأموال ولا الأعراض .. » وصاح ثانية : « ولا الأعراض .. » وغص بريقه وشفتاه ترتعشان فتشـــاغل بالبحث عن عصاه ..

فتأثر مؤيد الدين من منظره ونظر الى سحبان ، فرآه يمسح عينيه ، ويخجل أن يراه الناس باكيا .. فتجلد وأخذ يخفف عن

الشيخ ، فقال : « يا عماه .. هون عليك .. لكل شيء نهاية .. والله مع الصابرين .. ثم ماذا جرى ؟ .. »

قال الشيخ : « لا تسألنى يابنى عما جرى فانه يفتت الأكباد يكفى ما ترونه .. » وجعل يمسح عينيه وأنامله ترتجف

فأجابه سحبان : « قد تعودنا هذه الشدائد منهم ، ولكن..»

فقاطعه أبوه قائلا : « لا .. لا .. ها أنا قد أدركت الشيخوخة فى هذا البلد مع هؤلاء القوم ، وشاهدت نكبات عديدة ليس فيها واحدة مثل هذه ، كانوا يعتدون على بعض المارة أو يتهمون بعض الرجال بأمر يسوغون به لأنفسهم مصادرة أمواله أو اهانته.. أما الآن فانهم قد دخلوا المنازل بلا حجة ولا سبب ، وانتهكوا حرمة النساء ، وارتكبوا الفاحشة ، وقتلوا الأطفال .. دعنى ، لم أعد أستطيع الكلام ولا أبالى اذا مت .. وانما أطلب الى الله أن يبقينى حيا لأرى زوال هذه الدولة » قال ذلك وأسرع تنفسه وأوشك أن يغمى عليه .. فرشوه بالماء ، وبادر سحبان فأعانه حتى أدخله غرفة استراح فيها ، وذهب توا الى دار الحريم ، وكلف أحد الخصيان أن يجمعه بأخته ، وكانت مع النساء .. فأتته وهى تبكى وتندب وقد قطعت شعرها فقال لها : « اخبرينى ياصفية .. ماذا جرى لكم ؟.. هل أصيب أحد منكم بسوء ؟.. أين اخوتك ؟..»

فلطمت كفا بكف وقالت : « لا أدرى أين هم .. هل هم أحياء أم هل هم أموات .. لست أدرى .. ويلاه .. أين كنت لتشهد المذابح ؟ .. انهم دخلوا مخدعى وأوشكوا أن يمسونى

أعوذ بالله .. »

فاقشعر بدنه من هذه الكلمة ، ولم ير بدا من التجلد بين يديها ، فقال : « الله كريم يا أخيـة .. سوف ينتقم من القوم الظالمين .. » قال ذلك وتحول الى الدار ، فلم يجد مؤيد الدين هناك .. فسأل الخدم عنه فقالوا انه فى حجرته يلبس ثيابه ، فعلم انه عازم على الذهاب الى قصر الخليفة فى هذا الشأن .. فسرّه انه غضب ، وودّ أن لايفلح فى مهمته لعله يعمل بمشورته ويعزم على التخلص من هذه الدولة

وذهب الى أبيه فرآه قد أفاق واستراح ، فجلس اليه وأخذ يخفف عنه ، ويسأله عن تفصيل ما حدث ، فلم يزدد الا دهشة .. لكنه أخذ يهوّن عليه بأنه سينتقم له أضعاف الأضعاف ، وان الله لابد أن يبيد الظالمين .. ونحو ذلك ، من عبارات التعزية وقد تعودها الشيعة فى بغداد لكثرة ما توالى عليهم من المحن ..

— ٤٠ —

المستعصم

أما مؤيد الدين ، فانه لبس قلنسوته وقباءه الأسود .. وركب بغلته الى قصر التاج ليرى الخليفة ، ويشكو اليه ما فعله جنده مما لا يُحتمل .. والغلام يركض بين يديه ، فمرّ بالمدرسـة المستنصرية والقصر الحسنى حتى بلغ قصر التاج ، فدخل بساتينه

والخدم يوسعون له .. فلما وصل الى بابه الأكبر ، ترجل ودخل مسرعا والغضب باد على محياه ، حتى انه لم يحسن رد التحية على من لقيه فى طريقه من الخاصة

فلما وصل الى باب العامة ، مشى الحرس بين يديه .. فسأل صاحب الباب عن الخليفة فقال : « انه جالس على منظرة المسناة فهل أستأذن لمولاى الوزير ؟ »

قال مؤيد الدين : « هل هو وحده هناك ؟ .. »

قال : « عنده بعض الخاصة والمغنون .. »

فشق عليه ذلك لأنه طالما فكر فيه وتكدر منه فقال له : « استأذن لى عليه أو قل له انى أحب لقاء أمير المؤمنين حينما يشاء .. »

فذهب الغلام وعاد وهو يقول : « لايرى أمير المؤمنين بأسا من دخولك الى المنظرة » فلم تعجبه هذه الدعوة لأنه كان يحب أن يراه على حدة .. لكنه لم ير بدا من الطاعة ، فدخل من دهليز الى دهليز والخصيان توسع له حتى أطل على المنظرة . وهى كالعريش (أو الكشك) تشرف على دجلة .. فوقها قبة من الخشب مزخرفة بالنقوش المذهبة الجميلة ، وأرض المنظرة مفروشة بالسجاد الثمين عليه الرسوم البديعة . وفوق السجاد الوسائد المطرزة . وفى وسط المنظرة مائدة عليها ألوان الفاكهة والحلوى ، وفى صدر المكان المستعصم وقد اتكأ على مرتبة عالية كالسرير . وعليه ثوب أبيض شبه القباء برسوم من ذهب . وعلى

رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة الخاصة بملابس الملوك..كأنه يتعمد التشبه بزى الأتراك.. وكان المستعصم أسمر اللون مسترسل اللحية ، ربع القوام ، ليس بالطويل ، ظاهر الحياء ، لين الكلام ، سهل الأخلاق (١) ، الا انه ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة يطمع فيه كثيرون ، وأمام المنظرة نهر دجلة يجرى ، وفيه الزوارق المعدة لركوب الخليفة متى شاء ..

فاستعاذ مؤيد الدين من هذه المقابلة ، وود لو انه لم يأت فى تلك الساعة ، لكنه لم يسعه الا القاء التحية بالاحترام اللائق . فأشار اليه المستعصم أن يتفضل بالجلوس على وسادة بالقرب منه وقال : « مرحبا بوزيرنا الهمام »

فتأدب فى الجواب وتقديم الاحترام ، والتفت الى الحاضرين فلم يجد بينهم من يحترم مجلسه أو يعتد بوجوده ، وانما هم طائفة من خاصة الخليفة العائشين فى داره بين قيم القصر ، وأستاذ الدار ... وهذا يعرف بالصاحب وله قدر كبير عند الخليفة ، ويدعى له على المنابر بعد الدعاء للخليفة . وقلما يظهر للعامة اشتغالا بما هو فى سبيله من أمور تلك الديار ومراقبتها ، والتكفل بمخالقها وتفقدها ليلا ونهارا . فقد كان فيها من النساء عدد كبير فيهن سبعمائة امرأة باشرهن هو وأولاده .. وتصور عدد من فى خدمتهن من الخصيان . وزينة الملك عندهم الفتيان

---

(١) سيرة الملوك ٢١٤

والأحابش المجابيب ، فانهم تقدموا فى تلك الدولة تقدما عظيما حتى ان أحدهم قد يمشى وبين يديه وخلفه أمراء الجنود من الأتراك والديلم ، وحوله نحو خمسين سيفا مسلولا وله القصور والمناظر ..

فكان فى تلك الجلسة غير واحد من هؤلاء ؛ وهم مهما بلغ من مقامهم فى الخارج اذا مثلوا بين يدى الخليفة أحنوا الرءوس ، وتخشعوا ، فلا يسمع فى المجلس الا صوت الخليفة أو من يخاطبه فى شأن من الشئون ويطلب الجواب منه

وما أن جلس الوزير ، حتى أشار الخليفة الى المغنى أن يعيد ما غناه ، وهو يطرب لذلك طربا شديدا حتى يخرج به عما يقتضيه منصب الخلافة من الوقار .. وأعوانه يعرفون ذلك فيه ، فيعده بعضهم لطفا وظرفا .. ويعده الآخرون ضعفا وتهاونا .. وكان هذا رأى مؤيد الدين فيه ، على انهم أجمعوا على حسن طوية الخليفة ، ولعل ذلك من أسباب ضعفه التى جعلت لأرباب الدسائس سبيلا اليه

— ٤١ —

أستاذ الدار

وكان مؤيد الدين يسمع الغناء ، وهو مطرق يفكر فيما جاء من أجله ، وينتظر أن يسأله الخليفة عن شأنه . فلما أتم المغنى دوره

التفت المستعصم الى الوزير وقال : « هل سمعت أشجى صوتا وأرق نغما .. ان هذا اللحن يطربنى كثيرا . وهناك لحن آخر قريب منه لم أجد من يجيده فى بغداد . فبلغنى عن مغنية فى دار سلطان مصر تجيده فبعثت فى استقدامها ، لكنها لم تصل الىّ .. » قال ذلك وسكت ، وقد انقبض وجهه .. ثم استطرد قائلا : « وكان فى عزمى أن أبعث اليك منذ أيام لأخبرك بذلك ، وأستعين بك فى البحث عن هــذه المغنية لأنى على ثقة من أنها وصلت بغداد ، لكن بعض اللصوص أخذوها من الركب الآتى بها من مصر .. فهل تبحث عنهم ؟ »

فأشار مؤيد الدين مطيعا وقال : « لابد من البحث عن كل لص ومعاقبته .. اذ لايليق أن يجسر أحد على ارتكاب جريمة فى عهد مولانا أمير المؤمنين أيّده الله » وأحب أن يتطرق الى ما جاء من أجله فتصدى أستاذ الدار وقال : « ان تجرؤ هؤلاء اللصوص على مغنية محمولة لمولانا أمير المؤمنين لم يسمع بمثله . وهو يدل على ضعف سطوة الحكومة وقلة هيبتها فى عيون الناس . وكان المرجو من الوزير ــ حفظه الله ــ أن لايترك سبيلا لمثل ذلك .. »

فوقع هذا الكلام وقوع السهم فى قلب مؤيد الدين ، ولم يطق صبرا على السكوت عنه . وعلم ان الأستاذ الخصى يريد أن يظهر لدى مولاه بمظهر الغيور على مصالح الدولة . فاستثقل ذلك منه وعده جسارة خــارجة عن حدود الليــاقة فى مجالس الخلفاء ، فالتفت اليه وقال : « صدقت يا أستاذ .. لاينبغى أن

يقع مثل ذلك وتبعته تلقى على الوزير اذا كان الأمر راجعا اليه.. فان أرواحنا فداء أمير المؤمنين فى الدفاع عن الدولة وبذل الجهد فى طاعته ، ولكن هذه الأمور وأمثالها تقع أحيانا ولا حيلة للوزير فى دفعها .. ثم حوّل بصره الى المستعصم وقال : « وهذا كثيرا ما يقع ونتلافاه بدون أن يبلغ الى سمع مولانا أمير المؤمنين .. حتى الجند فانهم يرتكبون أمورا لا يليق بالجند ارتكابها ، ولا أدرى هل يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم .. » قال ذلك وقد تغير وجهه وظهر للخليفة انه يحمل شكاية يريد ابلاغها ..

فقال المستعصم : « لاينبغى أن يقع شىء من ذلك الا باذن منا أو من وزيرنا أو من أستاذ دارنا . وهل وقع شىء من هذا القبيل قريبا ؟ .. »

قال مؤيد الدين : « أرفع الى سمع مولاى أمير المؤمنين أن جماعة من أهل الكرخ أتونى الساعة وفيهم الشيوخ والنساء يبكون ويندبون . وقالوا : ان شرذمة من الجند نزلوا عليهم ونهبوا منازلهم ، وقتلوا من وقف فى طريقهم ، وارتكبوا الفاحشة وغير ذلك .. »

فتصدى أستاذ الدار ، وقال وهو يهز رأسه بسخرية واحتقار : « أهل الكرخ ؟.. أهل الكرخ تعودوا هذه الشكاية.. فلا يمضى عام أو شهر الا سمعنا هذه الشكاية منهم .. »

فاستقبح مؤيد الدين تعرضه ووقاحته واستغرب اعتراضه فقال وهو يخاطبه : « تعود أهل الكرخ الشكوى لأن الجند

تعودوا أن يؤذوهم .. و .. »

فقطع الأستاذ كلامه وقال : « وان لم يؤذوهم .. انهم يحبون الشكوى .. هذه عادة الشيعة .. » ونظر الى الحاضرين وضحك ضحك الاستخفاف ..

فأثر ذلك فى نفس ابن العلقمى تأثيرا سيئا جدا ، وحوّل وجهه عن الرجل وهو يقول : « لم آكن أظن ان أحدا يجسر على هذا القول فى حضرة مولانا أمير المؤمنين .. » وسكت

فتصــدى المستعصم للكلام وقال : « لا أستحسن ما جرى بينكما .. ولا حق للأستاذ أن يتكلم بهذه اللهجة ، فاذا اشتكى أهل الكرخ أو غيرهم فعلينا أن ننظر فى شكواهم وننصفهم اذا كانوا مظلومين ، أو نعاقبهم اذا كانوا مذنبين » ووجه خطابه الى مؤيد الدين وقال : « ماذا جرى أيها الوزير ؟ .. »

فاتجه بكليته نحو الخليفة وقال : « بلغنى يامولاى أن شرذمة من الجند سطت على الكرخ فى هذا الصباح وأمعنت فى أهله قتلا ونهبا . وقد رأيت جماعة من المصــابين وفيهم الشــيوخ والنساء والأطفال ، فلم أشأ أن أفعل شيئا قبل أن أستطلع رأى مولاى .. »

قال المستعصم وهو يظهر الاهتمام : « ان هذا يتعلق بالدوادار قائد الجند ، فينبغى أن نسأله عما بعثه على ذلك.. لعل له عذرا » وصفق فجاء الحاجب ، فأمره أن يستقدم الدوادار حالا ..

وعاد الخليفة فأشار الى المغنى أن يعود لغنائه .. واقترح عليه

لحنا خاصا غناه وهو يعزف على العود ؛ فطرب الجميع الا ابن العلقمى فانه كان يغلى من شدة الغضب وهو يتجلد ..

وبعد قليل جاء غلام وقال : « ان الدوادار بالباب » . فأمره الخليفة أن يذهب به الى دار العامة ينتظر حضوره . قال ذلك ونهض وأشار الى الحاضرين بالانصراف ، وأومأ الى الوزير أن يتبعه فسار فى أثره نحو دار العامة .. وهى قاعة الاستقبال الخاصة بالأعمال ..

ودخل الخليفة أولا الى غرفة الملابس ، وجاء صاحب الثياب فألبسه ما تعود لبسه اذا جلس لمقابلة الناس بالعمامة الكبرى والجبة وغيرها ..

ثم أقبل على دار العامة من باب داخلى .. وهى مزودة بالستائر والنمارق والأرائك الثمينة .. يقلدون بها ما كان من أسباب البذخ فى صدر الدولة العباسية

فلما دخل الخليفة القاعة جلس على سريره ، وأومأ الى ابن العلقمى أن يجلس ، ثم أمر الحاجب أن يدخل الدوادار . وكان ابن العلقمى قد سرى عنه فدخل الدوادار وألقى التحية ، ووقف متأدبا فقال له الخليفة : « يقول وزيرنا ــ حفظه الله ــ ان الجند سطوا على الكرخ وقتلوا ونهبوا .. فهل تعلم بذلك ؟ »

قال الدوادار : « نعم يامولاى .. »

قال الخليفة : « وتقول نعم ؟.. وكيف أذنت بوقوعه ؟.. »

قال الدوادار : « فعلته بأمر من مولاى الأمير أبى بكر نجل

مولانا أمير المؤمنين .. »

قال الخليفة : « اذا قال لكم أحمد « أبو بكر » اقتلوا الناس تقتلونهم بغير سبب ؟ .. »

قال الدوادار : « لم أسمح بارسال الجند الى الكرخ بغير سبب .. فقد قال مولاى أبو بكر ان جماعة من أهل الكرخ خطفوا جارية من جواريه وخبأوها عندهم ، فذهبنا للبحث عنها عند صاحب الشأن فمنعونا من الدخول وجردوا علينا السلاح ، فأمرنى الأمير بالدفاع والتفتيش وقد فعلت »

فقال الخليفة : « ذهبتم للتفتيش عن جارية أخذت من بيت أحمد فقتل بسببها عشرات من الناس .. فلو فعلت مثل فعلكم بسبب الجارية المغنية التى أخذت منى لحدث مثل هذا وأعظم منه .. ان هذا لا يليق بنا .. أين أحمد ؟ .. »

فأجابه الدوادار : « أظنه فى قصره يامولاى .. » ..

فقال الخليفة : « ادعه الىّ حالا .. »

فلما شاهد مؤيد الدين غضب الخليفة من ابنه على هـذه الصورة ، استبشر بنجاته من تعدياته وتطاوله وتدخله فى أمور الدولة .. ونظر الى المستعصم ، فرآه مطرقا والغضب يتجلى فى وجهه ، لكنه لم يتبين من ذلك الغضب حزما وعزيمة ــ تلك كانت علة ذلك الخليفة ــ لم يكن ينقصه حسن القصد ، وانما كان ينقصه الحزم ..

فظل مؤيد الدين صـامتا مطرقا حتى دخل الحاجب وأنبأ

بمجيء الأمير أحمد ، فأمر الخليفة بدخوله ..

— ٤٢ —

أحمد بن المستعصم

فدخل أبو بكر وهو شاب فى مقتبل العمر قد أخذه الغرور ، وتمازج حركاته خيلاء لا تظهر الا على أصحاب الرءوس الفارغة ، ولا سيما فى أوائل الشباب — حوالى السنة العشرين من العمر — ذلك هو سن الغرور عند كل شاب يتوهم انه بلغ الكمال فى كل شىء .. اذا مشى حسب ان الناس ينظرون اليه اعجابا بجماله ، وبسالته ، ويكادون يتلقفونه بأبصارهم.. واذا قال قولا توقع أن يكون له وقع الوحى على قلوب الناس ، فاذا آنس منهم فتورا أو احتقارا غضب وأنحى عليهم باللائمة ، ورماهم بالجهل أو الحسد لأنهم بخسوه حقه ، وانهم انما فعلوا ذلك تقليلا من فضله ليظهر فضلهم .. ونحو ذلك من غرور الشباب

فاذا كان ذلك شأن الشباب على اختلاف طبقاتهم ، فكيف بأبناء الملوك أو الخلفاء الذين لا يسمعون الا المدح والثناء .. ولا سيما اذا أحاط بهم المتملقون فى مثل ذلك العصر ، وخاصة اذا كان فى الشباب خفة وصغار مثل أحمد هـذا . وقد زاده غرورا ان أباه أطلق سراحه من سجنه على غير المعتاد عند الخلفاء قبله . فأصبح لذلك لا يحسب للعواقب حسابا .. بل انه لايدرك

حقائق الأمور ، وانما يهمه أن تنفذ كلمته وينال مشتهاه مهما كلفه ذلك ..

دخـــل أبو بكر وألقى التحية وتلفت يمينا وشمالا ، فوقع بصره على مؤيد الدين فنظر اليه باحتقار ، ومؤيد الدين لايبدى ملاحظة . وجلس أبو بكر قبل أن يأذن له أبوه فى الجلوس فقال له المستعصم : « يا أحمد .. هل أنت أمرت الدوادار بالهجوم على أهل الكرخ ؟ .. »

فأجاب وهو يبتسم نكاية فى مؤيد الدين : « نعم يا أبى .. »

قال المستعصم : « وكيف ذلك ؟.. ولماذا ؟.. »

قال أبو بكر : « لأن جارية من جوارىَّ هربت من قصرى واختبأت فى منزل أحدهم هناك ، ولا شك انهم هم حملوها على الفرار وخبأوها .. فبعثت من يأتى بها فشتموا رسولى وضربوه ، فأمرت الدوادار أن يؤدبهم فتمردوا عليه ، فاضطر للدفاع عن نفسه بأن يضربهم ، وقد فعل .. وما المانع من ذلك ؟ .. »

فقال المستعصم : « المانع انه لايليق أن تحدث مذبحة يُقتل فيها عدة رجال من أجل جارية ، وأنت تعلم ان فى قصورنا ألوفا من الجوارى ، فلو طلبت منى عشر جوار بدل الجارية لكان ذلك أهون علىَّ مما أسمعه ، والجوارى كلهن سواء .. »

فاعتـــدل فى مجلسه وهو يصلح منطقته بدلال وانفة وقال : « اذا كانت الجوارى سواء وفى قصورنا ألوف منهن فما الذى حمل أمير المؤمنين على أن يبعث فى طلب جارية من سلطان مصر؟!»

وكان مؤيد الدين يلاحظ ما يبدو على وجه المستعصم من الملامح ليرى ما يكون من تأثير قول ذلك الغلام عليه . فاذا هو حالما سمع اعتراض ابنه ، غلب عليه ضعف العزيمة ؛ وعمد الى الاسترضاء ، وقال : « أنا لم أطلب تلك الجارية من سلطان مصر الا لتفردها بغناء لايستطيعه سواها .. وأما .. »

فقطع كلام أبيـه بكل وقاحـة واستخفاف ؛ وقال : « وما أدراك أن لا تكون جاريتى هـذه تتصف بمناقب لا توجد فى سواها ؟.. وما أجدرنى أن أقتدى بوالدى وهو أمير المؤمنين قدوة سائر المسلمين .. »

فحمل المستعصم هـذا القول محمل التهكم ، وخجل من أن يسمعه أمام مؤيد الدين والدوادار ولا يجيب عليه ، فقال : « هكذا تجيبنى يا أحمد ، وهل يحق لكل واحد أن ينال ما يناله أمير المؤمنين ؟ .. ان عملك هذا لايرضينى .. »

فهز أحمد رأسه ، وقال : « يكفى أن يرضينى أنا .. وهل أعمال أبى ترضى كل انسان ؟ .. لا يطلب من المرء أن ترضى أعماله كل الناس .. »

وبعد أن كان المستعصم قد صرح بانكاره تهكم ابنه ، حمله ضعفه على المغالطة .. وأظهر ان ابنه لا يريد التهكم بما قاله فابتسم ، وقال : « وبعد تلك المذبحة .. هل ظفرت بالجارية ؟..»

قال أحمد : « كلا .. لا تزال مختبئة .. ولا بد من استئناف البحث عنها » ..

قال المستعصم : « لا ياولدى .. لا تبحث عنهـا على تلك الصورة ، أنا أكلف وزيرنا مؤيد الدين أن يتحرى عنها حتى يقف على مكانها ويعيدها اليك .. »

فنظر أبو بكر الى مؤيد الدين لحظة ، ثم حوّل وجهه عنه نحو الدوادار وقال : « اذا لم يقف على مكانها نحن نستطيع اخراجها من مخبئها ، ولو كانت فى جيب الوزير أو بين أهله » قال ذلك ونهض ، ثم قال : « استأذن سيدى الوالد فى الانصراف الآن ، لأنى على موعد مع بعض القواد للخروج الى الصيد ..» وخرج ولم ينتظر اذن والده وأومأ الى الدوادار أن يتبعـه فتبعه . والمستعصم ينظر الى ابنه وهو خارج وقد ظهر اليأس على وجهـه ، ثم حوّل بصره الى مؤيد الدين وتنهد وقال : « صدق القائل : وانما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض » ودمعت عيناه ..

فأطرق مؤيد الدين وهو يتعجب من ذلك الضعف . ولبث فى انتظار حديث الخليفة حتى سمعه يقول : « يا مؤيد الدين انك وزيرى وموضع ثقتى .. وقد رأيت ما أظهره أحمد من الاستخفاف بقولى .. وأظننى أخطأت باطلاق سراح أولادى فخالفت بذلك تقاليد أجدادى .. فلو كان أحمد محجورا عليه كما كان أبناء الخلفاء قبله ، لكنا فى غنى عما نحن فيه » وتشاغل باصلاح لحيته ..

فلم يشأ مؤيد الدين أن يخوض فى هذا الموضوع خوفا من

تغلب عاطفة الحنان على هذا الولد الضعيف ؛ فيتحول غضبه الى الوزير وهو يدرك مدى ضعفه ، ولا سيما ازاء ابنه هــذا .. فقال المستعصم : « نطلب الى الله أن يهدى هــذا الغلام الى صوابه .. انت أب تعرف قلوب الآباء ، فأرغب اليك أن تساعدنى فى البحث عن جارية أحمــد ؛ وأن تعوض على أهــل الكرخ خسائرهم ، وانى متأسف لما وقع وعسى أن لا يتكرر .. » ثم تنحنح وهمَّ بالنهوض وهو يقول : « لا يبرح من بالك أيضا أن تبحث عن الجارية شوكار المغنية التى استقدمناها من مصر وخطفها اللصوص قرب بغداد

فنهض مؤيد الدين وطأطأ رأسه مطيعا ، وقال : « انى عبد أمير المؤمنين وفقنى الله فى خدمته ، ولكننى ... »

فقطع الخليفة كلامه قائلا : « أنا أعلم أن أحمد لم يكن ينبغى له أن يقول ما قاله .. لكنه لايزال شابا قليل الاختبار ، ولا يلبث أن يهتدى الى الصواب » وتحوَّل كل منهما فى طريقه ..

— ٤٣ —

شوكار

خرج مؤيد الدين بن العلقمى من قصر التاج ، وركب بغلته عائدا الى قصره وهو غارق فى التفكير تتنازعه عوامل مختلفة ، لكن الخوف أقواها جميعا ..

ولما دنا من قصره تقدم غلامه نحو الباب ، فرأى فى موقف الدواب بغلتين : احداهما بغلة سحبان .. وقد عرفها ، والثانية لم يعهد رؤيتها من قبل .. لكنه تقدم الى الباب وقرعه ففتح له على سعته ، ودخل مؤيد الدين ببغلته الى مدخل الباب وترجل هناك .. فتناول الغلام رسن البغلة وساقها الى مكانها ، ومشى مؤيد الدين ، والبواب يسرع بين يديه ، فقال له مؤيد الدين : « من هو صاحب البغلة الأخرى المربوطة هنا ؟ .. »

قال البواب : « ان صاحبتها امرأة جاء بها سحبان من عهد قريب ، وهو فى انتظار مولانا الوزير فى الشرفة ولا يلبث أن ينزل للقائه .. »

قال مؤيد الدين : « اذا نزل ، اطلب اليه أن يأتى الى غرفتى .. من هى المرأة التى معه ؟ .. »

قال البواب : « لا أدرى ياسيدى .. لكنه بعد خروجك أخذ أباه وأخته الى الكرخ ، ثم عاد الساعة ومعه هذه المرأة وأظنها جارية .. »

وكان مؤيد الدين قد وصل الى غرفته فدخلها ، وأهل بيته يعلمون انه اذا دخلها لا يدخل عليه أحد الا باذن خاص ، وسأله الطاهى اذا كان يريد الطعام ، فقال : « هيىء لى مائدة مختصرة أدخلها الى هنا .. وليأت سحبان للأكل معى .. »

ودخل فبدل ثيابه ، ولم يكد يفرغ من ارتداء ملابسه حتى جاء سحبان وعلى وجهه امارات البشر ، وكان قد فارقه فى ذلك

الصباح واليأس غالب عليه ، فاطمأن خاطر مؤيد الدين بعض الشيء .. وابتسم ابتسامة لم تتجاوز شفتيه ، وقال : « ما وراءك ياصاحبى ؟ .. »

قال سحبان : «يظهر انك غضبت مما شاهدته فى قصر التاج.. ليس عند القوم ما يدعو الى السرور » وابتسم ..

فقال مؤيد الدين : « وهل عندك شيء يدعو الى ذلك يا سحبان ؟ .. بالله قل .. ان صدرى ضاق مما أراه وأسمعه .. تقدم للأكل معى .. »

فأثنى على دعوته ، وتناول سكباجة وتشاغل بتقطيعها وهو ينظر الى وجه الوزير ، ويقول : « لدىَّ خبر يسرك ويوجب استغرابك ودهشتك .. »

فاشتاق مؤيد الدين الى معرفة ذلك الخبر ، فتوقف عن المضغ وقال : « ما ذلك ؟.. قيل لى انك جئت ومعك امرأة .. من هى ؟ .. » ثم عاد الى المضغ ..

فضحك سحبان ، وبادر الى قطعة من السكباجة أدناها من فمه وهو يقول : « هى طلبة الأمير أحمد ، وهى الجارية التى فتك بأهل الكرخ من أجلها .. »

فقال مؤيد الدين : « كيف ظفرت بها ؟ .. الحمد لله على ذلك لقد تخلصنا من شر هذا الغلام .. أين كانت ؟ .. »

قال سحبان : « كانت مخبأة عند جيراننا .. وأختى تعلم ذلك لكنها كتمت أمرها وتعرضت للخطر من أجل كتمانه ، كما

علمت ، لأنها رأت الجارية تكره أن تعود الى أحمد هذا . فلما جرى ما جرى وعدت أمس مع أهلى ، قصت على أختى خبر هذه الجارية وأرتنى اياها .. فأتيت بها الى هنا »

قال مؤيد الدين : « حسنا فعلت لأن الخليفة ألح فى التوصية أن نبحث عن هذه الجارية ونعيدها الى ابنه خوفا من جهله ، وقد حيَّرنى هذا الوالد بضعفه وحنانه » ..

فقال سحبان : « لكن الجارية لا تريد أن تعود اليه .. »

قال مؤيد الدين : « هى وشأنها .. نحن ندفعها الى الخليفة وتتخلص من تبعة أمرها »

فقال سحبان : « انها أشـد كرها للخليفة .. ولا تريد أن يعرف بوجودها هنا .. »

قال مؤيد الدين : « وكيف ذلك ؟ .. لم أسمع ان الجوارى يرفضن التقرب من الخلفاء »

قال سحبان : « لهذه الجارية شأن خاص لايعرفه أحـد فى بغداد سواى .. »

قال مؤيد الدين : « لله أنت ما أكثر ما تعرفه .. »

قال سحبان : « لا أعرف ذلك لذكاء خاص ، أو لكرامة ، أو ولاية .. ولكن الأسفار تعلم الانسان أشياء كثيرة »

فقال مؤيد الدين : « وما علاقة ذلك بالأسفار ؟ .. »

قال سحبان : « لأنى رأيت هـذه الجارية بمصر وعرفت

حديثها ، وهو ذو شجون ، لو عرفته لتولتك الدهشة من غرائب الاتفاق » ..

فازداد رغبة فى الاستطلاع وقال : « قل يا سحبان .. لا صبر لى على التطويل »

قال سحبان : « ألم تسمع شكوى الخليفة من جارية طلبها من سلطان مصر وخطفت قبل وصولها الى قصره ؟ .. »

قال مؤيد الدين : « بلى .. سمعت ذلك منه »

قال سحبان : « هى هذه الجارية نفسها »

قال مؤيد الدين بدهشة : « هى نفسها الجارية التى فرّت من ابنه الى الكرخ ؟ »

قال سحبان : « نعم ياسيدى هى بعينها .. هى شوكار جارية شجرة الدر التى سمع الخليفة بصوتها الرخيم وبراعة عزفها على العود ، فبعث الى سلطان مصر يطلبها منه . وقبل دخولها بغداد سطا عليها بعض الناس بحجة انهم قادمون من قصر الخليفة لحملها اليه وفرّوا بها . وتحدث أهل بغداد بذلك مدة ، ثم سكتوا ، وكان الباعث على ذلك السطو أن أبا بكر هذا لما سمع بالجارية القادمة الى أبيه ظن نفسه أولى بها ، فبعث من قبله أناساً أخذوها من القادمين بها بدعوى انهم آتون من قصر التاج لاستقبال مغنية أمير المؤمنين ، فلما صارت فى أيديهم أخذوها الى قصر أعده هذا الشاب لمثل هذه الحاجة ، وكان أهل قصر التاج فى انتظارها .. ثم علموا انها أخذت خلسة ، لكنهم لم

يعلموا أين هى .. ولا يزالون يجهلون ذلك حتى الآن .. »

فاستغرب مؤيد الدين وقاحة ذلك الشاب وتعدّيه على أبيه ، وقال : « وماذا فعلت شوكار بعد ذلك ؟ .. ألم تجد مقامها عند هذا الشاب أفضل مما عند أبيه ؟ »

قال سحبان : « ان هذه الفتاة لايطيب لها المقام فى غير مصر لأنها مخطوبة لأمير من أمراء المماليك .. »

قال مؤيد الدين : « مخطوبة ؟.. وبعث الخليفة يأخذها من خطيبها ؟ .. »

قال سحبان : « لم يعلم الخليفة انها مخطوبة ، وانما يعلم انها جارية شجرة الدر الملكة السابقة ، وانها تحسن الغناء فطلبها من السلطان الجديد ، فلم يسعه مخالفة أمر الخليفة »

قال مؤيد الدين : « من هو خطيبها ؟ .. »

قال سحبان : « هو ركن الدين بيبرس البندقدارى »

قال مؤيد الدين : « ركن الدين بيبرس .. انه بطل باسل ، ورجل حكيم ، اجتمعت به مرة فى مصر ونحن شابان وتكاتبنا غير مرة .. انى أعرفه شجاعا لا يصبر على الضيم ، فماذا هو فاعل ؟ ..»

قال سحبان : « انه يكاد يتقد غيظا .. ولا أخفى على مولاى انه أسرّ الىّ أمر هذه الجارية وأنا فى مصر . وقد تعجلت السفر الى بغداد فى سبيل خدمته .. لعلى أقف على خبر خطيبته ، وكان قد جاءه كتابها تنبئه فيه باختطافها من رجال الخليفة . ولم تكن

تعرف من اختطفها .. وربما جاء هو بنفسه للبحث عنها »

فأطرق مؤيد الدين مدة وهو يفكر فى حال ذلك الخليفة وابنه ، وفى اشتغالهما باللهو عن الحكم وقال : « هل تظن ركن الدين يأتى الى بغداد ؟ ..»

قال سحبان : « لا يبعد أن يأتى .. والآن اذا أذنت فلتبق شوكار عندنا ، ريثما يأتى هو أو نكتب اليه عن نجاتها ، وننتظر رأيه فيها » ..

قال مؤيد الدين : « وكيف استطاعت الفرار من قصر أبى بكر وهى غريبة هنا ؟ »

قال سحبان : « ساعدها على ذلك خصى كان فى خدمتها يعرف أهل المنزل المجاور لمنزلنا فحملها اليه بحيلة . ولما علم أبو بكر بذلك جاء الكرخ كما علمت ، لكنه لم يستطع الوقوف على خبرها . ولما علمت اليوم بوجودها أتيت بها الى هنا لأرى رأيك فيها .. »

فأخذ مؤيد الدين يفكر فيما سمعه وهو حذر يقظ ، فخشى أن يكون فى بقاء تلك الفتاة عنده باعثا على سوء الظن ، لعلمه بوجود الجواسيس حوله ، فقال : « انظر ياصاحبى .. ان أمر هذه الفتاة أهمنى كثيرا وفرحت بنجاتها من الأسر ، وأحب استبقاءها ، لكنى لا أرى أن تبقى فى منزلى .. »

فبادره سحبان قائلا : « صدقت .. ولا أنا أطلب ذلك ، وانما أستشيرك فى الأمر .. وأحب أن يعلم ركن الدين أن نجاتها كانت

على يدك . وهو قائد عظيم ننتفع برأيه وحزمه فى الأمر الذى تكلمنا فيه .. ولا بد من الوصول اليه .. ان هذا القائد وعدنى وأنا فى مصر انه يستطيع أن يقلب هذه الحكومة ويقتل الخليفة ويقيم لنا الدولة العلوية الشريفة بمصر ، وعند ذلك .. »

فأسكته مؤيد الدين بالاشارة وهمس فى أذنه قائلا : « لا تتطرف فى أفكارك يا أخى .. دعنا من التخيلات الى الممكنات »

فتعجب سحبان من انكاره ذلك عليه لأنه كان يعتقد انه ميسور .. ويعتقد أن ركن الدين وعده به ، مع ان ركن الدين لم يبـد فى هذا الشأن غير السكوت .. ولكن سحبان كثير التعويل على الأوهام ، كما علمت ، فيبنى من الحبة قبـة .. وهؤلاء الواهمون يخلقون الأفكار ويصيغونها من عند أنفسهم على ما يلائم رغباتهم .. يطلب منك أحـدهم طلبا فتجيبه انك ستنظر فيه ، فيعتقد انه ناله .. وقد تظل ساكتا أو تقول قولا آخر فى موضوع آخر ، فيتوهم لرغبته فى ذلك انك وعدته وعدا أكيدا يقرب من الواقع . ولم يكن مؤيد الدين كذلك ، بل كان عكس سحبان على خط مستقيم .. فلما أنكر عليه قوله ، اضطر سحبان الى السكوت والتظاهر بالاقتناع ، وقال : « هب ان أملى بعيد .. ألا ترى فى مجىء ركن الدين نفعا لنا ؟ .. »

قال مؤيد الدين : « قد يكون حضوره نافعا لنا اذا أحسنا استخدامه .. وليس ثمة الآن مجال للكلام فى ذلك »

فقاطعه قائلا : « ما لى أراك لا تجد مجالا للكلام .. هب انى

وافقتك على رأيك واكتفيت بابدال خليفة بخليفة .. ألا يجوز أن نبحث فى هذا ؟ .. »

قال مؤيد الدين : « يجوز ياصاحبى .. وترانى فى حيرة من أمر هذا الخليفة .. تارة أراه معتدلا يمكن اصلاحه وآونة أقطع الأمل من اصلاحه .. سنفكر فى ذلك »

قال سحبان : « ما رأيك ؟.. على فرض ان المستعصم هذا لم يمكن اصلاحه .. هل ترى الامام أحمد بن الظاهر أهلا ليقوم مقامه ؟ .. »

فبغت مؤيد الدين لهذا الاقتراح لأنه طالما فكر فيه ، ولم يخطر له أحد سوى الامام أحمد أهلا له ؛ لكنه لم يكن ليبوح به لأحد .. فلما سمع اقتراح سحبان أجفل وظهرت البغتة فى عينيه وزادتا لمعانا وقال : « لا بأس منه ، لكنه محبوس فى قصر الفردوس كما تعلم ولا سبيل اليه .. »

قال سحبان : « متى تم رأينا على أمر لايقف الحبس فى طريقنا .. وانما أطلب اليك أن تصرح لى برأيك .. يكفينى منك تكتما .. ان التكتم حسن ، لكنه قد يسبب اخفاق صاحبه .. قل لى .. ألا ترى الامام أحمد أهلا ليقوم مقام المستعصم هذا ؟ »

قال مؤيد الدين : « انه نعم الخلف ، ولكن دون الوصول اليه خرط القتاد ، وسننظر فى الخطوة الأولى .. وأفضّل اصلاح حال المستعصم ، فذلك يغنينا عن التغيير والتبديل .. »

قال سحبان : « وأنا أدعوك الى اصلاحه » وتحفز للنهوض

وقال : « أما تريد أن ترى شوكار وتأذن لها فى تقبيل يدك ؟ »

قال مؤيد الدين : « لابأس من ذلك وان كنت أفضل أن تسرع باخراجها من هذا المنزل »

قال سحبان : « تقبل يدك وتذهب حالا .. » ونهض ومشى ثم عاد ومعه شوكار ، وكانت قد تغيرت سحنتها من فرط ما قاسته من العذاب والهموم .. فلم يفرج عنها الا فى ذلك اليوم حين رأت سحبان وطمأنها على ركن الدين ، وعرفت انه أرسله للتفتيش عنها ، وأصبحت تتوقع سرعة الرجوع الى مصر أو وصول ركن الدين الى بغداد .. فلما دخلت على مؤيد الدين أكبت على يده تقبلها ، وقد غلبها البكاء وبللت كفه بالدموع ، فاجتذب يده من يدها ، وقال : « لابأس عليك يا بنية لا تخافى .. ان أمير المؤمنين لايظلم أحدا ، والا فان الله لايتخلى عن أحد »

فأطرقت برأسها حياء وهى واقفة ، وقالت : « أحمد الله الذى وسّط هذا الشهم فى ايصالى اليك .. وأنا لا أطلب شيئا غير رجوعى الى مصر » وغصّت بريقها ..

فقال مؤيد الدين : « ستعودين بخير ان شاء الله .. » وتحرك من مقعده ونهض ، وأومأ سحبان الى شوكار أن تتبعه وودع مؤيد الدين شاكرا ومشى .. فتبعته ، فأسرع الى اخفائها فى منزل لبعض أهله فى الكاظمية

– ٤٤ –

الدرويش

أما ابن العلقمى : فما أن خلا بنفسه حتى صعد الى الشرفة أو المنظرة ، وقد مالت الشمس الى المغيب ، وتوسد فراشا على مقعد يطل على دجلة وقد تاقت نفسه الى الوحدة والتفكير فيما هو فيه من الأمر العظيم . فلما سمع آذان المغرب نهض للصلاة فى مسجد بالقرب من منزله وهو يتوقع أن يرى فى الصلاة راحة. وليس للمؤمنين فى ساعة القلق أدعى الى الراحة والطمأنينة من الصلاة والدعاء الى الله أن يهديه سواء السبيل وينقذه من المخاطر

أحس مؤيد الدين بحاجته الى ذلك فأسرع الى المسجد ، وأخذ فى الصلاة كالعادة . فلاحظ وهو يصلى شيخا من الصوفية راكعا وراءه وسمعه يتمتم بالصلاة ، فلم يهتم به ثم رآه يزحف نحوه ..

فتجاهل وظل فى صلاته ، لكنه شغل به عنها .. وكدرته وقاحة ذلك الصوفى وظنه مصابا فى عقله . فالتفت اليه شزرا يريد زجره بلطف : فازدجر الرجل برهة وأظهر انه يصلى . فعاد مؤيد الدين الى صلاته ، واستغرق فى التوسل الى الله أن يهديه الى سبيل الرشاد ..

ولما فرغ من الصلاة نهض وتحول نحو الباب ، فوجد أناسا

واقفين للسلام عليه باحترام فحياهم ومشى .. ولما وصـل الى المنزل اذا بذلك الصوفى واقف بجانب الطريق وبيده مسبحة وهو يتمتم كأنه يدعو . فلمـا دنا مؤيد الدين منه تقدم الصـوفى والسبحة فى يده وهو يبتسم وقال : « انى أستطلع الغيب وأنبئك بما تفعله يا مؤيد الدين »

فلما سمع الصوت أجفل لأنه قيل له بلهجة الأمر ، وبأسلوب استشف منه ان مخاطبه غير عربى ، وليس من الفقراء المتسوّلين ، وانه أمر ذو بال تعرّض له فى الطريق على هذه الصورة .. فألقى على الرجل نظرة متفرس ، وتأمل ملابسه ووجهه ، فرأى عليه قلنسوة الصوفية وجبة الصوفية ، وفى يده مسبحة الصوفية ، لكن سحنته غير سحنتهم ، ولحيته غير لحيتهم ، فأجاب قائلا : « من أنت يا رجل ؟ .. »

قال الدرويش : « انى بصير بخفايا القلوب ، أستطيع تفريج الهموم ، وأكشف لك ما خفى عنك ، وأرشـدك الى الطريق السوى . .وان لم تصدقنى فجرب .. »

فأومأ اليه أن يتبعه ، وأشار الى البواب أن يدخله الى غرفته الخاصة ، ودخل هو وقد شغل خاطره بهذا الدرويش ، ومال كل الميل الى الاسترشاد برأيه . وهو يعتقد الكرامة فى أصحاب الكرامات وتمنى أن يكون هذا منهم. وبعد قليل دخل الدرويش وقد أدخل احدى يديه فى كم الأخرى وقبض بالأنامل المطلقة على مسبحة أخذ يعد حباتها ، فأشار اليه مؤيد الدين أن يجلس ،

وسأله اذا كان يحتاج الى طعام . فقال : « لا .. » فأومأ الى الخادم أن يخرج ويغلق الباب وراءه .. ففعل

ثم نظر مؤيد الدين الى الدرويش وتفرس فى وجهه ، فلم يذكر انه يعرفه ولا رأى فى وجهه سحنة التصوف . فقال له : « أرشدنا بعلمك يا شيخ .. »

قال الدرويش : « أرنى يدك مفتوحة .. »

ففتحها وأراه باطنها فنظر فيها مليا ، ثم قال : « انت تفكر فى أمر عظيم الأهمية شـديد الخطر عليك وعلى أهلك وسـائر عشيرتك » ..

فأشار مؤيد الدين برأسه أن : « نعم .. »

فأعاد النظر الى كفه وكأنه يقرأ كتابا مخطوطا .. ثم رفع بصره الى مؤيد الدين ، وقال : « ان المشكلة التى أنت واقع فيهـا يسهل التخلص منها اذا شئت .. »

فقال مؤيد الدين : « وكيف ذلك ؟ .. »

قال الدرويش : « ينبغى أولا أن تنظر الى مصلحة نفسك وقومك .. ولا تتقيد باعتبارات وهمية لا قيمة لها الا عند ضعفاء القلوب .. فهل أنت من هؤلاء ؟ .. »

فاسـتغرب مؤيد الدين اقترابه من الحقيقة بهذه السرعة . وأحب زيادة الايضاح ، فاستل يده من بين أنامل الصوفى وقال : « أخبرنى قبل كل شىء .. ما اسمك ؟ .. »

قال الدرويش : « اسمى رسول أمين الى مؤيد الدين .. »

ففرح لأن ظنه كان فى محله ، أى ان الرجل ليس صـوفيا ، فقال له : « من أرسلك ؟ » قال : « صديق نصوح يريد بك وبأهلك خيرا .. لكنك لا تعرف كيف تنتفع بالفرص التى تتاح لك » قال ذلك فى لهجة شديدة

فعلم مؤيد الدين أن الرجل رسول متنكر ، فقال : « أفصح يا رسول الخير من أين أنت آت ؟ .. لا تتهيب »

فقال : « انى رسول من خاقان عظيم لا يلبث أن يأتى الى بلادكم ويفتحها عنوة .. ولا قبل لكم بدفعه »

فعلم مؤيد الدين انه يشير الى هولاكو التترى .. اذ جاءه منه غير كتاب من قبل يدعوه الى مشايعته على الخليفة المستعصم ، ويعده الوعود الجمة وهو يتردد ويتجاهل .. فقال : «من تعنى؟»

قال الدرويش : « اعنى مولاى الخاقان هولاكو ألا تعرفه ؟.. لقد كتب اليك مرارا يدعوك الى التخلص من هـذا الخليفة الضعيف ، عشير النساء والمغنين ، وأنت لا تجيب . فأمرنى أن آتيك مرشدا ناصحا .. ولا يخفى عليك ان مثلى لا يدخل هذا المدخل ويتعرض لهذا الخطر الا اذا كان قد باع نفسه فى سبيل الحق .. فأنا أدعوك باسم مولاى أكبر السلاطين أن تكون معه على هـذا الطـاغية ، فتخلص أنت وقومك الشيعة من الظلم والعسف ، وتكون لك المنزلة الأولى عند صاحب هـذا البلد حينذاك ..

« لا تكن ضعيفا . مالى أراك مطرقا .. كأن نفسك تحدثك

باعتبارات تقدر لهـا قيمة لا تستحقها .. كأنك تقول فى سرك لا يليق بك أن تخلف ظن مولاك الخليفة فيك .. لعله لم يخلف ظنك فيه .. أنا هنا منذ أيام ؛ وقد اطلعت على ما حدث بينك وبينه وبين ابنه ؛ ورأيتك تتململ وتتذمر ، وانما ينقصك الحزم فتنقذ نفسك وأهلك وعشيرتك ، والا فأنتم هالكون معه لا محالة » وظهر الجد فى عينيه

فأكبر مؤيد الدين هـذا التهديد من رسـول غريب فى بلد عدوه . ولكنه رأى فى وجه ذلك الرسول هيبة وجرأة لا توجدان فى عامة الناس .. على انه رأى من كبر النفس وعزتها أن يثبت فى مبدئه ، فقال : « أهد مولاك شكرى لما عرضه علىَّ وقل له ان طلبه لا سبيل الى اجابته ، وقد رأيته يعرض بعجز هـذه الدولة عن مقاومته .. لقد أخطأ كل الخطأ ، لأن جندنا لا يغلب من قلة ولا من ضعف ، ونحن على ثقة من الفوز اذا نشبت الحرب بيننا وبينه »

— ٤٥ —

الدهشة

فضحك الرجل وقال : « قدمت نفسى اليك بصورة منجّم يقرأ الأفكار ، وها أنا أقرأ فكرك الآن من وراء ما تقول .. انك تقول غير ما تعتقـد ، أنا أعرف كل ما تحاولون اخفـاءه من

اضطراب الجند وفساده فأصغ لهذا النصح .. واعلم أننا لا نكلفك تعبا ولا خطرا ، ولا نطلب منك أمرا عظيما ، ان البلد نحن فاتحوه لامحالة ؛ فاذا توسطت معنا قللت من القتل والفتك.. لأننا نحب أن يقتصر الأذى على من يستحقه ممن تسبب فى هذه الشرور ؛ ولا ذنب للرعايا ؛ وخاصة الشيعة الذين قضوا الأجيال المتوالية وهم يتحملون أنواع العذاب من هؤلاء الخلفاء ، ولاسيما هذا المهذار .. وقد يصعب عليك أن ترجع عما قلته الآن . وزعمته فى الدفاع عن مولاك المستعصم ، فأنا لا أكلفك الرجوع الساعة ولكننى أرشدك الى الصواب وأترك لك الوقت الكافى للتفكير . وأما مولاى الخاقان هولاكو فانه فاعل ما يريده ؛ ولا يلبث أن يأتيكم كتابه بالانذار والتهديد ، فان لم تصغوا الى مطالبه حمل عليكم وفعل ما يشاء . وثق بأنه الغالب الظافر ، فاذا كنت تحب بلدك وأهلك فابعث الى مولاى الخاقان كلمة بأنك على ولائه ، فتنجو وتكون لك الكلمة النافذة والصوت الأعلى .. أظننى أطلت الكلام عليك فاعذرنى » . قال ذلك ووقف ومد يده الى جيبه وأخرج لفافة فى أنبوب من القصب وقدمها له وهو يقول : « وهذه رسالة من مولاى اليك ؛ لا تفتحها الا بعد خروجى .. » قال ذلك وخرج ..

فدهش مؤيد الدين لما شاهده من ذلك الرسول ، وظل ينظر اليه ويرقبه حتى رآه خارجا من باب الدار ، وقد أثر كلامه فيه

تأثيرا شـديدا . وعاد الى غرفته وفض الرسالة وأخذ يقرأ .. فاذا فيها :

« اعلم يا مؤيد الدين أن الرسول الذى خاطبك هو الخاقان هولاكو نفسه ، قد بذل لك النصيحة .. فانتصح ولا تطمع فى تعقبه : فانك لا تجد الى ذلك سبيلا . وكان فى وسعى أن أبقيك على اعتقادك ولا تعرف من هو مخاطبك ، لكننى أحببت نصحك.. فأنظر فى أمرك .. وخشية تهور عملك ، أرسل رسالتك الىّ كما قلت لك قبلا »

فأعاد مؤيد الدين قراءة تلك الورقة وهو ينظر فيهـا ، وقد تولته الدهشة وأوشك أن يكذب بصره وسمعه لغرابة ماشاهده. وأطرق برهة وهو يخاطب نفسه قائلا : « هولاكو نفسه خاقان التتر . وفى خدمته مئات الألوف من الرجال ، لايثق بأحد منهم فى مهماته فيأتى بنفسه متنكرا تحت هذا الخطر حتى يخاطبنى ؟ وكان فى امكانه أن يبعث رسولا ، ولكن الهمة العالية والتيقظ على الملك يدعوانه الى ذلك . لاريب أن هولاكو يعرف أسرارنا كما نعرفها نحن ويعرف عدد جندنا ، وعلاقات قوادنا بخليفتنا . يعرف كل شىء .. أين ذلك من خليفتنا المشتغل باللهو والغناء عن أمور الدولة .. يهمه العثور على شوكار المغنية أكثر من دفع العدو عن بغداد .. هذه علامات الزوال ، وتلك أسباب الفوز . هكذا كان حال الروم حينما قام العرب لفتح بلادهم .. كان خلفاؤنا وقوادنا العظام من الصحابة وغيرهم يتولون أمورهم

بأنفسهم ، لا يعولون على أحد ولا يشتغلون بغير الجهـاد . وكانوا قليلين فغلبوا جيوش القياصرة والأكاسرة .. تلك الأيام نداولها بين الناس ؛ ولكل دولة أجل »

ثم أطرق وتراجع وندم على ما خطر له من العبرة وقال فى نفسه : « لا .. لا .. ان الدولة العباسـية باقية أبد الدهر .. لا تزول من الأرض ، وانما هى فى حاجة الى الاصلاح .. الى ابدال خليفة بآخر »

وكان الليل قد أسدل نقابه ، فوضع تلك الورقة تحت الوسادة وطلب العشاء ، ثم ذهب الى الفراش باكرا ليرتاح مما مرّ به فى ذلك اليوم ، وتوالت عليه الخواطر المتضـاربة ، لـكن ولاءه للخليفة ظل غالبا على عقله .. وكانت ليلته حافلة بالأحلام ، ولم يفق فى اليوم التالى الا على صـوت الأذان وضـوضاء طلبة المستنصرية وهم خارجون لصلاة الضحى

وأحب البقاء فى الفراش لاعمال الفكرة فيما شغل خاطره . والانسان فى الصباح يحسن التفكير .. ويكون تفكيره أقرب الى الصواب من سـائر الأوقات ، فلم يزدد الا ثباتا على ولاء الخليفة ورغبة فى اصلاحه ، فارتاح باله لأنه استقر على رأى .. وليس أتعب على الانسان من التردد بين رأيين . فنهض من فراشه وأخذ فى لبس ثيابه ، ولم يبق فى ذهنه الا مسألة شوكار . وكان يود أن يسلمها الى الخليفة ويتخلص من القيل والقال ، لو لم يحل سحبان دون ذلك وعذره مقبول . فخطر له أن يبعث فى

طلب سحبان ليؤكد عليه التوصية فى اخفاء مكان تلك الفتاة ؛ لكنه توقع مجيئه من تلقاء نفسه

مضى ذلك النهار ولم يبرح مؤيد الدين منزله التماسا للراحة ؛ وقضاء بعض المهام الخاصة ، وجاء الغروب وأقبل العشاء ولم يأته سحبان فهمّ بالذهاب الى الفراش ؛ وقبل أن يأخذ فى نزع ثيابه تذكر الكتاب الذى دفعه اليه درويش الأمس ؛ ورأى أن يتخلص منه لئلا يقع فى يد أحد فيتخذه ذريعة للايقاع به .. فتذكر انه وضعه تحت الوسادة فافتقده هناك فلم يجده ؛ فأخذ يبحث عنه فى جيوبه فلم يقف له على أثر. فخفق قلبه لئلا يكون قد سمع حديثهما أمس جاسوس ؛ وقام بسرقة الكتاب وأعطاه للخليفة

— ٤٦ —

قادم جديد

وبينما هو فى ذلك ؛ اذ سمع قارعا يقرع الباب الخارجى بعنف ، فأجفل ومكث ينتظر الخبر ، واذا بالبواب دخل وهو يقول : « ان سحبان بالباب ومعه رفيق .. هل يدخلان ؟ .. »

فاطمأن باله وارتاح الى قدوم سحبان فى تلك الساعة ، لعله يخفف عنه بعض الشىء ، وأحب أن يعرف من هو رفيقه . ولم تمض لحظة حتى أقبل سحبان وهو يبتسم وألقى التحية . ثم تنحى وقدم رفيقه باحترام وأشار اليه أن يدخل .. فنظر مؤيد

الدين الى ذلك الرفيق فاذا هو ملثم لا يظهر من وجهه الا عيناه وما يحيط بهما .. ورأى السواد غالبا على لونه ، كأنه عبد حبشى ملثم . ورآه يمشى نحوه الهوينى وسحبان واقف باحترام، فاستغرب مؤيد الدين ذلك ، فقال : «من هو رفيقك ياسحبان؟»

قال سحبان : « ستعرفه الساعة ياسيدى » وتقدم حتى أجلس ذلك القادم على كرسى فى صدر الغرفة ، وأشار اليه أن يتفضل بازاحة اللثام ، ومؤيد الدين ينظر اليه من جانب المصباح . فأزاح الرجل اللثام ، وحالما وقع نظر مؤيد الدين عليه اختلج قلبه فى صدره وصاح : « مولاى الامام .. الامام أحمد.. من أين أتيت به يا سحبان ؟ .. » وأكب على يده يقبلها وكان الامام أحمد أسمر اللون لأن أمه حبشية (١)

فضحك سحبان وقال : « أتيت به طوعا لأمرك »

فصاح مؤيد الدين : « ويلك .. متى طلبت اليك احضار مولانا الى هنا ؟..كيف تأتى لك ذلك، وهو محبوس، وعلى قصره الحراس والجواسيس .. ان شئونك كلها غريبة ياسحبان .. »

قال سحبان : « انك لم تطلب الىّ احضاره لأنه لم يخطر لك استطاعتى ذلك . ولكن الحديث الذى دار بيننا أمس يدل على انك تحب أن تراه وتثق من رضاه » ..

فقال مؤيد الدين : « صدقت .. لم يخطر لى على بال ، انك تستطيع ذلك .. وكيف أقدمت على هذا الخطر ؟ .. لله أنت من

(١) تاريخ مصر الحديث ـ الجزء الاول

شجاع مقدام ، وانما ينقصك التؤدة والتبصر »

فقال سحبان : « ما ينقصنى تكمله أنت بحكمتك ودهائك »

وتوجه مؤيد الدين بكليته نحو الامام أحمد ، وكان يومئذ فى ابان الكهولة ، وقد ظهر الهدوء والسكينة عليه .. وجلس بين يديه على وسادة باحترام ووقار وأخذ يرحب به . فتقدم سحبان وقال : « انى رجل متسرع ولا أحب المطاولة أو التسويف ؛ وأكره التردد ؛ وقد أعجبنى منك أمس ثقتك بمولانا الامام أحمد . وان رأيك فيه وافق رأيى بلا تواطؤ ، وهذا دليل على صواب الرأى .. والآن هذا هو صاحب الشأن لم أكلمه فى شيء بعد ، وانما سعيت فى انقاذه من السجن »

فقال مؤيد الدين : « وكيف استطعت ذلك ؟ .. ما هذه الجسارة ؟ .. »

قال سحبان : « استطعته بمعونة الله وعسى أن أستطيع ما هو أهم منه ، وأرى هذا الامام العاقل العادل خليفة يتولى أمورنا بدلا من ذلك الـ .. »

فتصدى الامام أحمد للكلام قائلا : « لا تقل شيئا يابنى .. ان الخليفة المستعصم بالله لا بأس به لولا تسلط ابنه على رأيه ورغبته فى اللهو .. وهذا يمكن تلافيه ، فلا تحولوا قلوبكم عنه .. »

فقال سحبان : « نعم الرجل أنت ياسيدى .. أما خليفتنا فلا أمل لنا فى اصلاحه ولا بد من تغييره ، وهذا مولانا الامام أحمد

أولى بالخلافة منه لأنه أهل لها من كل وجه ، وهو أخو المستنصر رحمه الله (١) ، ولا يخفى عليك ما أتاه المستنصر من الأعمال الشاهدة بحسن السيرة والتقوى والرغبة فى العمران على عكس هذا! .. »

فقاطعه الامام قائلا : « لو علمت أنك جئت بى لأسمع منك ما سمعته لفضلت البقاء فى سجنى .. اننا فى طاعة أبى أحمد المستعصم ابن أخى .. واذا أخطأ فعلينا نصحه وكفى .. »

فلم يستغرب مؤيد الدين حذر الامام وانكاره ، وما ظهر من تسرع سحبان وان كان يعتقد رغبته فى الخلافة أكثر من رغبتهما ؛ وانما هى التؤدة والدهاء وحسن السياسة لابد منها فى مثل هذه الحال . فالتفت الى الامام وقال : « ان صديقى سحبان يعبر بقوله عن شعور كل مسلم .. ولاسيما قومنا الشيعة العلوية فانهم قاسوا فى أيام ابن أخيك هذا مر العذاب مما لايمكن اخفاؤه ، وان كنت لا أرى التسرع فى الأمر الى هذا الحد وعلى هذا الشكل لأننا لم نخط خطوة واحدة فى سبيل ما نحن فيه» والتفت الى سحبان وقال : « أخرجنا مولانا الامام من قصره فأين نضعه الآن ؟.. واذا عرف غدا انه ليس فى قصر الفردوس ، فلن يتهم باخراجه منه سوانا والجند فى يد الخليفة يفتك به كما يشاء ؟ »

فقطع سحبان كلامه قائلا : « لا تخف .. انى أعود به الى قصره الليلة ، وقد دبرت ذلك بحيث لايشعر به أحد . وانما جئت

(١) ابن الساعى ١٢٩

به لتطلعه على غرضنا ، بناء على قولك : انه يقنعنا الآن ابدال خليفة بخليفة . واتفق رأينا آن مولانا الامام أحمد أولى العباسيين بذلك ، وهذا هو .. وها أنت » والتفت نحو الامام وقال : « وأرغب الى مولانا أن يرفع كل حجاب بيننا وبينه ويكفينا مئونة المجاملة والحذر . فاني لا أحب الا الصراحة ونحن الآن نطلب من مولانا أن يجيبنا على هذا السؤال .. اذا استطعنا قلب الحكومة وأردنا تنصيب خليفة ، فانه لا يمكن أن ننصب هذا الغلام ابن المستعصم .. فهل يقبل الامام أحمد أن تسند الخلافة اليه ، وهل يعدنا خيرا ولا سيما من حيث الشيعة ومعاملتهم ؟ »

ورغم ما رآه مؤيد الدين من التسرع فى تصريح سحبان ، فانه وافقه على هذا الاقتراح ورأى الصواب فيه .. وقد أحس أن المشاريع الكبرى تحتاج الى الاقدام والحزم مثل حاجتها الى التروى والتؤدة .. فأطرق وهو ينتظر ما يقوله الامام ، فاذا به يقول : « ان الخلافة يا أولادى اذا أتتنى لا يمكننى التخلف عنها خوفا على مصالح المسلمين . واذا أبيت فانى أرتكب ذنبا أو معصية .. واذا صرت خليفة ، فأول واجب علىّ نشر العدالة وانصاف المظلومين من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، طبعا »

فقال مؤيد الدين : « بارك الله فى مولانا ، واذا وفّقنا الله الى ما نبغيه فانما يكون لصالح المسلمين .. ونشكر لمولانا قبوله القيام بتلك المهمة ، انما أتأسف لأن صديقى سحبان كلّفك مشقة الخروج الينا فضلا عن التعرض للخطر »

فتصدى سحبان قائلا : « لا مشقة هناك ولا خطر ، ويمكن بقاء الامام خارج قصره عدة أيام ، ولا يشعر أحد بغيابه لأنى وضعت فى مكانه رجلا كثير الشبه به . استطعت ذلك بما بينى وبين قيّم ذلك القصر من الصداقة ، وهو راغب فى قلب هذه الخلافة أكثر من رغبتنا .. لأن هذا الخليفة وابنه لم ينج أحد من أذاهما ، كن مطمئنا يا صاحبى .. واذا كنت تخشى من التجسس عليك فها نحن ذاهبان عنك الساعة » وتحفز للوقوف وهمّ الامام أحمد أن ينهض

فنهض مؤيد الدين باحترام وقال : « ان مولانا الامام قد شرّف منزل مملوكه .. وأطلب اليه تعالى أن يمنّ علينا بأن يصير الأمر اليه ويوفّقنا الى القيام بخدمته »

— ٤٧ —

القلق

وخرج الضيفان .. وخرج مؤيد الدين لوداعهما ، ولما عاد الى غرفته عاد الى التفتيش عن رسالة هولاكو فى كل مكان حتى كلّ رأسه وتوالت عليه الأوهام والمخاوف ، لعلمه أن عيون الجواسيس لاتغفل عن استطلاع أخباره ، والوشاية به ، فتولاه القلق وذهب الى فراشه .. فلم يستطع النوم وهو يفكر فى ذلك الكتاب ، وأين هو . وكان يعترض هذه الهواجس تفكيره فى الامام أحمد

وسحبان وهولاكو وما هو فيه من القلق على قومه وعلى نفسه . وتعاظمت مخاوفه على الخصوص وهو تحت الغطاء لأن الظلام يكبّر الأوهام ويعظم الأشباح . وأفاق فى الصباح وقد أخذ التعب منه مأخذا عظيما

ليس على الانسان أشد وطأة من التردد بين أمرين مهمين ، لا يدرى أيهما يتبع .. ويغلب أن يكون سبب التردد تنازعا بين العقل والقلب .. فمتى تغلب أحدهما انتهت الأزمة واستقر الرأى وهدأ الخاطر . وكان مؤيد الدين يتنازعه عاملان ، أحدهما يدعوه اليه عقله وهو ان فساد الحكومة ذاهب بالدولة الى الخراب ولا يرجى اصلاحها الا بابدال الخليفة .. ولا يستطاع ذلك الا بيد قوية قاهرة مثل يد هولاكو . ويخامر هذا الحكم المنطقى شعور قلبى يوحى بالانتقام من ابن الخليفة والثأر للعلويين من أهل السنّة . والثانى يدعوه اليه قلبه أو ضميره اذ يبكّته على هذا العمل ، لأنه خيانة لمولاه الذى أقسم على طاعته

على ان ضياع كتاب هولاكو أثار عاملا آخر شديد الوطأة على قلب مؤيد الدين .. اذ ترجح لديه أن يدا أخذت ذلك الكتاب عمدا ، ولا يلبث أن يصل الى عدوه الذى يتجسس عليه فيجعله حجة عليه ، ويتهمه بالمؤامرة مع أعدائه . ثم تذكر فحوى الكتاب فلم يجد فيه ما يبعث على تهمة المؤامرة ، لكنه يدل على مخابرة جارية بين عدو البلاد ووزيرها

فلما تصور ذلك خيّل له ان الخليفة اذا علم به قد يأمر بالقبض

عليه أو يقتله .. ولا سيما اذا تدخل ابنه أبو بكر فى ذلك ، فلا تبقى له حيلة فى النجاة . فمن الحزم أن يتدبر الأمر ويتلافى الشر قبل وقوعه أو يستعد له على الأقل.. وتذكر ما وعده به هولاكو من الحسنات اذا هو أطاعه وكتب اليـه بالمجىء . فخطر له أن يبعث اليه فى ذلك ، فاشمأزت نفسه من هذا الخاطر. ثم اعترضه ما يهدده من الخطر اذا ظل ساكتا فاشتدت حيرته .. فنهض من فراشه وأخذ يتشاغل بارتداء ثيابه وهو غارق فى التفكير . فغلب عليه الدفاع عن حياته بأن يهم بالكتابة الى هولاكو ، فأمر قيِّم الدار أن يأتيه بغلام من عبيده ، فأتاه بشاب أصـله من رقيق تركستان ، وقد دخل قصر الوزير من عهد غير بعيد وليس فيه ذكاء ..

فلما وقف الغلام بين يديه تفرس فيه ، ثم أمر القيِّم أن يحلق له شعر رأسه ففعل .. وجاء الغلام ورأسه كأنه صفحة بيضاء . وكان ذلك القيِّم قد رُبِّى فى بيت مؤيد الدين ، وله اطلاع على مكنونات قلبه .. وهو شديد الغيرة عليه ، وقد أدرك غرضه من طلب ذلك الغلام على هذه الصورة . فلما عاد به ناداه مؤيد الدين قائلا : « ألم تفهم مرادى ؟ »

قال : « نعم يا مولاى .. انى رهين الاشارة »

قال مؤيد الدين : « ائتى بالابر والكحل وأغلق البـاب وراءك » ..

فذهب وعاد بالابر والكحل وأغلق الباب . وجلس على مقعد ،

وأمر الغلام أن يجثو أمامه بحيث يصبح رأسه بين يديه . ثم تقدم مؤيد الدين وبيده ورقة ، وقد كتب عليها كلمات قليلة ؛ وأومأ الى القيّم أن ينقشها على رأس الغلام بالابر ، ثم يبذر عليها الكحل كما يفعل الوشامون فى ذر النؤور على الوشم . فتناول القيّم الورقة وقرأ فيها : « تعال الينا بقوتك وجندك »

فأدرك انها رسالة الى هولاكو ، وكان من أشد الناس عداوة للخليفة وحاشيته لأنه شيعى ، وقد أصابه شىء من أذاهم فأخذ فى نقش الرسالة على رأس الغلام وهو لسذاجته كالبهيمة لا يفهم شيئا ..

فلما فرغ القيّم من ذلك نظر الى مؤيد الدين وابتسم ، فأشار اليه أن يحتفظ بذلك الغلام سرا ريثما يطلع شعره ويغطى تلك الكتابة حتى اذا ظل على عزمه باستقدام هولاكو ، فما عليه الا أن يرسل الغلام اليه . ويكفى أن يقال لهولاكو ان هذا الغلام قادم من مؤيد الدين فيحلق رأسه ، ويقرأ ما عليه ثم يقتله .. تلك كانت عندهم أسلم وسيلة للمكاتبة السرية فى المواقف الحرجة . فكأن مؤيد الدين كتب الرسالة وأبقاها عنده ريثما يفكر فى أمرها . فاذا رأى العدول عن ارسالها استبقى الغلام عنده وشعره يكسو رأسه .. لأنه كان الى تلك الساعة مترددا ، وضميره غالب على ارادته ، وهو يرجو أن تنصلح الأمور بالمسالمة

وأحس مؤيد الدين فى تلك الساعة براحة ، وعاد الى شواغله وهى كثيرة .. أهمها النظر فى أمور الدولة ، فركب بغلته الى قصر

التاج للنظر فيما جاء به البريد أو ما حدث من الأمور العامة ، وهو يفكر فى أثنـاء الطريق فى الكتاب الضائع ويرقب حركات القوم هناك ليتحقق مما كان منأمره .. فلم يرَ مايبعث على سوء الظن فاطمأن باله ؛ وعاد الى منزله وقد ذهب قلقه

— ٤٨ —

الغرور

مضى على ذلك أيام وهو فى تلك الحال ، وقد نسى أمر الكتاب وهولاكو .. ولم يسمع عن أبى بكر شيئا يسـوءه ، فظن خيرا وتوهّم أن ذلك الشاب رجع عن غيه بعد أن أحس بحرج المركز، والخطر الذى يهدد المملكة بسبب ذلك الانقسام . لكنه أصبح ذات يوم ، وقد جاءه رسول المستعصم يدعوه اليه سريعا.. فركب بغلته وهو يفكر فيما عسى أن يكون سبب هذه الدعوة باكرا .. وتذكر الكتاب الضائع فخشى أن يكون لتلك الدعوة علاقة به ، فتجلّد حتى بلغ قصر التاج .. ودخل على الخليفة وهو جالس فى ديوان الخاصة ، وعنده ابنه أبوبكر والدوادار .. فاستعاذ بالله من ذلك الصباح ، لكنه دخل وألقى السلام

فرد المستعصم التحية ودعاه الى الجلوس . ثم دفع اليه كتابا كان بجانبه على السرير ، فتناوله مؤيد الدين وقرأه واذا فيه :

« من الخاقان العظيم هولاكو سلطان السلاطين الى المستعصم

بالله العباسى . أما بعد : فاننا قد مللنا المماطلة ونحن صابرون . أما آن لك أن ترعوى وتعرف قدرنا ؟ .. بعثنا اليك نستعين بك على الاسماعيلية الفتاكين القتـلة ، ونحن لا نخشى منهم على أنفسنا كما نخشى منهم عليك فأبيت . فدلنا ذلك على سوء رأيك . فبعثنا نعاتبك على عملك فأجبتنا جوابا باردا لا يشفى غليلا ، وشفعته بهدية هى أولى أن تهدى اليك .. كأنك تظن أننا فى حاجة الى المال .. ولم ترسل الينا رسولا يخفف من غضبنا ؛ وقد كنا نقنع منك برسـول عاقل . أما الآن فلا يرضـينا الا أن تأتى أنت بنفسك ، أو ترسل الينا وزيرك أو قائد جنـدك (الدوادار) للاعتذار ، وان لم تفعل فلا تلومن الا نفسك .. والسلام »

وما فرغ من تلاوة الكتاب حتى أخـذ منه الأسف مأخذا عظيما ، ونظر الى الخليفة فرآه مطرقا يفكر .. فظنه قد اعتبر ، ولا يلبث أن يأخذ برأيه فى استرضاء هذا الفاتح التترى .. فاذا هو قد رفع بصره اليه ، وقال : « ماذا رأيت أيها الوزير ؟ »

قال مؤيد الدين : « الرأى لمولاى أمير المؤمنين »

قال الخليفة : « هل أعجبتك وقاحة هذا التترى ؟.. وما جزاؤه عندك ؟ » ..

فلما سمع هذا التعبير تملكته الدهشة ، وشعر ان الخليفة لم يقـدّر مركزه حق قدره .. فقال : « أستأذن مولاى فى أمر لابد لى من التصريح به .. ان هذا الرجل أصبح الآن شديد البطش ، وقد علمنا من جواسيسنا انه فاز فى حروبه مع الفرس وغيرهم .

وأصبح جيشه عديدا وعنده العدة والمئونة ، واذا لم نجبه جوابا حسنا حمل على بغداد .. فالذى .. »

فتعرض أبو بكر للكلام باستخفاف وقال : « يحمل على بغداد ؟ .. وهل اذا حمل عليها ينال غير الخزى والفشل ؟ »

فازداد مؤيد الدين أسفا ولم يجبه ، لكنه وجّه كلامه الى الخليفة قائلا : «فالذىأراه أن نسترضيه ، ريثما نتأهب لمحاربته»

فقال الخليفة : « بماذا نسترضيه ؟.. انه يطلب منى أن أذهب اليه بنفسى أو أرسل اليه الوزير أو الدوادار .. ألم يكن الأفضل أن نتلافى الأمر قبل تفاقمه ؟ »

قال الوزير وقد أعجبه اذعان الخليفة للحقيقة : « كان ينبغى هذا ، ولم يقصّر عبدك فى أن ينصح بذلك فى المرة الماضية حين جاء كتاب هولاكو هذا .. فقد شرحت لمولاى ما أخشاه من هؤلاء ، ورغبت الى أمير المؤمنين أن يبعث اليه بالهدايا الفاخرة من الجواهر والمماليك والجوارى ، فان القوم يرضيهم ذلك .. فاعترض الدوادار يومئذ واتهمنى بالضعف ، وظننى أفعل ذلك ممالأة للعدو . وأطاعه مولاى فأرسلهدية حقيرة أغضبت هولاكو فكتب ما كتب »

وكان الدوادار جالسا ، فلما سمع ذكر اسمه تصدى للكلام قائلا : «أظن أنالوزير يريد منا أن نذعن لهذا الطاغية ونسترضيه بكل ما عندنا .. ولو فعلنا ذلك لم يزدد الا عتوا وطمعا »

فقال الخليفة موجها خطابه الى الدوادار : « وماذا يرى قائدنا

الآن ؟ .. هل يذهب اليه بنفسه كما يطلب ؟ »

قال الدوادار : « نعم .. أذهب اليه محاربا اذا شاء مولاى » قال ذلك وهو يظهر الانفة والعظمة

فاستغرب ابن العلقمى غرور هذا القائد ؛ وهو يعلم عجزه عن ذلك مع فراغ الخزانة من الأموال ، حتى اضطر الخليفة أن يقتصد من أعطيات الجند . وكان مؤيد الدين قد أشار عليه بذلك ليجمع مالا يرضى به هولاكو ؛ لعلهم يعودون بغير حرب .. وكان عسكر بغداد ١٠٠٠٠٠ فارس فأخرج منه ٨٠٠٠٠ ، واستبقى عشرين ألفا والدوادار يعلم ذلك . فهل يحارب التتر بهذا الجند ؟ .. أما الخليفة فلم يكن يجهل هذه الحقيقة .. فأجاب الدوادار قائلا : « كيف تخرج لمحاربتهم وليس عندك الا عشرون ألفا :.. »

قال : « صدق أمير المؤمنين .. ان هذا العدد لا يكفى الآن ، لكننا نجند سواهم »

فقال الخليفة : « هل يسهل التجنيد ؟.. »

قال الدوادار : « كيف لا ؟.. ان المال الذى أشار الوزير باقتصاده من أعطيات الجند يكفى للتجنيد .. سامح الله الوزير ؛ انه أخطأ بذلك الرأى .. ولم نستفد منه الا نقمة الجند علينا »

فأراد الخليفة أن يدافع عن الوزير فتصدى أبو بكر وقال : « وما الذى يهم الوزير رضى الجند أو غضب ، وانما يهمه أن لا يغضب هولاكو »

– ٤٩ –

التهمة

فكان لهذا الكلام وقع شديد على نفس ابن العلقمى . وتذكر كتابه الضائع ، فخشى أن يكون لهذا الكلام علاقة به .. فأغضى عن وقاحة ذلك الشاب وعاد الى مخاطبة الخليفة ردا على كلام الدوادار فقال : « ان ما أشرت به من قبل لا أزال أومن به حتى الآن .. وما جمع لدينا من المال المقتصد ، لو استرضينا به هولاكو لرضى وكفانا مئونة الحرب .. أما الآن وأنت قائد الجند ، فاذا كنت ترى أن جنـــدنا يستطيع الحرب .. فالرأى راجع لأمير المؤمنين » ..

فنظر الخليفة الى ابن العلقمى وقال : « أحب أن أعرف رأى الوزير فيما نحن فيه .. »

قال ابن العلقمى : « رأى المملوك أن نسترضى هولاكو بما أمكن تفاديا للحرب » ..

قال الخليفة : « وهو يطلب أن أذهب أنا اليه أو أنت أو الدوادار » ..

قال ابن العلقمى : « يرسل المولى من شاء منا »

فقطع أبو بكر كلامه قائلا وهو يضحك متهكما : « أظن أن الوزير يتمنى أن يذهب هو فى هــذه المهمة لزيارة صـــديقه الخاقان ؟ » وقهقه ضاحكا

فاستغرب المستعصم هذا القول ونظر الى ابنه نظرة انتهار ، كأنه يوبخه على هذا المزاح . فوقف أبو بكر وأظهر الجد وقال : « اننى أقول الحق يا أبى .. اسأل الوزير ، ألم يكن بينه وبين هولاكو صداقة ومراسلة ؟ »

فأجفل الوزير وترجّح عنده أن أبا بكر مطلع على شيء مما بينه وبين هولاكو . فأظهر اشمئزازه من ذلك الحديث والتفت نحو الخليفة معاتبا ، فالتفت الخليفة الى ابنه وقال : « لا محل لهذا الكلام يا أحمد الآن .. »

فمد أبو بكر يده الى جيبه وأخرج كتابا دفعه الى أبيه وقال : « وهذا الكتاب يشهد بذلك .. »

فتناول المستعصم الكتاب وقرأه .. ثم نظر الى مؤيد الدين ، فرآه مطرقا فقال له : « هل تعرف هذا الكتاب ؟ »

فرأى من الحزم أن يتجلد ، فنظر الى الكتاب وقال : « أعرفه يا مولاى .. وقد كان معى وسرق منى »

فرماه المستعصم اليه وقال : « انه يؤيد كلام ولدنا ويدل أيضا على أن بينك وبين هولاكو تزاورا »

فالتقط مؤيد الدين الكتاب وقال : « نعم ياسيدى .. لكن هل يدل على انى متفق معه على عمل .. أم هو يشكو من رفضى مطالبه ؟.. »

فقال أبو بكر : « ولكن على كل حال يظهر من آخره ان المخابرة بينكما قديمة . ألم يكن يجدر بك أن تطلع أمير المؤمنين

على ذلك . ما أدرانا بما دار بينكما ؟.. والأرجح انك متفق معه على تسليم البلاد اليه وانما اختلفتم فى كيفية تسليمها .. ليس هذا شأن الوزير المخلص لمولاه كما تدعى .. »

فتحير مؤيد الدين بماذا يجيب ، وهمّ بالكلام ، فرأى الخليفة يشير اليه أن يسكت ، وقد ظهر الغضب على وجهه ، ثم قال : « صدق أبو بكر .. لم أكن أتوقع منك ذلك مع ثقتى بك . كان ينبغى أن تطلعنى على ما يدور بينك وبين عدونا قبل الآن .. »

فأراد ابن العلقمى أن يدافع عن نفسه ، فأشار اليه المستعصم أن يسكت وقال : « طالما دافعت عنك وكذبت ما ينقلونه لى ، والتمست لك الأعذار .. أما الآن فيظهر لى أن كلامهم هو عين الصواب ، ولم أفهم لسكوتك عن هولاكو معنى سوى ان لك فى ذلك غرضا أو مطمعا ، ولولا ذلك لأطلعتنى على ما دار بينكما »

فلم يطق مؤيد الدين صبرا على السكوت ، فقال : « لا أرى فائدة من اطلاع مولاى على ما يكدره .. وانما يطلب منى أن أحافظ على ولائه وأدافع عن مقام الخلافة . فهل فى هذا الكتاب ما يدل على خيانة ؟ .. فاذا كان فيه شىء من ذلك فالعبد رهين أمر مولاه » ..

فاعتدل المستعصم فى مجلسه ، وقال : « حسنا .. وهل كان فى مصارحتى بمكان تلك الجارية ما يكدّر أيضا ؟ .. »

فاستغرب مؤيد الدين قوله ، وقال : « أية جارية يامولاى ؟ »

قال المستعصم : « جارية أحمد الذى ذبح أهل الكرخ بسببها .. »

قال مؤيد الدين : « وما شأنها فيما نحن فيه ؟.. »

فقال الخليفة : « ما كنت أظنك تجهل شأنها .. ألم تكن تعلم ان مذبحة الكرخ انما جرت بسببها ، لأن أحمد علم انها مختبئة هناك وأنكروها عليه ؟ »

قال مؤيد الدين : « بلى .. »

قال الخليفة : « وقد قلت لنا يومئذ انك لا تعرف عنها شيئا ؟ » ..

قال مؤيد الدين : « نعم .. »

قال الخليفة : « كيف تقول ذلك وهى مختبئة فى منزلك ؟ »

فأجفل مؤيد الدين عند سماع ذلك وقال : « مختبئة فى منزلى ؟ .. »

قال الخليفة : « نعم .. أو منزل بعض أهلك فى الكاظمية . وقد استرجعها أحمد أمس بهمة الدوادار .. لكن بدون أن يفتك بأحد » ..

فتذكر مؤيد الدين شوكار .. وان سحبان أخذها من عنده ليخبئها فى الكاظمية .. وحين تذكر ذلك سرى عنه ، لأنه سيفوز بها على أبى بكر لعلمه انها جارية المستعصم وقد خطفها أبو بكر لنفسه . فقال وهو يظهر الاستخفاف : « هل أمير المؤمنين واثق مما قيل له ؟ .. »

قال الخليفة : « هذا أحمد ، وهذا الدوادار قد أتيا بها أمس من الكاظميـــة » ..

قال مؤيد الدين : « هل رآها أمير المؤمنين ؟ »

قال الخليفة : « لا .. لم أرها ، ولكننى لا أشك فى صدقهما »

فوقف أبوبكر وهو يظهر الغضب وقال : «وهل أنا كاذب؟»

قال مؤيد الدين : « لا أعلم ، ولكننى أعلم انى غير كاذب . وبما انك وجّهت الى تهمة الخيانة ، فيقتضى ذلك أن تثبت قولك بالبرهان .. فاذا أثبته ، فانى مستعد لاحتمال القصاص »

فقال أبو بكر : « لا حاجة الى اثبات ذلك ، فانه ثابت عندنا جميعا » وجلس وجعل يتشاغل بفتل شاربه ويظهر الازدراء . وقد خشى أن يلح مؤيد الدين فى طلب الجـارية ليراها أبوه فيفتضح أمره . وندم على ذكر هذه الجارية لأبيه ، لكنه لم يكن يعلم ان مؤيد الدين مطّلع على تاريخها ..

— ٥٠ —

الفوز

أما مؤيد الدين فازداد تمسكا بقوله ووجّه كلامه الى الخليفة قائلا : « هل من ضرر اذا أمر مولاى أمير المؤمنين باحضار الجارية لنراها ونطلب شهادتها ؟ »

فقال الخليفة : « لا ضرر من ذلك .. » والتفت الى أحمـــد

وقال : « أين هى ؟ .. » ..

فأظهر الاشمئزاز من ذلك الطلب وقال : « ما الداعى لاستقدام جارية الى ديوان أمير المؤمنين ، وما هى أهميتها ؟ .. »

قال مؤيد الدين : « انها ذات أهمية كبرى .. لأن الوزير متهم بالخيانة والكذب بسببها : فالمطلوب اثبات ذلك عيانا »

فنهض أبو بكر وهو يظهر عدم المبالاة وقال : « ليس أمر هذه الجارية مهمًا : وانما المهم هو كتاب هولاكو ضدنا .. وقد اطلع عليه والدى وكفى » قال ذلك وتحوّل وخرج بلا استئذان وأبوه ينظر اليه .. وقـــد سرّه خروجه لئلا يصــدر منه كلام يسيئــه ، لكنه كان يحب بقـــاءه ليتحقق من أمر تلك الجارية فناداه : « أحمد .. »

فرجع وقال : « نعم .. »

قال مؤيد الدين : « أحب أن تتم البحث فى أمر الجارية .. »

فقال أبو بكر : « لا أهمية لها .. وأنا أسامح الوزير على خطيئته بشأنها » ..

فقال الوزير : « أما أنا ، فلا أسامح نفسى .. أحب أن تأتى الجارية وتثبت الخيانة علىّ أو على غيرى .. وطلبى هذا حق »

فما زاد أبو بكر على أن ضحك ومشى ، وأبوه يتبعه بنظره

أما مؤيد الدين فالتفت الى الخليفة وقال : « هل يأمر مولاى باستقدام الجارية الى هنا ، وهذا الدوادار يعرفها لأنه كان مع الأمير أبى بكر حين أخرجاها من منزل بعض أهلى فى الكاظمية

كما يقول » ..

فالتفت الخليفة الى الدوادار كأنه يأذن له فى الكلام ، فقال مخاطبا الوزير : « وهل أنت فى شك من قول مولانا أبى بكر؟ »

قال مؤيد الدين : « لاشك عنـــدى فى قوله ولا قولك .. لكنى ألتمس من مولاى الخليفة أن يأمر باستقدامها »

فأشـــار الخليفة الى الدوادار قائلا : « لا أرى بأســـا من استقدامها .. فافعل .. »

ولم يكن الدوادار يعرف علاقة هذه الجارية بالخليفة ، ولذلك لم يرَ بأسا من احضارها .. واستغرب انكار أبى بكر ذلك ، وحمله منه محمل الطيش .. فنهض وهو يقول : « أنا ذاهب بأمر مولاى لاستقدام الجارية بدون أن أستأذن الأمير أبا بكر »

قال الخليفة : « افعل » فخرج

وظل ابن العلقمى جالسا يفكر فيما وفق اليه من التغلب على عدوه ، والخليفة مطرق لايتكلم .. ولم يمض كثير حتى عاد الدوادار لأن المنزل الذى وضعوا فيه شوكار كان قريبا من قصر التاج ..

ودخـــل الدوادار ووقف وقفة الظافر وقال : « ان الجارية بالباب هل أدخلها على مولاى ؟ .. »

قال الخليفة : « لتدخل »

فدخلت ومؤيد الدين ينظر الى الباب بلهفة خشية أن يكون قد جاء بجارية أخرى غير شوكار .. فاذا هى شوكار ، فانشرح

صدره . أما شـوكار فوقفت مطرقة فخاطبها الخليفة قائلا :
« ألم تكونى مختبئة فى الكاظمية وجاء بك قائدنا هذا أمس ؟ »
قالت شوكار : « بلى يامولاى .. »
قال الخليفة : « ومن الذى خبأك هناك ؟ .. أصدقينى .. »
قالت شوكار : « وهل يجسر أحد على الكذب فى حضرة أمير المؤمنين ؟ .. خبأنى رجل اسمه سحبان .. »
قال الخليفـة : « ألم يكن الوزير مؤيد الدين هو الذى أخفاك ؟ » ..
قالت شوكار : « كلا يامولاى .. ولم يكن هو يعرف انى مختبئة هناك .. »
قال الخليفة : « ألا تعرفين وزيرنا قبل الآن ؟ »
قالت شوكار : « بلى .. »
قال الخليفة : « وكيف عرفته ؟ .. ومن ذهب بك اليه ؟ »
فتحيرت فى الجواب وتلعثمت لأنها توسـمت من وراء تلك الأسئلة سوءا يريده الخليفة بالوزير ، وهى لم تر من الوزير الا الخير .. ولا تحب مع ذلك أن تقص خبرها على الخليفة ، فارتج عليها . فوقف مؤيد الدين وقال للخليفة : « يتفضـل مولانا بالسؤال عن اسمها ، ومن أين أتت الى بغداد ، وما سبب مجيئها .. »
فقال الخليفة : « وما علاقة ذلك بما نحن فيه ؟ »
قال مؤيد الدين : « سـيرى مولاى ان له علاقة كبرى ،

وسيكشف له عن أمور هامة »

فقال الخليفة : « ما اسمك ؟.. ومن أين أتيت ؟.. ولماذا ؟ »

ففهمت شوكار من تعرض ابن العلقمى لهذا الأمر انه يريدها أن تقول الحقيقة ، فقالت : « اسمى شوكار ، وقد جئت من مصر لأكون مغنية فى قصر أمير المؤمنين »

فلما سمع الخليفة قولها أجفل وخفق قلبه ، اذ ترجح له انها المغنيـــة التى كان قد فقدها ، فنظر الى مؤيد الدين ، ثم الى الدوادار وقد تولته الدهشـــة ، وأعاد السؤال عليهـــا قائلا : « انت شوكار جارية شجرة الدر ؟ .. »

قالت شوكار : « نعم يامولاى .. انى شوكار جارية شجرة الدر ؟ .. »

قال الخليفة : « كنت قادمة الىّ ؟ .. »

قالت شوكار : « نعم .. »

قال : « ومن أخذك منى ؟.. وأين كنت طول هذه المدة ؟.. »

قالت شوكار : « أخذنى ابنك الأمير أبو بكر .. وأنا عنده الى الآن .. »

قال الخليفة : « ألم تكونى أنت الجارية التى حدثت مذبحة الكرخ من أجلها ؟ .. »

قالت شوكار : « أنا تلك الجارية يامولاى .. وكنت قد فررت للنجاة بنفسى .. »

قال الخليفة : « كيف أخذك ابنى وأنت محمولة الىّ ؟ .. »

قالت شوكار : « حين وصلت مع الركب الى قرب بغداد ، جاءنا جند قالوا انهم قادمون من قصر أمير المؤمنين ليأخذونى اليه .. فدفعنى الركب اليهم فأخذونى الى قصر عرفت بعد ذلك انه للأمير أبى بكر .. »

فأخذ الغضب من الخليفة مأخذا عظيما ، وندم الدوادار لأنه تصدى لحمل الجارية الى هناك . وأصبح خائفا على أبى بكر من غضب أبيه .. فوقع فى حيرة ، وأعاد النظر الى تلك الجارية بدهشة . أما مؤيد الدين فظل ساكتا وقلبه يرقص فرحا لفوزه . وأحسَّت شوكار أن انتقالها من بيت أبى بكر الى بيت الخليفة ، فيه تفريج عن نفسها .. وان كانت تفضل الانتقال الى مصر

— ٥١ —

المحبة الأبوية

أما الخليفة فلما تحقق من الواقع صفق فجاءه غلام ، فأومأ اليه أن يأخذ شوكار الى قصر التـاج ويسلمها الى القهرمانة ويوصيها بها خيرا . والتفت الى الدوادار وقال : « قد سمعت الآن ان الذين أعانوا أحمد على هذه الجريمة هم من الجند . هل يليق ذلك بالجنود ؟ .. أليست هذه خيانة منهم ؟ .. »

فاعتبر الدوادار هذا التوبيخ موجها اليه لأنه القائد العام ، فاضطر للدفاع عن نفسه أن يشكو ابن الخليفة ، فقال : « لم

يفعل الجند ذلك بأمرى ، وانما فعلوه بأمر الأمير أبى بكر.. وهل نستطيع أن نخالف له أمرا ؟ .. »

قال الخليفة : « كيف لا ؟ .. أتطيعون ابنى فى سبيل معصيتى وأنا ما زلت على قيد الحياة ؟ .. »

وتحرك فى مجلسه من شدة الغضب ، وأخذ يلهث وينفخ ويصر على أسنانه ، فخيّل لمؤيد الدين أن أبا بكر لوكان حاضرا لأمر الخليفة بقتله . وود لو انه يحضر ، واذا بالخليفة يقول للدوادار : « أين أحمد الآن ؟ .. »

قال الدوادار : « لا أعلم يامولاى .. »

قال الخليفة : « الىّ به حالا أينما كان .. »

فخرج الدوادار ، ونظر الخليفة بعد ذهابه الى مؤيد الدين نظرة اعتذار لأنه شك فيه ، وقال : « لقد أسأنا الظن بك ياوزيرنا .. جوزيت خيرا .. لماذا لم تطلعنى على خبر هذه الجارية من قبل ؟ » ..

قال مؤيد الدين : « لأنى لم أعرف الحقيقة الا منذ أيام قليلة ، وقد قلت للذى قص علىّ خبرها أن يخبئها فى مكان أمين ريثما نطلع أمير المؤمنين على أمرها فى فرصة مناسبة لايدرى بها الأمير أبو بكر .. لأننا لو أردنا أن نفعل ذلك بعلمه لما نجونا من الأذى ، وهو ابن أمير المؤمنين والجند طوع ارادته »

فهز الخليفة رأسه وقال : « إنا لله وانا اليه راجعون . نعم .. انى أخطأت باطلاق سراح ابنى هذا ، ولو كان محجورا عليه كما

كان الأمراء قبله ، لم يصبح بمثل هـذه الأخلاق .. ولا جرَّ علينا هذه البلايا ، سوف أحبسه وأحجر عليه ، وأعلمه كيف يكون مطيعا .. قبحه الله من ابن عاق »

وبينما هما فى ذلك ، اذ سمعا ضوضاء بالباب عرفا منها صوت أبى بكر وهو يقول بلهجة الغضب : « أما كفاه من فى داره من النساء حتى طمع فى جاريتى ، دعنى أدخل » واذا بالحاجب قد دخل وهو يقول : « ان مولانا أبا بكر ابن أمير المؤمنين بالباب ، هل يدخل ؟ .. »

فقال الخليفة : « هل جاء وحده ؟ .. »

قال الحاجب : « نعم .. »

قال الخليفة : « وكيف ذلك ؟.. أليس الدوادار معه ؟.. »

قال الحاجب : « كلا .. »

ولم ينتظر أبو بكر الاذن له فى الدخول ، فدخل والغضب باد على محياه وهو لايتمالك عن الارتعاد

فلما رآه أبوه داخلا استعاذ بالله ، وابتدره قائلا : « ما هذا يا أحمد ؟.. أهكذا يدخلون على أمير المؤمنين ؟.. أين التربية ووقار الخلافة ؟ .. »

فجلس ولم ينتظر الاذن له بالجلوس وقال : « تسألنى عن التربية وأنا ابن أمير المؤمنين وقد ربيت فى حجره . ولعل ذلك كان من أسباب شقائى .. يحسدنى الناس لأن الخليفة أبى ، ولو علموا كيف يعاملنى لأشفقوا علىَّ .. » قال ذلك واختنق صوته

كأنه يجهش بالبكاء ..

قلما سمع المستعصم اجهاشه ، ولاحظ شيئا يتلألأ فى عينيه كالدمع خمد غضبه وتغلب حنانه .. وان لم يكن هناك ما يدعو الى الحنان والاشفاق .. ان المحبة الأبوية لا تذعن للحقوق ولا تعترف بقواعد المنطق ولا تطلب البراهين .. وانما هى حاكم مستبد أكثر أعماله لا تنطبق على القوانين ، وكثير منها يناقض المنطق ويخالف أحكام العقل .. الأب يحب ابنه ويغار عليه ويرى فيه حسنات لايراها الآخرون . وهو لا يحبه لأنه يرجو منه نفعا أو لأنه يستحق المحبة لفضائل فيه أو حسنات أتاها . وانما يحبه عفوا .. يحبه لأنه ابنه ، ويزداد حبه له كلما شقى فى تربيته .. ويزداد عطفه عليه اذا رآه حزينا . ان الوالد (أو الوالدة) ليس أدعى الى تحريك شفقته من أن يرى ابنه باكيا وان كان فى أشد حالات الغضب ، كأن دموعه تقع على نار ذلك الغضب فتطفئها ، ويتصاعد دخانها فيغشى ما هناك من دواعى النقمة ، فلا يرى غير بواعث الشفقة والعطف

وكان المستعصم من أضعف الآباء قلبا وأكثرهم حنانا ، فأوشك أن ينسى أسباب غضبه على ابنه ، لكنه تجلد وقال : « هل بمثل هذا تخاطب أباك ..؟ هل يحق لك الشكوى من أبيك وقد منحك ما كان يشتهيه أبناء الخلفاء قبلك ؟.. كانوا مسجونين وأنت طليق ولك الأمر والنهى .. ألم تر الدوادار ؟..»

قال أبو بكر : « لا .. لم أره .. لكنهم قالوا لى انه أتى قصرى

وحمل جاريتى فلم أطق الصبر على ذلك ؛ فجئت لأشكو اليك عمله .. فاذا أنت تمن علىّ بالحرية التى وهبتنى اياها .. وأية حرية هـــذه وقـــد ضننت علىّ بجارية مع كثرة الجوارى فى قصرك .. ولكن .. »

فقطع المستعصم كلامه قائلا : « لم أضن عليك بجارية ، لكننى عتبت عليك لأنك اختطفت جارية آتية من مصر باسمى .. »

فقال وهو يحول وجهه استخفافا : « آتية من مصر باسمك ؟ انك لا ترى بأسا من اقتناء مئات الجوارى وتبعث فى طلبهن من الأطراف . وأما ابنك الشاب اذا أخذ جارية منهن اتهمته بالعقوق وشددت النكير عليه .. لو كنت ابن أحد العامة ، لم يفعل أبى معى فعل أمير المؤمنين» . قال ذلك وغص بريقه ، وأظهر أن صدره ضاق من الاجهاش ؛ وانه انما يمسك نفسه من البكاء حياء ؛ ثم قال : « ومع ذلك فأنت أمير المؤمنين ، ولك الحق فى أمور ليس لسواك الحق فيها.. ونحن عبيدك ، وكل ماهو لنا طوع ارادتك . ولايزال عندى بضع جوار أخر ؛ فابعث الدوادار ليحملهن اليك. ليتك أبقيتنى أسيرا ، ولم تُرنى نور الحرية.. ان المولود فى الظلمة لايعرف لذة النور ولا يأسف لفراقه ، واذا كنت قد ندمت على اطلاق سراحى فها أنا بين يديك فاحبسنى أو اقتلنى . والقتل خير لى لأنى أريحك من المتاعب» وأظهر انه لم يعد يستطيع التماسك عن البكاء ، وأخذ فى الشهيق وأوشك أبوه أن يشاركه فى ذلك

أما مؤيد الدين فكان جالسا وهو يسمع ويرى ، وقد أدهشه

ما رآه من الانقلاب فى عواطف المستعصم .. كيف تحوّلت نقمته الى حنـان واشفاق .. فذهب فرحه بالفوز عبثا ، لكنه اكتفى بالنجاة من الغضب وود الخروج من ذلك المجلس ، ولم يستحسن الاستئذان .. ولا يجوز له أن يستأذن قبل أن يرى الخليفة راغبا فى صرفه على عادة الخلفاء والملوك . فأخذ يتحرك فى مجلسه ليوجه التفات الخليفة الى صرفه ، وقد يكون أكثر رغبة منه فى ذلك ..

— ٥٢ —

رد الفعل

لكن حركته لفتت انتباه أبى بكر ، فتحوّل نحوه وعاد الى الكلام فقال : « أنا لا أشك فى حنان والدى .. ولكن اللوم كله على هذا الوزير الذى شب على كرهنا لأنه علوى ولا يرى لنا الحق فى الخلافة » ووجّه خطـابه الى أبيـه قائلا : « وانى لأستغرب صبر والدى على رجل يكرهنا ويسعى فى خلع خلافتنا ويخابر ألد أعدائنا سرا .. وأغرب من ذلك انه صدق دفاعه عن نفسه ».. ومدّ يده الى كتاب هولاكو ، وكان لايزال فى يد مؤيد الدين فاختطفـه منه بخشونة وفتحه ، وقال وهو ينظر فيه : «صدق دفاعه وظنه بريئا من التواطؤ مع عدونا ، وهو يقول له فى هذا الكتاب انه صديقه ويشير عليه بارسال الرسالة كما قال له

قبلا .. ألا يدل هذا على حديث سابق فى شأن هذه الخيانة ؟..
ومع ذلك فان قول ابن العلقمى العلوى مصدق وقول المسكين
أحمد مكذب » .. وعاد الى البكاء ..

فتفطر قلب أبيه لبكائه وهو ضعيف الرأى كما علمت : فقرأ مؤيد الدين فى وجهه الانصياع الى رأى ابنه فأسقط فى يده .. وتحقق أن سعيه ذهب عبثا .. وود لو انه يختفى من تلك الجلسة لئلا يسمع تأنيبا من الخليفة نفسه . فاذا هو يقول : « سأنظر فى أمر أحمد والجارية فى فرصة أخرى . أما من حيث مخابرة العدو فقد صدق أحمد يا مؤيد الدين . كيف صبرت على مخابرة ذلك العدو مدة ولم تخبرنا .. نعم انى واثق فى أمانتك ، ولكن للثقة حدودا تقف عندها .. لا .. لا .. لا أزال على ثقتى بك وان خالفنى أحمد .. انه قال ما قاله الآن عن غضب .. »

فقطع أحمد كلام أبيه قائلا : « لا .. لا أقول عن غضب .. أنت تعرف عدم ثقتى فى هذا الوزير من قبل ، وقد تأكد ظنى فيه اليوم ... »

فلم يشأ الخليفة أن تنتهى الجلسة على هذه الصورة لأنه يؤمن بكفاية وزيره ، ويرى نفسه فى حاجة اليه .. لكنه لم يستطع أن يغالب عواطفه الأبوية ويجادل ابنه فأحب أن يغلق باب الكلام . فأبدى اشارة الانصراف ، فوقف مؤيد الدين واستأذن فى الانصراف ، وهو ساكت يفكر ..

خرج وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما حتى أخطأ الطريق

من الديوان الى موقف الدواب ، حيث كان غلامه فى انتظاره ، ثم انتبه لنفسه فركب بغلته وسار قاصدا منزله ، وهو لايرى طريقه لشدة ما جاش فى خاطره من الأسف واليأس والخوف . وتضاربت خواطره بين الانتقام والتريث حتى وصل الى المنزل ، فاستقبله قيم الدار على جارى العادة ، فلما وقع نظره عليه تذكر المملوك الذى كتب الرسالة على رأسه فسأله عنه ، فقال : « هو فى حجرتى .. »

قال مؤيد الدين : « كيف شعره ؟ .. »

قال : « قد نما حتى كسا رأسه ، واذا شئت أتيتك به الساعة .. »

قال مؤيد الدين : « حسنا » ومشى الى غرفته وهو يفكر وخاطره مشتغل بما مرّ به فى ذلك اليوم ، وكلما تصور أبا بكر واحتقاره اياه يهب جسمه هبة يرافقها قشعريرة ..

فجلس على سريره وهو مطرق ، واذا بالقيم قد جاءه ومعه ذلك الغلام يساق كالبهيمة .. وليس فيه من علامات الانسانية الا شكله الخارجى ونطقه اذا تكلم . فلما رآه مؤيد الدين نظر الى رأسه فرأى شعره قد نما وتكاثر ولم يبق شىء ظاهر من جلده . فتفرس فى رأسه وهو يقول فى نفسه : « ان تحت هذا الشعر رسالة اذا بلغت الى صاحبها أقام الدنيا وأقعدها ، وانتقم لى من ذلك الغلام.. وما علىّ اذا أنا أرسلتها الى هولاكو؟.. ان الرجل قادم علينا لا محالة ، وهو فاعل ما يريده .. ولاريب عندى

بفوزه ، فاذا أرسلت اليه دعوتى هذه على رأس هـذا التركى ضمنت حياتى وحياة من أحب من أهلى وأصدقائى . ولو علمت اننا نستطيع دفع هولاكو ورجاله . لم أكن أبالى بجهالة هـذا الغلام واستخفافه .. بل كنت أدافع عن أمتى وبلدى وأغضى عن ضعف الخليفة وطيش ابنه .. ولكن أنى لنا أن ندفع التتر ، وليس عندنا الآن الا عشرون ألفا من الجند ، قلوبهم متفرقة ونياتهم متناقضة .. اذن .. » ووضع سبابته على ذقنه كما يفعل المتأمل ، ثم رفع بصره الى قيم القصر وقال : « أرسل هـذا الغلام فى المهمة التى تعرفها .. »

فخفق قلب القيم فرحا لأنه كثير الرغبة فى الانتقام من الخليفة ، فنادى الغلام اليه فتبعه . فلما خلا به أفهمه ان مولاه الوزير يريد منه أن يذهب الى هولاكو خاقان التتر ، ويقول له انه قادم من وزير بغداد وكفى .. ومتى عاد نال المكافأة الكبرى ، ففرح الغلام ومشى كالشاة التى تساق الى الذبح ..

— ٥٣ —

شوكار فى دار النساء

أما شوكار فذهبت مع غلام الخليفة الى دار النسـاء رغم ارادتها .. لكنها كانت تفضل أن تكون هناك ، على أن تبقى عند أبى بكر . وكانت قد قضت مدة وجودها عنده وهى فى حرب

دائمة معه .. لأنه يريدها لغير الغناء وهى تأبى ذلك ، ولاسيما بعد أن جاءها كتاب ركن الدين مع الخصىعابد البصرى رسولها اليه .. لأنه كتبه وهو غاضب من سعاية سلافة فى شوكار .. ولم يكن سعيها الا ليزيده تمسكا بحبها ، فكتب اليها كتابا ضمنه العطف عليها والوعد بانقاذها ، فجاءها الرسول بالجواب المذكور وهى فى حوزة ابن الخليفة . واحتــالت حتى أدخلت عابدا فى خدمتها ، لعلها تحتاج اليه فى شىء بعد أن اختبرت أمانته . وهو الذى أعانها على الفرار الى الكرخ ، وجرى بسبب فرارها ما جرى من القتل والنهب .. وخرج معها الى الكاظمية ، وحين استرجعها أبو بكر الى منزله كان عابد لايزال فيه .. ثم بعث المستعصم فى طلبها ، فجاءت وحدها .. وأمر الخليفة بارسالها الى دار النساء ..

وقبل وصولها الى الدار بلغ أهل القصر ان الجارية المغنية التى كانت مرسلة الى الخليفة واختطفها اللصوص قد وجدت ، وجىء بها الى قصر التاج ، وانها قادمة الآن الى دار النساء .. فلا تسل عمن تجمع لمشاهدتها من الرجال والنساء .. والنساء أكثر ميلا الى ذلك من الرجال . وكان فى قصور النساء هناك مئات من السرارى والجوارى على اختلاف الطبقات والأغراض . فجاء كثيرات منهن الى قهرمانة القصور يستوضحن ما سمعنه عن شوكار . وقد اختلفت الروايات فى شكل هذه الجارية وطول قامتها أو قصرها ، ودرجة رخامة صوتها ، وغير ذلك مما تصوره

المخيلة فى مثل تلك الحال ..

وكان أكثر النساء اهتماما بأمرها المغنيات ؛ لأن شوكار قادمة لمناظرتهن فى أسباب رزقهن .. فاجتمعن وتحدثن فى أمرها وما وصلهن من الأقاويل عنها .. مما هو طبيعى فى الناس . ولاسيما فى ذلك العصر ، وخصوصا بين نساء لا عمل لهن سوى أمثال هذه الأحاديث .. اذ لا يشغلهن عن ذلك كتاب ، ولا جريدة ، ولا مجلة ، ولا مدرسة ، ولا خطاب ، ولا اجتماع علمى أو أدبى مما قد يشغل نساء هذا العصر .. وانما همهن التسابق فى التبرج لاجتذاب قلوب الرجال ..

وأول من لقيته شوكار هناك أستاذ الدار «رئيس الخصيان» أخذوها اليه وهو متصدر فى غرفته ، فقبلت يده ووقفت باحترام تنتظر أمره .. وهو الآمر الناهى فى تلك القصور ، وقد رأيت انه ذو رأى مسموع فى الشئون السياسية .. كما كان شأن بعض أغوات يلدز فى زمن عبد الحميد . وبعد أن قدمت نفسها لأستاذ الدار ، وسأل عن اسمها وعمرها ويوم وصولها ، وسائر الأوصاف المميزة لها ، أمر بتدوين ذلك فى أماكنه لئلا يختلط أمر النساء بعضهن على بعض لكثرتهن .. وقد تتشابه الأسماء ..

ثم أخذوها الى قهرمانة الدار، وهى كهلة رهلة .. وقد تراكم اللحم على بدنها مثل تراكم المصوغات والمجوهرات حول عنقها وزنديها .. وعليها أفخر الملابس ، وهى فى تلك الدار كالملكة ، ليس بين الجوارى والسرارى من لا يتزلف اليها ويخطب رضاها

بالمحاسنة والمجاملة والهدايا .. مشت شوكار نحو غرفتها ، وهى مطرقة حياء لكثرة من لقيتهم فى طريقها من الخصيان والجوارى ، وقوفا فى الدهاليز والأبواب يتفرسون فيها ويتهامسون عنها . فلما أقبلت على غرفة القهرمانة رأت الخصيان ببابها كالحراس بأبواب الملوك .. فدخلت تلك الغرفة ، وتلفتت لتتعرف الوجوه فعرفت القهرمانة من مجلسها وملابسها الفاخرة .. فتمشت نحوها حتى اذا دنت منها أكبّت على يدها تقبلها .. فقبّلتها القهرمانة وأمرتها بالجلوس الى جانبها . وأخذت ترحب بها بعبارات مألوفة فى مثل تلك الحال ، لو تليت على انسان لم يألفها لظن قائلها أشد الناس مودة له وتفانيا فى مصلحته ، لكنها على طول التكرار أصبحت لا معنى لها .. أو أن لها معنى يناقض حقيقة المراد بها

فاستأنست شوكار ونظرت الى ما فى تلك الغرفة من الرياش الفاخر ، وتأملت حال أهـل ذلك القصر من الرخاء والنعيم ، فأوشكت أن تؤثر البقاء هناك على أن تعود لركن الدين .. ثم ناداها قلبها فأصغت الى ندائه ولسان حالها يقول : « ليست السعادة بالرياش والمجوهرات ، وانما هى فى الحب » ثم سمعت القهرمانة تنادى أحد الخصيان وتأمره أن يهيىء لمغنية الخليفة غرفة تجتمع فيها كل أسباب الراحة . والتفتت الى شوكار وقالت : « تمكثين هنا ريثما تتهيأ الغرفة كما يليق بك .. انى فى انتظار قدومك منذ مدة طويلة ، وقد شغل بالنا خوفا عليك ، فنحمد الله على سلامتك .. »

فأجابتها شوكار شاكرة وقالت : « انى لا أستحق هـذا الاهتمام ياسيدتى .. ما أنا الا جارية حقيرة »

فأجابتها القهرمانة (أو القيمة) وهى تضحك : « أنت تظنين اننى لا أعرفك قبل الآن .. ولكنى أعرفك من عهد بعيد وأعرف كل شىء عنك .. عرفت ذلك من صديقتى قهرمانة الملك الصالح صاحب مصر ــ رحمه الله ــ أتعرفينها ؟ .. »

فتذكرت سـلافة وما بينهـا وبين سيدتها شجرة الدر من المنافسة . ولم تكن تعرف لها هـذه المنزلة لدى قيمة قصـور الخليفة فقالت : « أظنك تعنين سلافة .. نعم أعرفها ياسيدتى ، ولم أكن أظنها تعرفنى »

قالت القهرمانة : « بالعكس .. انها تعرفك جيدا وهى التى لفتت انتباهى الى رخامة صوتك وانك تليقين بمجالسة مولانا أمير المؤمنين .. فأشرت على مولانا باستقدامك ، فطلبك من سلطان مصر كما تعلمين .. »

فأحست شوكار بفضل سلافة عليها ، وان كانت هى تفضل الخروج من ذلك التصر ، لكنها نظرت فى الأمر من حيث قصدها فقالت : « فى الحقيقة ان حسن ظن السيدة سلافة منّة كبرى يجب أن أشكرها عليها ، ولوعرفت ذلك لشكرتها وأنا فى مصر»

قالت القهرمانة : « ويمكنك أن تشكريها هنا .. »

قالت شوكار : « وهل هى هنا الآن ؟ .. »

قالت القهرمانة : « هى هنا منذ بضعة أيام .. »

— ٥٤ —

سلافة

فاستغربت هذه المصادفة ، وظهر السرور على محياها ، وسبق الى ذهنها حسن الظن .. وتصوّرت ان وجود سلافة هناك سيكون أكبر تعزية لها ريثما تستطيع العودة .. وخيّل لها ان سلافة ستكون عونا كبيرا لها فى ذلك ، فقالت : « لله ما أسعد حظى .. أين سيدتى سلافة ، أحب أن أقبل يدها وأشكر لها صنيعها »

قالت القهرمانة : « سترينها بعد قليل ، وقد سألت عنك ساعة وصولها من مصر ، فأخبرتها عن قصتك فتأسّفت .. ولما جاءتنا البشارة الآن بوجودك أخبرتها ، ففرحت فرحا عظيما وهى آتية الساعة .. هذه جاريتها قادمة .. أين سيدتك يا أقحوانة ؟ .. »

فأجابت الجارية : « انها فى غرفتها يا مولاتنا .. وقد بعثتنى لأدعو القادمة الجديدة اليها لتتمتع برؤيتها.. فانها فى شوق اليها »

فضحكت القهرمانة حتى ظهرت بقايا أسنانها ، وما يتخللها من الفراغ فى أماكن الأسنان المخلوعة ، وقالت : « هل تريد أن نرسلها اليها لتراها قبل أن يراها أمير المؤمنين ؟ .. »

فقالت الجارية : « هذا ما قالته مولاتى .. والأمر لك .. »

قالت القهرمانة : « لا بأس .. ان ضيفتنا شوكار ذاهبة معك لرؤية صديقتنا سلافة لأنها فى شوق لمشاهدتها وتقديم شكرها

لها .. وقولى لها ان لا تطيل الحديث معها ؛ اذ بعد قليل لابد من ارسالها الى الماشطة لاصلاح شأنها ، بحيث يليق بها الجلوس بين يدى مولانا الليلة لسماع صوتها الرخيم . ولا أظنه يصبر على الانتظار الى الغد .. قومى يا شوكار الى سلافة ؛ ويجب أن تستأنسى بنا وتثقى بى فانك كاحدى بناتى .. »

فنهضت شوكار ؛ ومشت فى اثر الجارية اقحوانة ، وهى تمر من دهليز الى دهليز والغرف الى الجانبين . وشعرت ان فى تلك الغرف أناســا يتشــوقون الى رؤيتها .. نعنى الجوارى أو السرارى ، فكانت ترى الأبواب بين مفتوح ومشقوق ، والرءوس تطل لمشاهدة الفتاة المارة ، ثم ترجع خلسة .. حتى وصلت الى غرفة سلافة فتقدمتها أقحوانة وأخبرت سيدتها بمجىء شوكار ..

فلما أطلت شوكار على مجلس سلافة تصاعد الدم الى وجهها خجلا وفرحا ، لأنها تشعر بأن هذه السيدة أرادت الاحسان اليها بارسالها الى بيت الخليفة وان كان ذلك لم يوافق رغبتها .. فلما شاهدتها سلافة مقبلة نهضت لها ، وتقدمت لاستقبالها ببشاشة وترحاب زادا الفتاة خجلا .. لأنها تعرف منزلة تلك السيدة فى قصر الملك الصالح بمصر وقصور المستعصم فى بغداد . فأكبرت تواضعها وعطفها وأكبت على يدها تقبلها .. فمنعتها من ذلك ، وهى تقول : « مرحبا بالعزيزة شوكار ، وأشكر الله لأنه أرانى اياك فى هذا القصر ؛ فلطالما تمنيت لك هذه السعادة . هل أنت مسرورة ياشوكار ؟ » وأومأت اليها أن تجلس على وســادة

بجانبها والقاعة مفروشة بأحسن الرياش

فجلست شوكار وهى تقول : « أشكر لك غيرتك وفضلك ياسيدتى .. انى فى سعادة والحمد لله .. و ... »

فقطعت سلافة كلامها قائلة : « ولكن ساءنى انهم اختطفوك فى أثناء الطريق : واليوم عرفت سبب ذلك فالحمد لله على سلامتك .. كم أنا مسرورة بلقائك .. ومهما يكن من حظوتك بالمجىء الى بغداد والاقامة فى دار الخليفة ، فان الخليفة أكبر حظا منك فى الظفر بمغنية ليس فى العراق ولا مصر أرخم صوتا منها .. »

فلم يسع شوكار الا اظهار الامتنان والثناء على هذه النعمة ، فأطرقت وعيناها تنطقان بالشكر ، وقلبها ينكر ذلك الفضل .. لأنها كانت تود البقاء بقرب ركن الدين ولو فى سجن ، على وجودها بعيدة عنه فى قصر الخليفة ..

ولم تكن سلافة تجهل ذلك ، لكنها خاطبتها بما ينتظر سماعه منها .. لأن شوكار لم تكن تعلم شيئا مما دار بين حبيبها ركن الدين وهذه المرأة ، ولو علمت الغرض الذى حملها على المجىء الى بغداد لاقشعر بدنها وكرهت النظر اليها .. تركنا سلافة بمصر آخر مرة وركن الدين واقف بدارها وقد أغضبها لأنه لم يطعها فيما أرادته منه . وأراد الخروج الى منزله وهو يشكو النوم فتركته واقفا ومشت بعد أن رمته بنظرة كالسهم وقالت : « سر فى حراسة الله .. سر الى فراشك أيها الأمير ، ولا تظن

ان فشلى هذا سوف يذهب هباء .. »

قالت ذلك يومئـذ وقد ثارت نقمتهـا عليه وغيرتها منه ، وانقلب حبها الى بغض .. وعزمت على الانتظار ريثما يرجع الى صوابه ويتحول عن حب شـوكار والا عمدت الى أذاه . وما زالت تبث الجواسيس لاستطلاع مقاصده حتى تأكد لها عزمه على السفر الى بغداد .. فأسرعت اليها لتتابع أخباره ، وترى ماذا يكون من أمره .. وكانت قد سمعت بفقدان شوكار ، فلما عادت ووجدتها على قيد الحياة أخذت تفكر فى حيلة أخرى .. وهى تعتقد ان وجود هذه الفتاة على قيد الحياة يقف فى سبيل غرضها ، وقد ذكرنا من أخلاق هذه المرأة اقدامها على عظائم الأمور ، بغير دهاء أو تدبير يضمن نجاحها .. اذا خطر ببـالها أمر أقدمت عليه بكليتها ..

فلما سمعت شكر شوكار لها وتأكدت من سلامة نيتها ، وانها لا تعلم بما دار بينها وبين ركن الدين استسهلت تنفيذ بغيتها . فأظهرت انها مسرورة جدا بلقائها .. وخطر لها ان شوكار قد تفضل البقاء فى دار الخليفة على الزواج بركن الدين ، فأحبت ان تستطلع رأيها فى ذلك ، فقالت لها : « يظهر انك نسيت مصر وأهلها .. صدقت .. ان المقيم فى هـذه القصور وبجوار أمير المؤمنين لا تخطر مصر بباله » قالت ذلك وجعلت تلاحظ ما يبدو منها ، فتحيرت شوكار بماذا تجيبها . والمحب حريص على سره لا يفشيه الا لمن يؤمن باخلاصه وصـدق مودته ، وسبق الى

ذهنها ان سلافة تحبها بدليل انها سعت لها فى هذه النعمة بما لها من النفوذ فى تلك الدار .. فتصورت انها اذا شكت اليها حقيقة حالها ربما ساعدتها على التخلص من بغداد والرجوع الى مصر ، فترددت فى الجواب وظهر التردد فى عينيها . ولاحظت سلافة ذلك عليها ، فقالت لها : « ما بالك لا تتكلمين ياحبيبتى . قولى .. يظهر انك تستحين منى أو لا تثقين بى .. »

فخجلت شوكار من هذا التوبيخ وقالت : « كلا ياسيدتى .. انى أقدّر تنازلك حق قدره ، ولولا حبك لم تسعى لى فى هذه السعادة .. ولكن .. » وسكتت

فقالت سلافة : « ولكن ماذا يا شوكار ؟.. ألم أقل لك انك لا تثقين بى ؟ »

قالت شوكار : « العفو ياسيدتى .. لكننى أستحى أن أقول ما فى خاطرى لئلا تضحكى منى .. »

قالت سلافة : « أضحك منك ؟ .. قولى »

فأطرقت وقد توردت وجنتاها ، وجعلت تتشاغل بطرف جديلتها تلفها على سبابتها ، وقالت : « ان الاقامة فى هذه القصور تشتهيها كثيرات ، وربما حسدنى عليها كثيرون ، لكننى أفضل الرجوع الى مصر »

فأظهرت السذاجة والدهشة ، وقالت : « ترجعين الى مصر ؟ وماذا تركت هناك ؟ .. الا أن تكونى مخطوبة لأحد .. وحتى هذا فانك تجدين بدلا منه فى بغداد .. واذا سمع الخليفة

غناءك ومهارتك فى العزف على العود .. ربما نلت نصيبا لا يتيسر لك مثله فى مصر »

فقالت شوكار بكل بساطة واخلاص : « ليست السعادة بقربى من الخلفاء ، ولا بالزواج من أمير أو شريف ، وانما هى بالحب المتبادل » قالت ذلك ، وتدفق وجهها حياء .. فحولته الى ستارة معلقة بالحائط عليها صور بعض الطيور وتشاغلت بالنظر اليها

فابتدرتها سلافة قائلة : « اذا كنت متعلقة القلب بأحد الشبان فى مصر فاحذرى ولا تنخدعى .. قد يكون ذلك الشاب حالما علم بسفرك تزوج غيرك . وهبى انه تزوجك فليس أسهل على الرجال من الطلاق . لا تثقى بأحد منهم .. أقول لك هذا عن خبرة .. »

فابتسمت شوكار ابتسام النصر لثقتها بحبيبها وقالت : « ان الشاب الذى أحبه على خلاف ما تقولين ، وأنا واثقة من ثباته على حبى .. وقد يأتى الى هذا البلد لانقاذى »

فضحكت سلافة باستخفاف لتحمل شوكار على التصريح بما فى قلبها ، وهزت رأسها هزة الانكار وسكتت ، فقالت شوكار: « أؤكد لك ياسيدتى ان خطيبى هو كما أقول لك ، ولو عرفته لوافقتنى على رأيى فيه »

فأحبت سلافة أن تواصل الحديث الى آخره ، فقالت : « ما اسمه ؟.. » وأخذ قلبها فى الخفقان لعلمها بالجواب قبل سماعه

فقالت شوكار: « هو الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى . ولا شك انك تعرفينه .. فهل ألام على حبه ؟ » قالت ذلك

وأبرقت عيناها ، وأكبت على يد سلافة تقبلها ، وهى تقول فى لهجة التضرع : « بالله ياسيدتى ليس فى الدنيا أحد يستطيع أن يساعدنى فى تحقيق هــذه الأمنية سواك .. انت جئت بى الى هذه المدينة ، وانت وحــدك تستطيعين ارجاعى الى مصر .. » وشرقت بدموعها ..

وكانت ســلافة حينما سمعت اسم ركن الدين قد هاجت عواطفها وزادت نقمتها ، ويئست من النجاح فى هذا السبيل .. فأظهرت انها تشاركها فى شعورها ، وقالت : « نعم أعرف الأمير ركن الدين وهو من خيرة الأمراء ، واذا كنت على ثقة من حبه فانى أبذل جهدى فى مساعدتك لأنى أحببتــك كثيرا .. ولا هدف لى الا راحتك وسعادتك »

فلما سمعت شوكار كلامها اعتقدت صدق ما تقوله ، فاختلج قلبها فى صدرها من الفرح ، وقالت وهى تضحك : « صحيح .. صحيح ما تقولين ؟.. ترجعيننى الى مصر ؟.. شكرا لك ياسيدتى اسرعى فى انقاذى » وهمت بتقبيل يدها فمنعتها وضمتها الى صدرها تحببا . ولو علمت شوكار بما يكنه ذلك الصدر نحوها لأجفلت وتراجعت .. ولكنها صدقت واعتقدت أنها ستحقق لها أمنيتها ..

أما سلافة فقالت : « يصعب انقاذك سريعا .. وهذا أول يوم لك فى قصر أمير المؤمنين ، وقد أمر باصــلاح شــأنك ليسمع صوتك فى هذه الليلة .. كونى مطمئنة .. انى لا أدخر وسعا فى

اجابة طلبك ، ولا بد من حيلة أدبرها لك .. »

فأحست شوكار بارتياح كثير ، وألقت اعتمادها على سلافة.. وشكرت الله للقائها هناك

— ٥٥ —

الحيلة

ثم التفتت سلافة اليها بلهفة كأنها استدركت شيئا فاتها ، أو انها وفقت الى رأى جديد وقالت : « اسمعى ياعزيزتى .. اذا لم يكن لك بد من الرجوع الى مصر فيجب أن نبدأ بالسعى من هذه الساعة .. أما بعد أن يسمع أمير المؤمنين صوتك ، فيصبح الخروج صعبا » ..

فتأكدت شوكار من غيرتها وصدق رغبتها فى انقاذها ، فقالت : « وما هو الرأى ياسيدتى ؟ .. انى رهينة اشارتك ، أفعل ما تأمرين به .. »

قالت سلافة : « أرى أن تبدئى من الآن ، فتشتكى من صداع فى رأسك وألم فى حلقك ، وأنا أرفع خبر ذلك الى القهرمانة وأقنعها بصحته .. ثم أحتال فى نقلك الى قصر آخر ، أهداه الىَّ الخليفة لأقيم فيه على مقربة من قصر التاج ؛ ومتى صرت هناك هان انقاذك .. »

فلم تتمالك شوكار عن الترامى على قدم سلافة تقبلها ، وقالت : «شكرا لك يامولاتى.. شكرا لك.. انى أشعر بالصداع

من الآن .. » فتناولت سلافة منديلا عصبت به رأسها وصفّقت فجاءتها اقحوانة وهى تقول : « ان مولاتنا القهرمانة استبطأت شوكار ، فبعثت فى طلبها لأن أمير المؤمنين آت بعد قليل .. »

فقالت سلافة : « انظرى .. انها مريضة تشكو صداعا شديداً وألما فى حلقها ، وقد تعبت فى معالجتها .. فالأحسن أن تعتذر القهرمانة الى أمير المؤمنين عن غيابها ريثما تشفى » فذهبت اقحوانة الى القهرمانة بالخبر .. فأسرعت هذه بنفسها لمشاهدة شوكار ، وهى تتوكأ على أوراكها وتقول بصوت جهورى خشن : « كيف ذلك ؟.. مولاى الخليفة سوف يأتى بعد قليل .. وقد قضى مدة طويلة فى انتظار هذه المغنية .. فكيف تمرض فى ساعة وصولها ؟ » ..

ولما وصلت الى غرفة سلافة رأت شوكار مستلقية على الأرض وهى تصيح من شدة الألم وقد تغير لونها . فلم يسعها عند رؤيتها الا الاشفاق عليها ، ونظرت الى سلافة فرأتها شديدة الاهتمام بها والحنان عليها ، فقالت لها : « أحب أن أنقل هذه المسكينة الى دار المرضى كى يعالجها الطبيب ، ثم ... »

فقطعت سلافة كلامها قائلة : « لا .. لا تنقليها الى مكان .. دعينى أهتم بأمرها .. دعى ذلك الىّ .. » قالت ذلك وهى تهتم بتغطية شوكار وتتلمس جبينها وخديها ، ثم قالت : « دعى أمرها الىّ .. واذا اقتضت الحال نقلها ، نقلتها الى قصرى ، لأن موقعه فى كلواذى يجعله أقرب للاستشفاء .. »

فعادت القهرمانة وهى تهيىء الأعذار للخليفة لتخلف مغنيته بعد أن وعد نفسه بها على أثر انتظاره الطويل للحصول عليها . وقبل وصولها الى غرفتها جاءها رسول الخليفة يدعوها اليه . فذهبت مهرولة الى غرفته فوجدته يعدُّ نفسه للذهاب الى المنظرة، وقد أخذ يلبس ثياب المنادمة . فلما وقع بصره عليها صاح بها : « أين المغنية الجديدة ؟.. وقد ظفرنا بها بعد طول الانتظار والحمد لله .. هل اختبرت صوتها ؟.. هل أسمعتك اياه ؟.. يقولون انها أرخم النساء صوتا وأتقنهن صنعة .. قد آن لى أن أستريح من مهام الدولة ومتاعبها .. سامح الله أبا بكر انه سبب هذه المتاعب كلها .. » واسترسل المستعصم فى الكلام وهو واقف والخادم يساعده على لبس الغلالة ولف العمامة الصغيرة .. والقهرمانة واقفة تنتظر سكوته لتجيبه على أسئلته . فلما سكت قالت : « ان جاريتك شوكار مريضة الآن .. »

فصاح فيها : « مريضة .. اليوم رأيتها ولا بأس بها .. متى مرضت ؟ .. »

قالت القهرمانة : « كانت بخير .. لكنها أصيبت منذ ساعة بصداع شديد كاد يقتلها ؛ وقد اهتمت جاريتك سلافة بأمرها »

فقطب المستعصم حاجبيه .. وكان الخادم الواقف بين يديه يناوله منطقة من الحرير ليتمنطق بها ، فتناولها ورمى بها الى الأرض .. وألقى بنفسه على المقعد كأنه يستريح من تعب ، وتنهد وقال : « يا لله .. ما هذه المعاكسات ؟.. لقد تشاءمت من هذه

الجارية .. لأنها منذ خرجت من مصر وأمورها معقدة . ولما ظفرنا بها مرضت . وأخشى أن تكون شؤما علينا فيما نحن فيه .. »
وأطرق لحظة ، ثم قال : « ليتها ظلت عند أبى بكر ، ولم نغضبه لأجلها . .وهل تظنين ان مرضها يطول ؟ .. »

قالت القهرمانة : « انها تشكو صداعا شديدا وألما فى حلقها ، والأمل أن تشفى فى يومين أو بضعة أيام . واذا لم تشف فغيرها خير منها .. ان الجوارى المغنيات كثيرات فى خدمة أمير المؤمنين.. هل يأمر بتهيئة سواها ؟ .. »

قال الخليفة : « هيئى من شئت منهن .. انى فى حاجة الى الراحة بعد تعب هذا النهار .. هل علمت ماذا جرى لنا اليوم مع أبى بكر ؟ .. »

قالت : « انه غضب لذهاب شوكار من يده ، وقد أخطأ لأنه أخذها وهو يعلم انها محمولة لمولانا أمير المؤمنين .. لكنه فعل ذلك بدالّة الابن على أبيه .. » وقد استرضته بهذه العبارة .. وهو انما سألها هذا السؤال ليسمع منها هذا الجواب ، لأن قلبه كان مايزال تعبا من جهة ابنه .. يتنازعه فى شأنه عاملان أحدهما النقمة عليه ، لأنه تجاوز حدوده وتعدى على حقوق أبيه .. والثانى حنانه عليه ورغبته فى ارضائه . وكان العامل الأخير أشد ظهورا وأكثر تسلطا على قلبه .. وهو يعلم ان تلك القهرمانة تحب أبا بكر أو هى تعرف حبه اياه ، فلا تجيب الا بما يخفف من غضبه عليه . فسألها ذلك السؤال ، ولم يكن عنده ريب فى

اطلاعها على ما جرى فى جلسة ذلك اليوم ، وان كانت فى دار النساء .. فانها كانت كثيرة التدخل فى شئون الدولة والاطلاع على ما يدور فيها ؛ لأن المستعصم كثيرا ما كان يذكر ذلك بين يديها على سبيل التفاخر ؛ فأصبحت كثيرة النفوذ عنده .. شأن الدول فى عهود انحطاطها

فلما سمع الخليفة قولها عن أبى بكر سرى عنه وقال : « صدقت .. انه فعل ذلك بدالة البنوة .. وقد جرأه عليه الدوادار .. وكان ينبغى لهذا أن يردعه ويقف فى وجهه »

ولم تكن القهرمانة تحب الدوادار لأنه جندى خشن لايحترمها . فلما سمعت الخليفة ينتقده وافقته وقالت : « طبعا كان يجب على الدوادار أن يردعه .. لكن هذا يفعل ذلك بدالته على أمير المؤمنين لأنه قائد جنده .. لكنها دالة كاذبة .. اذ يمكن لأمير المؤمنين أن يبدل الدوادار بأحسن منه .. لكنه لا يبدل ابنه بسواه » قالت ذلك وضحكت ، اعجابا بهذا التعبير .. وأظهرت انها تهم بالخروج لتهيئة جلسة الغناء ، فأجابها بضحكة من نوع ضحكتها وقد فهم قصدها ، وهى تعنى أن يبدل الدوادار بسواه وقال لها : « ابعثى الى أبى بكر ليحضر هذا المجلس معنا .. لنعوضه عما أسأنا به اليه .. »

فأشارت مطيعة ، وانصرفت ..

— ٥٦ —

الامام أحمد

تركنا مؤيد الدين فى منزله ، وقد بعث رسوله الى هولاكو بعد أن يئس من الاصلاح ، على انه ظل برهة بعد ارسال الغلام وهو غارق فى التفكير تتناوبه الخواطر المتضاربة بين ندم وارتياح .. لكن الارتياح كان غالبا عليه لأنه لم يقدم على مخابرة هولاكو الا بعد تردد طويل .. قضى ذلك اليوم ، ولم يخرج من منزله ، ومضت أيام أخر وهو لايريد أن يرى أحدا ولا أن يخاطب أحدا لعظم قلقه وفظاعة ما أقدم عليه .. وازداد قلقه لأن الخليفة لم يسأل عنه ولا دعاه اليه ، فعدّ ذلك تغيرا عليه .. ففضل البقاء فى منزله كالمحاصر ريثما يرى ما يحدث ..

فأصبح ذات يوم ، واذا بطارق يطرق الباب.. فعرف من طرقته انه سحبان . وكان قد طال غيابه هذه المرة حتى شغل خاطره عليه . فلما رآه مقبلا رحب به وأشار اليه أن يجلس ، ورأى فى وجهه تغيرا ، فقال : « ما وراءك يا سحبان ؟.. أراك متغيرا ؟..»

قال سحبان : « وأنا أراك متغيرا أيها الوزير .. ولا عجب اذا رأيت فىّ تغيرا ، واذا بقينا على رأيك فنحن متغيرون جميعا .. بل نحن منتقلون الى الدار الآخرة عن قريب » قال ذلك وتشاغل بمصّ شفته السفلى بين أسنانه ..

فعلم مؤيد الدين أن سحبان ينتقـد صبره على المستعصم ومحافظته على ولائه الى هذا الحد ، فضحك وقال : « الانتقال الى الآخرة خير لنا من هذه الدنيا .. »

قال سحبان : « نعم .. ولكننا لا ينبغى أن ننتقل قبـل أن ننتقم .. »

قال مؤيد الدين : « لك علىّ ذلك .. »

ولم يكن سحبان ينتظر سرعة الموافقة ، فاستغرب جوابه وقال : « ومتى ؟ .. »

قال مؤيد الدين : « بعد بضعة أيام .. »

فدهش سحبان ونهض فجأة من التأثر ، وقال : « ماذا تعنى ؟ أظنك لم تفهم مرادى .. »

قال مؤيد الدين : « كيف لا ؟ .. ألم تقصـد التخلص من أولئك القوم ولو استنجدنا عليهم بالغرباء ؟ .. »

قال سحبان : « بلى .. »

قال مؤيد الدين : « قد فعلت .. فاصبر لترى النتيجة .. »

فالتفت سحبـان حوله خوفا من أن يسمعه أحـد وقال : « استنجدت بهولاكو ؟ .. كتبت اليه أن يأتى .. »

قال مؤيد الدين : « لقد فعلت ذلك .. وكنت أنتظر مجيئك قبل الآن لأخبرك وأرى رأيك .. »

فقطع سحبان كلامه ، وصاح : « وهل لى رأى غير ذلك ؟.. هذه هى أمنيتى ، اذا تحققت فاننى لست أبالى اذا أنا مت

الساعة .. وجئتك الآن بأمر جديد مهم ، لكنه لايقف فى سبيلنا»

قال مؤيد الدين : « وما هو ؟ .. »

قال سحبان : « الأمير أحمد الذى سميناه الامام .. انت تعلم اننى بعد أن أتيت به الى هنا أرجعته الى قصر الفردوس كما كان .. وكأن القوم شعروا بمقاصدنا ، أو لعلهم علموا بخروجه وارتابوا فى حرس قصره ، فنقلوه الى قصر آخر .. »

قال مؤيد الدين : « أى قصر ؟ .. »

قال سحبان : « نقلوه الى قصر قرب باب كلواذى فى الجنوب ، وأقاموا عليه الحراس وشددوا فى التضييق عليه .. »

قال مؤيد الدين : « هو الآن فى كلواذى ؟.. ولماذا فعلوا به ذلك ؟ .. »

قال سحبان : « دعهم يفعلون ما يشاءون .. انه خليفتنا حيثما كان ، وهل يصعب علينا اخراجه من سجنه متى تم لنا ما نطلبه ؟ اذا دخل التتر بغداد وقبضوا على هذا الخليفة فأنت تكون معهم طبعا فترشدهم الى الامام أحمد فيولونه الخلافة .. آه ما أجمل ذلك اليوم السعيد .. وأسعد منه أن نعيد دولتنا العلوية .. هذه هى أمنيتى الحقيقية .. »

فنظر مؤيد الدين اليه ، وهو يغبط فيه ذلك الأمل الواسع والثقة بالنجاح لأضعف الأسباب .. ان صاحب هذا الخلق قد يخطىء ويفشل ، لكنه أقرب الى السعادة من الرجل الحذر كثير الشكوك الذى يرى السعادة فى قبضته ويشك فى وجودها .

ولذلك استغرب مؤيد الدين سرور سحبان واطمئنانه لمجرد علمه ان مؤيد الدين وافق هولاكو على المجيء الى بغداد .. وفاته ما يعترض نجاحه من العقبات ، وانه قد عرّض نفسه بذلك الى أخطار كثيرة . ثم رفع نظره الى سحبان وقال : « نطلب الى الله أن يوفقنا فى سعينا على القوم الظالمين .. »

— ٥٧ —

طارق جديد

وبينما هما فى ذلك ، اذ سمعا قرع الباب ــ وكان البـاب بعيدا عن غرفة الوزير ولم يكن يهتم لسماع قرعه من قبل . أما الآن فانه لشدة قلقه أصبح لا تفوته حركة فى البيت الا عرفها ــ فتطلع نحو الباب واذا بغلام سحبان قد دخل وعلى وجهه تغير . فقال له سحبان : « من أين أتيت يا غلام ؟ .. »

قال الغلام : « أتيت من المنزل ياسيدى .. »

قال سحبان : « ولماذا ؟ .. »

قال الغلام : « لأن قادما غريبا جاء يطلبك ، وألح علىّ فى أن أوصله اليك حالا .. فجئت به لعلمى انك فى دار الوزير .. »

قال سحبان : « من هو هذا القادم ؟ .. وأين هو ؟ .. »

قال الغلام : « لم يشأ أن يخبرنى عن اسمه ، لكنه جاء معى وهو واقف فى انتظـار الاذن له .. »

فالتفت سحبان الى الوزير كأنه يستأذنه فى ادخال ذلك الضيف . فقال الوزير : « أدخله .. »

فعاد الغلام ومعه رجل حسن البزة عليه ملابس السفر . ولما وقع نظر سحبان عليه صاح : « الأمير ركن الدين .. الأمير ركن الدين .. » ونهض للقياه والترحيب به ..

وكان مؤيد الدين يسمع بركن الدين ويعرف عنه كثيرا ، فاشترك مع سحبان فى الترحيب به ، ونهض له وهو يقول : « مرحبا بالأمير ركن الدين » فمشى ركن الدين حتى دنا من الوزير فحيّا وحيّا سحبان ، وجلس على كرسى أحضروه له . وأخذ الوزير يرحب به قائلا : « طالما سمعنا بالأمير ركن الدين بيبرس وأعماله فى مصر .. وكنت فى شوق الى رؤيته ، فمنّ الله علىّ بذلك .. »

فقال ركن الدين : « ليس فى ركن الدين ما يدعو الى الاعجاب لأنى لم أعمل شيئا .. ولكن الاعجاب يجدر بالوزير مؤيد الدين ابن العلقمى القابض على زمام الدولة العباسية يدبر شئونها .. »

وتصدى سحبان للكلام قائلا : « ان الأمير ركن الدين معروف » ووجّه كلامه الى الوزير قائلا : « ألم أقل لك عن بسالة هذا البطل وما أتاه من المدهشات فى محاربة الافرنج وتخليص مصر من أيديهم ؟ .. فعساه أن يساعدنا فى تخليص بغداد من غير الافرنج .. » وضحك

فلم يدهش مؤيد الدين من تسرعه لأنه يعرف ذلك فيه .. لكنه

تغافل .. وتغافل أيضا ركن الدين لأنه مثل مؤيد الدين تكتما وحذرا ، فخجل سحبان من نفسه وأراد أن يغطى خجله ففتح موضوعا جديدا ، فقال لركن الدين : « متى وصلت الى بغداد أيها الأمير ؟ .. وكيف عرفت منزلى ؟ .. »

قال ركن الدين : « وصلتها فى هذا الصباح . وأما منزلك فقد عرفت انه فى الكاظمية ، كما أخبرتنى فى مصر ، وأنا أعرف بغداد .. فصرفت من كان معى وأحببت أن أدخل البلد متنكرا , فوصلت الكاظمية وسألت عنك فقيل لى انك عند مولانا الوزير، فجئت لأراك وأراه لأنى أعرفه بالسمع ، فطلبت الى خادمك أن يأخذنى اليك وقد فعل .. »

فقال الوزير : « لقد جئت أهلا ووطئت سهلا .. »

وتذكر سحبان تعلق ركن الدين بشوكار وقلقه عليها ، وما خاطبه بشأنها عند سفره من مصر . فقال له : « هل تأذن أن تتكلم عن المهمة التى أنفذتنى بها من مصر ؟ .. ان لمولانا الوزير اطلاعا على شىء منها ، وهو محب لك غيور على مصلحتك .. »

فقال ركن الدين : « أظنك تعنى شوكار .. نعم تكلم ، وقد كنت أتوقع أن تكتب الىّ بشأنها قبل الآن .. »

فخجل سحبان ، لكنه بادر الى الاعتذار قائلا : « كان ينبغى لى أن أفعل ذلك .. ولم أتأخر عن اهمال ، لكننى حال وصولى الى بغداد لقيت شوكار فى المكان الذى كانت فيه . وأخبرتنى بأنها كتبت اليك .. وقد عملت على انقاذها فلم أوفق الى ذلك

حتى الآن ، وما الفائدة من الكتابة بلا عمل ؟ .. والوزير يعلم بما وقف فى طريقنا من العراقيل .. »

فقال ركن الدين : « والخلاصة أين هى الآن ؟ .. »

قال سحبان : « هى فى قصر الخليفة منذ أيام .. »

قال ركن الدين : « وأين كانت قبل ذلك ؟.. ومن خطفها ؟ »

قال سحبان : « كانت عند أبى بكر بن المستعصم وأبوه لا يعلم انها عنده ، وأخذ يبحث عنها .. ثم تمكنا من اختطافها من بيت أبى بكر وأخفيناها فى منزلنا ، وهممت أن أفرّ بها اليك فعلم بها ذلك الغلام وأخذها منا بقوة الجند . ثم علم أبوه انها عنده فأخذها اليه .. ولذلك حديث طويل يهمك منه أن شوكار لا تزال كما عرفتها فى مصر تبذل نفسها فى سبيل رضاك .. ولا تفضل مكانا فى الدنيا على قربك . ولا شك فى انها فى بيت الخليفة رغم ارادتها . ولا بد من أخذها .. تمهل.. اننا فى مشكل هام ستنقلب له بغداد رأسا على عقب . وسيصل دويه الى مصر، والاندلس ، وسائر دول العالم . وسيكون له شأن عظيم ، وانما يستفيد منه العاقل الحازم .. »

فخشى الوزير من وراء هذه المقدمة ، أن يبوح سحبان بما قام به من المساعى وهو يحب كتمانه .. فتصدى للكلام ، قائلا لركن الدين : « لا تعجب يا أمير من اضطراب حالنا ، وخليفتنا مشتغل باستقدام المغنيات من أقاصى المملكة ، والعدو على الأبواب لا يلبث أن يأتينا وجندنا فى اختلال .. و ... »

فقطع ركن الدين كلامه قائلا : « سمعت وأنا قرب بغداد أن هولاكو التترى زاحف بجند كثير على هذا البلد ، وانه الآن على مقربة منها .. ألم تستعدوا له ؟ .. »

فهز الوزير رأسه وقال : « كيف لا ؟.. بلغنا منــذ أيام أن حملة من جند هولاكو وصلت تكريت بقيادة باجو ، وعبرت دجلة الى البر الغربى ونزلت قاصدة بغداد .. واختلفت آراؤنا فى الدفاع وطريقته . ولم يستقر الرأى الا بعد أن وصل جنــد التتر الى دجيــل وعددهم نحو ٣٠٫٠٠٠ فارس . فأمر الخليفة بارسال عسكره لدفعهم بقيادة مجاهد الدين ايبك الدوادار . لكن عسكرنا يا أمير فى غاية القلة ، ولا ندرى ماذا تكون النتيجة .. على انى أخشى سوء العاقبة لأننا غير متفقين على رأى . وخليفتنا ضعيف مستسلم لابنه وقائد جنده ، وكلاهما على غير خبرة .. ونخشى أن يكون الله قد أراد انقضاء هذه الدولة .. و ... »

فتصدى سحبان قائلا : « لا تخف .. بل توسل الى الله أن تنقضى . وهذا الأمير ركن الدين لايخفى عليه شىء من أمرنا . وقد حدثته وأنا فى مصر عن استرجاع خلافة الفاطميين فا .. »

فاغتاظ مؤيد الدين من تسرع سحبان ، وقال : « لا أظن ان الأمير قد وافقك على ذلك .. ونحن يكفينا الآن أن نبــدل خليفة خاملا بآخر يعمل ؛ كما سبق الكلام »

فاستحسن ركن الدين اعتدال ابن العلقمى فى رأيه ، فقال : « هذا هو القول المعقول ، وهو هين ميسور لمن يبذل المال بدون

حرب .. وأنا أضمن لكم ذلك متى رجعت الى مصر ، وتم الاتفاق بيننا على رأى نرضـاه » وهو يضمر أن يجعل ابدال الخليفة مرتبطا بأن تؤول سلطنة مصر اليه .. أى أن يشترط على الخليفة الجديد قبل توليته أن يساعده فى التسلط على مصر

وأدرك مؤيد الدين ما يفكر فيـه ، فاستحسـنه وندم على رسالته الى هولاكو وتعريض الخلافة للتتر .. لكنه ظل يعتقد ان هولاكو لايزيد على أن يخلـع الخليفة المسـتعصم ويطلب سواه ، وهم يدلونه على الامام أحمد فقال : « سننظر فى ذلك ونرجو أن يعود بالخير »

فعاد ركن الدين الى شوكار وأخبارها ، ووجّه خطابه الى سحبان وقال : « والآن .. ماذا نفعل بشوكار ؟ .. قل لى .. فقد تركت بلدى وقومى وهم فى حاجة الىّ ، وجئت الى هذه الديار من أجلها .. فهل أعود ولا آخذها معى ؟ .. هذا يستحيل .. »

فقال سحبان : « لابد من أخذها ، وقد قلت لك ان ذلك ميسور لما نرجو حدوثه من الانقلاب . ومع ذلك فان الخصى عابدا الذى حمل اليك رسالة شوكار ، وسلّمته جوابك اليها مقيم عندى منذ أخذوا شـوكار منا ، وقد أوصيته أن يتتبع أخبارها .. وكان قد جاءنى منذ يومين بخبر لم أصدقه .. »

فقال ركن الدين بلهفة : « وما هو ؟ .. »

قال سحبان : « قال لى ان شوكار خرجت من قصر التاج ، ولو كانت قد خرجت لجاءت الينا .. فأوصيته بالأمس أن يبذل

جهده ويدقق البحث ويعود بالخبر الصحيح .. »

فقال ركن الدين : « أين هو الآن ؟ .. »

قال سحبان : « أظنه قد عاد الى منزلنا فى الكاظمية أو يعود الليلة .. هل تريد الذهاب الآن للبحث عنه ؟ .. »

قال ركن الدين : « نعم .. هلم بنا .. ومتى فرغنـا من أمر شوكار نعود الى أمر الخلافة أو لعل الأمرين يتمان معا » قال ذلك ووقف ، واستأذن فى الانصراف .. فودعه الوزير ، وخرج ومعه سحبان ..

— ٥٨ —

التتر

وكان ركن الدين قد جاء الى بغداد فى صباه ، فوجد فيها فى هذه المرة تغييرا كبيرا .. وسار مع سحبان على أقدامهما يطلبان الكاظمية ، وهى على مسافة بعيدة من قصر الوزير .. فعبرا الجسر حتى صارا فى الجانب الغربى من بغداد حيث كانت البلدة التى بناها المنصور منذ نيف وخمسمائة سنة .. ولم يبقَ منها الا آثار قليلة ، وقد أقيم فى مكانها الأسواق . وبينما هما فى طريقهما وركن الدين يتأمل فيما يبدو على الأبنية من مظاهر الاهمال ، اذ رأيا جماعة من العامة يركضون نحو الجسر وهم فى خوف شديد ، عرف سحبان رجلا منهم فناداه اليه .. فجاءه وقد غطى الوحل

قدميه الى ركبتيه كأنه كان غارقا فى الماء . فسأله سحبان عن سبب هذا الركض فقال : « التتر ياسيدى .. التتر .. »

فقال سحبان : « ماذا تعنى ؟ .. أين هم ؟ .. »

فقال وهو يرتعد : « هم هنا .. هنا فى بغداد .. »

فصاح سحبان فيه : « فى بغداد ؟.. وأين جندنا ؟.. ذهبوا لمحاربتهم عند دجيل.. أين الدوادار ؟.. ما بالكم؟.. قل .. تكلم»

قال الرجل : « ان هؤلاء التتر من الجان ، لا يستطيع أحد أن يقف فى طريقهم .. كنت قرب دجيل يوم وصولهم اليه ، وما أن قيل لنا قد أتى التتر .. حتى ذعر الناس ، وهربوا نحو المدينة بأولادهم ونسائهم فى حالة يرثى لها .. حتى أن الرجل كان يقذف بنفسه فى الماء خوفا من هؤلاء الناس ، وقد رأيت ملاحا لم يرض أن ينقل رجلا فى سفينته من جانب الى جانب حتى أخذ منه عدة دنانير . ورأيت امرأة دفعت للملاح سوارها ، وأخرى أعطته ثوبا مزركشا ليعديهما الى الضفة الأخرى .. ثم قالوا لنا ان جند الخليفة جاء لمحاربة أولئك الجان فسكن روعنا . لكننا ما لبثنا أن رأينا جندنا يتقهقر مدحورا أمام التتر ، والتتر يطاردونهم ويمعنون فيهم قتلا وأسرا .. وأعانهم على ذلك نهر شقوه فى طول الليل ، فكثر الوحل فى طريق المنهزمين ، ولم ينج الا من رمى نفسه فى الماء وأنا منهم .. » قال ذلك وأشار الى الوحل على قدميه وهو يلهث ..

وكان ركن الدين يسمع ذلك الكلام ، والغضب يرعده .. فقال



« لكننا ما لبثنا ان راينا جندنا يتقهقر امام التتر ، والتتر يطاردونهم ويمعنون فيهم قتلا واسرا . واعانهم على ذلك نهر فتحوه فى طول الليـــل ... »

سحبان للرجل : « والدوادار .. أين هو ؟ .. »

قال الرجل : « رجع مع بقية الجنـــد مدحورين مكسورين .. ولذلك انكسرت قلوبنا .. نعوذ بالله من التتر .. يا لطيف .. ».

فقال سحبان : « وكيف رأيت هؤلاء القوم ؟ .. »

قال الرجل : « رأيتهم من الأبالسة ياسيدى .. لايمكن لجندنا أن يقف أمامهم ، واذا وقفوا أكلوهم أكلا .. أعوذ بالله . لم أر مثل هؤلاء الناس .. لا .. لا .. لم أر مثلهم فى حياتى . اذهب ياسيدى من الطريق ، لأنى أظنهم الآن على مقربة من بغداد أو لعلهم دخلوها . وبلغنى ان فريقا منهم نزل عند المارستان العضدى ، وفريقا آخر وصل الى المبقلة تجاه الرصافة ، ولم يبق بينهم وبين قصور الخلفاء الا دجلة . سر ياسيدى ولا تعرض نفسك للسهام المتساقطة ، حتى سهامهم تتساقط كالمطر .. لا ..لا .. لم أر مثل هؤلاء الناس قط » قال ذلك ومشى مسرعا

فالتفت سحبان الى ركن الدين فرآه يرتعد من الغضب ، وقد احمرت عيناه وقطب حاجبيه ، وود لو أن فرسه تحته ليهجم على التتر ، فقال له سحبان : « ما بال سيدى الأمير ؟ »

قال ركن الدين : « ويلك يا سحبان .. أهكذا يكون رجال الخلفاء ؟.. يهربون من وجوه التتر المتوحشين حتى يدخلوا ديارهم ، كم كنت أتمنى أن يكون فرسى تحتى ، أو يكون رجالى معى ، لأريهم كيف يكون القتال ؟ »

فضحك سحبان ، وأمسك ركن الدين بذراعيه ، وتحوّل به

الى زقاق ضيق ومشى وهو يقول : « ان اظهار البسالة لا يفيد لأنها ضائعـة يا مولاى ، ان القوم قد ماتت نفوسهم وذهبت دولتهم وكفى ما ارتكبوه من المظالم ، ولو أراد الله النصر لهم لأنار بصائرهم وهداهم الى الطريق الصواب .. لكنهم يتخبطون فى أعمالهم تخبط الأعمى لا يعلمون ماذا يعملون .. دعهم ان الله قادر على نصرتهم اذا شاء »

وبينما هما فى ذلك ، اذ رأيا سهما وقع أمامهما ، وله شكل خاص لم يعهد سحبان مثله فيما يعرفه من السهام . فالتقطه وتأمله فرأى عليه كتابه عربية فقرأها فاذا هى : « ان الرؤساء العلويين (الشيعة) وكل من لايقاتلنا فهو آمن على نفسه ونسائه وأمواله »

فدفع السهم الى ركن الدين ، فلما قرأه قال : « يظهر أن العلويين ينصرون التتر »

قال سحبان : « ان العلويين مظلومون ياسيدى .. أما كفاهم ما قاسوه من الضيم والعذاب أجيالا ؟.. فاذا كانت الغلبة للتتر وأنصفوهم فلا حرج عليهم ولا علينا » وهز كتفيه هزة التنصل من التبعة ..

فتحقق ركن الدين من ان حماسته للعباسيين لا تجدى نفعا ، ولم يعد يهمه الا أن يعثر على شوكار .. ويخرج بها من بغداد ، ويرجع الى امارته ويسعى فى الظفر بالسلطة بمصر .. ولا بد له قبل كل شىء من لقاء عابد الخصى ليسمع منه خبر شوكار

وجعل سحبان طريقهما فى أزقة مهملة لايتزاحم فيها الناس ،

لئلا يصادمهم الهاربون ، حتى أقبل على المارستان العضدى .
فرأيا ضفاف دجلة وما يليها تعج عجيجا بالتتر وخيولهم وخيامهم
وأعلامهم وأسراهم .. فوقف سحبان على مرتفع وأومأ الى ركن
الدين أن يتأمل أولئك القوم ، ويقابلهم بما يعرفه عن البغداديين .
وقال له : « أرأيت التترى وقوة بدنه وخشونة يديه ، وكيف هو
مشمر عن ساقيه ، وعيناه تكادان تطيران من وجهه .. ان بين
هؤلاء الناس من قضى أياما وهو ساع على قدميه لا ينام الا
لماما ولا يأكل الا القومز (لبن الخيل) كما كان البدوى فى صدر
الاسلام ، يكتفى بناقته .. يسافر عليها ويقتات بلبنها ويتفيأ ظلها
ويستأنس بها .. هكذا هؤلاء التتر مع أفراسهم ، وقد يعدو
التترى فيسبق فرسه . فأين ذلك من جند بغداد وقد تعودوا
الراحة والرخاء ، كما كان الروم فى صدر الاسلام .. هل نستطيع
ياسيدى أن نقاوم القضاء . ولكل أجل كتاب ، والله يفعل ما يشاء
هلم بنا الى الكاظمية لنرى عابدا ونسمع خبر شوكار »

فلم يحر ركن الدين جوابا من الدهشة التى تولته مع ميله
الى معرفة خبر شوكار.. فتجاوز المارستان العضدى والحربية الى
الكاظمية . فاختلف منظر الأهلين فى عين ركن الدين عما رآه فى
سائر الأحياء .. رأى أهل الكاظمية هنا مستبشرين مطمئنين ، كأن
فوز التتر فوز لهم .. أو كأن التتر دولة شيعية جاءت لنصرتهم .
ولكن الانسان يحب من يأخذ بناصره مهما بعدت الروابط
بينهما ، ويكره من يسلبه حقه ولو كان أخاه . مرّا فى أزقة

الكاظمية وأهلها فرحون .. ولما رأوا سحبان تقدموا للسلام عليه وتهنئته ، فرد السلام وقد استحى من التظاهر بالفرح الى هذا الحد بين يدى ركن الدين

— ٥٩ —

عابد

وبعد قليـــل وصلا الى بيت سحبان فدخلا وجلسا ، وسأل سحبان عن عابد فجاءه . وحالما رأى ركن الدين تناثر الدمع من عينيه وأكب على يده يقبلها .. فاستغرب ذلك منه ، وقال : « ما وراءك يا عابد ؟ .. أين شوكار ؟ .. ماذا جرى لها ؟ .. »

فتماسك الخصى وقال : « بذلت جهدى يا مولاى فى سبيل سيدتى شوكار كما وعدتك ، ولم أفترق عنها لحظة الا فى هذه المرة ، فان الجند أخذوها رغم أنفى .. لكننى أتعقب أخبارها كأنى معها » ..

قال ركن الدين : « وأين هى الآن ؟ .. »

قال عابد : « آخر ما عرفته عنها انها فى قصر التاج »

فقال ركن الدين : « هذا عرفته من أخى سحبان .. وقد أخبرنى انك ذهبت للبحث عنها أمس .. فماذا عرفت ؟ .. »

فأطرق عابد وقد ارتج عليه .. فصاح ركن الدين فيه : « قل .. قل يا عابد .. ماذا جرى ؟ »

قال عابد : « تنكرت أمس حتى دخلت قصر التاج فى جملة الخدم واجتمعت بكثير من الخصيان أصـدقائى ، واستطلعتهم خبرها فاختلفوا فى الرواية . وفهمت من مجمـل أحاديثهم أن شوكار يوم وصولها الى قصر التاج أصابها صداع شديد ، ولم تستطع أن تغنّى للخليفة .. فباتت تلك الليلة عند صديقة لها من مصر اسمها سلافة .. »

فلما سمع ركن الدين اسمها ارتعـدت فرائصـه وصاح : « سلافة .. سلافة هنا ؟ .. أين سلافة ؟ .. »

قال عابد : « نعم ياسيدى ، يقولون انها كانت قيّمة قصور الملك الصالح بمصر ، ولها نفوذ عظيم فى قصر التاج ، لتقربها من قهرمانة القصور وأستاذ الدار حتى الخليفة نفسه يحترمها .. »

فأطرق ركن الدين وتذكر سعى هذه الجارية فى ابعاد شوكار عنه ليخلو لها الجو معه ، وكيف كانت مقابلته الأخيرة لها وكيف هددته .. مرّ كل ذلك فى ذهنه فى لحظة وقلبه يخفق خوفا من أذى تلحقه بشوكار ، فنظر الى عابد وقال : « قل .. وبعد ذلك ماذا جرى ؟ »

قال عابد : « واختلف الرواة فيما جرى بعـد تلك الليلة ، فقال بعضهم ان سلافة أخذت شـوكار الى قصر لها قرب باب كلواذى ، وقال غيرهم انها لم تأخذها بل ظلت مخبـأة فى قصر التاج . وقال غيرهم غير ذلك .. » وتغيرت سحنته كأنه يخفى شيئا خطر له ، فبادره ركن الدين قائلا : « قل ماذا قال غيرهم ؟ »

قال عابد : « يظن بعضـــهم ان شـــوكار اختفت .. لكنهم لا يعلمون أين هى .. ولا كيف ضاعت ؟ .. »

فصاح ركن الدين : « لعل سلافة قتلتها ؟ »

قال عابد : « لا .. لا سمح الله . والمشهور عندهم أن سلافة أحب الناس اليها وهى التى بذلت جهدها فى راحتها .. فكيف تقتلها ؟ .. على انهم لا يعرفون هل هى على قيد الحياة أو ماتت ، لكنهم يعرفون انها كانت تشكو صداعا ، واحتضنتها سلافة ثم نقلتها الى قصرها للاستشفاء ، ولا يعلمون ماذا جرى بعد ذلك ، فلعلها مقيمة عندها الى الآن بحيث لا يراها أحد »

فهز رأسه هزة الانكار والتفت الى سحبان كأنه يستطلع رأيه فى الأمر فرآه مطرقا يفكر .. وكان قد ابتعد عنهما فى أثنـــاء الحديث ، وخاطب بعض العارفين من أهله عن أخبار التتر وهولاكو ، ثم عاد فجلس وسمع بقية الحديث . ولم يكن هو مطلعا على ما بين سلافة وشوكار من التحاسد ، لكنه كان يعرف جرأة سلافة وسوء نيتها ، وقد جرَّب ذلك بنفسه .. فرفع بصره الى ركن الدين وقال : « ان سلافة شريرة لا تقـــدّر العواقب فيما ترتكبه من المنكرات .. أنا أعرفها جيـــدا ، واذا كانت قد جاءت الى بغداد ، فوجودها فى قصور الخلفاء خطر على الناس .. لأنها اذا عزمت على أمر اندفعت اليه بكليتها ، ولا يغرنك انها حاسنت شوكار أو صادقتها .. فاذا رأت فى أذاها نفعا لها لا تتأخر عن ذلك .. »

فوافق ذلك ما فى خاطر ركن الدين فهاج غضبه ، وأخذ صدره يصعد ويهبط كالأسد الهائج ، ولم يتمالك عن النهوض كأنه يهم بالمسير ، فأمسكه سحبان وقال : « ماذا تريد يا سيدى ؟ .. »

قال ركن الدين : « أريد ؟ أريد أن أبحث عن هذه اللعينة فاذا كانت قد ألحقت الأذى بشوكار أطرت رأسها عن جسدها »

قال سحبان : « تمهل .. ان الوصول اليها الآن صعب لأنها فى قصور الخلافة ، ولكن هذه القصور لا تبرح أن تفتح أبوابها لكل قادم ، فنفعل ما نريد بسلافة وغيرها ، وعسى أن نوفق الى العثور على شوكار وهى بخير .. تعال معى لأريك شيئا جديدا سمعته الساعة ، وهو يخفف ما بك من القلق ويهوّن عليك الصبر » ..

وأخذ بيده وخرج به الى مسجد بالقرب من داره ، وأصعده الى مئذنة عالية تشرف على بغداد كلها ، وكان الجو صافيا .. ولفت نظر ركن الدين الى شرقى بغداد حيث قصور الخلفاء وقال : « انظر الى الرصافة التى كنا فيها منذ ساعة وفيها قصور الخلفاء وحدائقها ، ومدارسها ، وغيرها ، ووراء ذلك سورها المحيط بتلك القصور من الشرق .. ولهذا السور عدة أبواب وأبراج فى جملتها برج هائل عند الزاوية الشرقية الجنوبية هو برج العجمى ، واذا أمعنت النظر جيدا رأيت وراءه خياما وأعلاما .. تلك خيام هولاكو وأعلامه »

فأجفل ركن الدين وقال : « خيام هولاكو ؟ هولاكو وصل بجنده الى هنا ؟.. »

قال سحبان : « وصل من الشرق وحاصر بغداد من جهة برج العجمى هذا ، وقد سمعت أن قائده باجو وجنده دخلوا بغداد من الغرب ، وهم فرقتان : احداهما معسكرة عند المارستان العضدى ، والأخرى عند المبقلة تجاه قصر التاج .. فهل بعد هذا ترجو نجاحا للمستعصم .. ؟ »

فقال ركن الدين : « لكن القوة الحقيقية على ما أعلم فى شرقى بغداد حيث قصور الخلفاء ، والأمر أصعب على التتر مما تظن يا صاحبى ، ان أسوار ذلك القسم متينة وجندها قوى »

قال سحبان : « سترى .. هلم بنا ننزل ، وفى خاطرى أن أذهب الآن الى مؤيد الدين لأقف على رأيه فى هذه الأحوال ، لأنه داهية مدبر عاقل .. وأستشيره فيما ينبغى أن نفعل »

فنزلا وطلب سحبان من ركن الدين أن ينتظره فى المنزل ، وأوصى الخدم به ، وفيهم عابد ، ومضى ..

— ٦٠ —

ركن الدين وسحبان

فلما خلا ركن الدين بنفسه ، بعد ما شاهده فى بغداد من اضطراب أحوالها واختلال أمورها وما يهددها من الخطر ، جلس

وهو يفكر فى مصيرها وترجح لديه ان التتر سيفوزون .. واذا انتصروا هل يقلبون الحكومة ويمحون الخلافة ، أم يبقون عليها ، أم يبدلون خليفة بآخر . وتذكر مطامعه فى سلطنة مصر وهو يرجح مصيرها اليه لضعف القائمين بها هناك ، وتذكر حاجته الى مصادقة الخليفة والا فان سلطته لا تثبت .. فتمثلت له أهمية بغداد مركز الخلافة الاسلامية ، وكيف ان العالم الاسلامى على بكرة أبيه فى مشارق الأرض ومغاربها لا غنى له عنها . لايثبت السلطان على عرشه ان لم يأته تثبيت من خليفة بغداد ، نظرا لما للخلافة فى نفوس العامة من الاحترام الدينى .. ثم تأمل فى حال هذه المدينة وخليفتها كما علم فى ذلك اليوم ، فاستغرب سلطان الأوهام على الناس .. واستدرك على استغرابه ان رجال السلطة لا غنى لهم عن الأوهام ليسوقوا بها تيار العامة الى حيث يريدون . ولما وصل فى تصوره الى هنا أطرق ، وقد خطر له خاطر رقص له قلبه طربا رغم بُعده عن المألوف . ولكن المرء اذا رغب فى أمر لايزال يفكر فيه حتى يرى المستحيل ممكنا .. خطر له بعد ما شاهده من اضطراب أحوال بغداد وما يحدق بها من الخطر لو انه ينقل الخلافة منها الى مصر ، فتصير تلك الأهمية الى مصر بدلا من بغداد ، وتصير القاهرة مركز العالم الاسلامى لا يستغنى عنها أمير أو سلطان ، وان استقل عنها بادارة حكومته فهو فى حاجة الى خليفتها فى تثبيته . ولو كان المفكر فى ذلك سحبان لرقص فرحا وتصور نفسه قد نقل الخلافة الى مصر ، وصار هو سلطانا يخطب رضاه

سـائر السـلاطين .. لكن ركن الدين كان ضـعيف الثقة فى المستقبل ، اذا بدا له أمل فى أمر يناله .. بحث عن كل ما يمكن أن يحول دون الظفر به ، وهو أميل الى الأخذ بأسباب الفشل .. فلما خطر له أمر الخلافة تصور العراقيل الكثيرة التى تحول دونه ، فعاد الى التفكير فى شوكار فهاجت أشجانه ..

قضى فى هذه الأفكار برهة جاءه فى أثنائها عابد يدعوه الى الطعام مرة والى الصلاة مرة أخرى ، وبدل ثيابه حتى دنا الأصيل فقيل له ان سحبان عاد من عند مؤيد الدين ، وبعد قليل جاء سحبان والاضطراب ظاهر على وجهه ، والغضب يتجلى فى عينيه فناداه ركن الدين : « ما وراءك ؟.. هل رأيت الوزير ؟ »

قال سحبان : « لم أره .. »

قال ركن الدين : « ولماذا ؟ »

قال سحبان : « لأنه ليس فى منزله وقد برحه بعد خروجنا من عنده » ..

قال ركن الدين : « الى أين ؟ .. »

قال سحبان : « بعثه المستعصم الى هولاكو .. والظاهر أن هذا الخليفة تحقق من الخطر المحدق به ، وهو يعتقد فى دهاء وزيرنا وتعقله .. فأنفذه اليه ليسترضيه .. »

قال ركن الدين : « هـل الى هـذا الحد بلغ الضعف من خليفتكم ؟ .. »

فابتسم سحبان وقال : « ألم أقل لك ذلك من قبل ، وارسال

وزيرنا فى هذه المهمة أحسن رأى رآه المستعصم ، لكن أخشى أن يكون قد جاء متأخرا عن أوانه ــ لأن هولاكو كان قد اشترط ذلك من قبل للكف عن العدوان .. وأشار به الوزير ولم يطعه المستعصم ، لأنه كان يسىء الظن به ويصدق ابنه أبا بكر وهو مغرور بنفسه ــ فالظاهر أن المستعصم لما رأى جند التتر محاصرا قصوره وسمع دوى المجانيق ووقوع قنابلها على القصور ، ورأى عجز جنده عن المقاومة ، لجأ الى المسالمة ، وقد أحسن لأن وزيرنا ــ حفظه الله ــ له دالة على هولاكو فيشير عليه بما فيه راحة الجانبين »

فقال ركن الدين : « لم أفهم مرادك من دالة الوزير لدى التتر وما هو الباعث عليها ، هل كانت بينهما معرفة ؟ »

قال سحبان : « لا أخفى عليك يا مولاى ان بين الوزير وهولاكو مخابرة بهذا الشأن ، أعنى ان هولاكو خابره وطلب اليه أن يكون معه ، ووعده بكل خير .. وظل مؤيد الدين مدة يتردد وهو ينصح الخليفة ويحذّره ، فلما يئس من اصلاحه خابر هولاكو خوفا من انه اذا جاء وفتح بغداد ينتقم منه ومن أهله وسائر الشيعة .. أما اذا أظهر موافقته فانه يراعى جانبه ، ولم يفعل ذلك على سبيل الخيانة .. »

ففهم ركن الدين من ذلك ان مؤيد الدين خان خليفته ، ولو تنصل من ذلك وزعم انها ليست خيانة . فقال فى نفسه : « لاشك ان هذا من أكبر أدلة السقوط » . ولم يبد رأيه فى

ذلك ، لكنه سـألـه قائلا : « وما الذى تظن ان الوزير يفعـله الآن اذا اجتمع بهولاكو ؟ »

قال سحبان : « أظنه يتفق معه على خلع المستعصم وتنصيب الامام أحمد أخى المستنصر ، فانه أجدر بنى العباس بمنصب الخلافة ، والمستعصم يخشاه .. ولذلك حبسه فى قصره ، وأقام عليه الرقباء ، فهذا الامام قد عرفناه واجتمعنا به وخاطبناه فى أمر الخلافة اذا صارت اليه فوعدنا بكل خير . ولا شك انه يسهل عليك سلطنة مصر ويساعدك عليها ، فانك أولى بها من سائر الأمراء » ..

فعلم ركن الدين أن سحبان يرغبه فى القيام ضد المستعصم ، وتأييد تنصيب الأمير أحمد خليفة .. لكنه يطمع فيما هو أكثر من ذلك .. يطمع فى نقل الخلافة الى القاهرة .. غير انه لم يسمح لذلك الخاطر أن يتمكن من نفسـه خوفا من ظهوره لأحـد ، فاكتفى بموافقة سـحبان على تنصيب الامام أحمـد بدلا من المستعصم وقال : « وأين هو الآن ؟ .. »

قال سحبان : « كان محجورا عليه فى قصر الفردوس بجوار قصر التاج ، ثم أحدقت الشكوك به فنقلوه الى قصر عند باب كلواذى وأقاموا الحرس حوله . وأنا أعرف مكانه ، ومن أسهل الأمور علىّ اذا تم اتفاقنا على خلع المستعصم أو قتله أن أخرج الامام أحمد من سجنه وأنادى به خليفة مكانه . ولا أجد من يخالفنى لأن الناس سئموا ضعف السياسة ، ولاسيما اذا علموا

ان هذا التبديل كان بارادة الخاقان هولاكو قائد التتر .. فماذا ترى ياسيدى ؟ »

قال ركن الدين : « أراك مصيبا .. ونعم الرأى رأيك ، وفقك الله الى اتمامه » لكنه حالما سمع اسم باب كلواذى تذكر ما سمعه من عابد عن سلافة ، وانها أخذت شوكار الى قصرها قرب هذا الباب ، وعادت اليه هواجسه حول شوكار .. هل هى على قيد الحياة أو ماتت ، وهل سلافة لا تزال على كرهها لها .. فوجّه سؤالا الى سحبان قائلا : « سمعتك تذكر باب كلواذى وسجن الامام أحمد عنده ، وأمس سمعت عابدا الخصى يذكر هذا الباب وان قصر سلافة عنده فكيف ذلك ؟ »

قال سحبان : « ان كلواذى ياسيدى حى فيه باب من أبواب سور بغداد سمى باب كلواذى ، وبقربه قصور كثيرة كما تقولون بمصر : باب زويلة ، وباب النصر ، وباب الفتوح ، فقد أصبحت أسماء أحياء فيها قصور عديدة »

وقضيا بقية اليوم فى مثل ذلك .. وركن الدين أكبر همه الوصول الى شوكار ومعرفة حالها وانقاذها أو الانتقام لها .. وبات وهو يحلم بها ..

— ٦١ —
رسالة هامة

وأصبح فى اليوم التالى وقد ملّ الانتظار .. لكنه توسم فى

بقائه هناك خيرا ينفعه فى تحقيق مطامعه السياسية ، على انه كلما فكر فى شوكار خفق قلبه ورأى انه أساء اليها ، لأن ما أصابها من الأذى انما كان بسببه ، وبينما هو فى ذلك اذ جاءه عابد وفى وجهه خبر ، فقال له : « ما وراءك ؟ .. »

قال عابد : « بالباب رسول من سلافة معه كتاب اليك »

فلما سمع اسمها اقشعر بدنه ، وقال : « ليدخل »

فدخل الغلام ودفع الكتاب الى ركن الدين وتناوله ، فاذا فيه : « من سلافة الى الأمير ركن الدين .. بلغنى انك فى بغداد، وأنا فيها .. وعندى أمر يهمك أحب أن أعرضه عليك ، فاذا شئت تفضل الى قصرى بباب كلواذى .. وهذا رسولى يهديك اليه .. والسلام »

فلما قرأ الكتاب دفعه الى سحبان كى يعرف رأيه فيه ، فحذّره من الذهاب .. فقال ركن الدين : « لابد من الذهاب لأرى هذه الداهية وأتحقق من أمر شوكار .. وماذا عساها أن تفعل بى ؟ .. عار علىّ أن أخاف منها وخنجرى معى ، لكن أين موقع قصرها من هنا ؟ »

قال سحبان : « هو بعيد .. لابد للذهاب اليه من المسير مدة طويلة ثم تعبر دجلة فوق الجسر الذى جئنا منه حتى تصل الى باب كلواذى . اذا شئت المسير ، هذا فرسى بين يديك ، وهذا عابد يسير فى ركابك ، فضلا عن الرسول القادم من عندها »

فوقف ركن الدين وقال : « اذهب الساعة » وتحوّل الى

غرفة نومه وأصلح هندامه وتسلح بخنجرين وتشدد . ثم خرج وركب الفرس ، وسار عابد فى ركابه والرسول يمشى بين يديه . ولاحظ فى أثناء الطريق ان أهل الكاظمية فرحون مسرورون ، وقد كبرت نفوسهم وهاجت نقمتهم على جيرانهم من أهل السنة ، لأن هؤلاء كانوا يعتزون بالخليفة وحكومته ، فلما آنسوا فيهما ضعفا ضعفت نفوسهم . ولما خرج من الكاظمية رأى الناس فى وجل وشقاء وخوف شديد ، وهم يجتمعون جلوسا أو وقوفا للمداولة فى الأحوال الجارية ، ويتلقفون الأخبار من أفواه المارة متناقضة متباينة ..

وصل الى الجسر وقطعه الى الرصافة ، والناس هناك أقل قلقا لقربهم من قصور الخلافة ، اذ لا يسمع فيها غير ما يدعو الى ثقة الناس بقوة جندها ومناعة حصونها رغم ما كان يتساقط عليها من حجارة المجانيق حينا بعد آخر .. فاذا سقط حجر على بيت صدعه أو على رجل قتله . وهى حجارة صوانية كروية الشكل قطر الواحد منها نصف متر أو أكثر يقذفه المنجانيق من معسكر التتر على أبراج السور ، أو على بعض القصور ، وكانت الأسوار تجيب بمثلها . هذه هى مدافع تلك الأيام .. ولكن الضرب على كل حال لم يكن شديدا لتوقف القتال للتداول

وانتهى مسيره أخيرا الى ضفة دجلة الشرقية ، فوقف الرسول والتفت الى ركن الدين وأشار بأصبعه الى قصر على ضفة النهر تحيط به حديقة ، وحول الحديقة سور .. دخل ذلك السور

راكبا ، فتقدم الرسول لاعلان وصــوله ، وترجل ركن الدين وسلم زمام الفرس الى عابد ، وأوصاه أن ينتظره ويكون على حذر ، ومشى فى الحديقة وقلبه يخفق تطلعا الى ما يكون من أمر سلافة وصورتها لا تزال فى ذهنه كما فارقها المرة الأخيرة

– ٦٢ –

المقابلة

وبينما هو يمشى ، اذ عاد اليه الغلام وأشار اليه أن يتبعه .. فلما وصل الى باب القصر رأى سلافة واقفة فى انتظاره ، وقد لبست أجمل ما عندها من الحلى والثياب وبذلت جهدها فيما تملك به قلبه .. أما هو فقد كان مدرّعا بالتعقل وحب شوكار ، فحياها ، فردت التحية ورحبت به ترحيبا كثيرا ودعته الى قاعة مفروشـــة أحسن فرش .. فيها النمارق والستائر والطنافس ، وأشـــارت اليه أن يجلس وهى تقول له : « من كان يظن اننا سنلتقى فى هذا البلد ؟ » وابتسمت

فقال ركن الدين : « ان الصدف تأتى بأعجب العجب »

قالت سلافة : «الصدف ؟.. هل تظن اننا التقينا هنا مصادفة ؟»

قال ركن الدين : « نعم .. لأنه لم يخطر لى انك ســوف تجيئين الى هنا »

قالت سلافة : « هــذا يصح من جانبك .. وأما أنا .. أنا

المسكينة الشقية فيخطر لي كل شيء .. وأبذل راحتي وحياتي في سبيل لقاء ركن الدين . لم تخطُ خطوة في مصر وغيرها الا عرفتها وحسبت لها حسابا » وتنهدت .. فتشاءم ركن الدين من هذه المقدمة وأراد تغيير الحديث ، فقال : « أشكرك ياسيدتي على حسن ظنك بي . وصلني كتابك فجئت بناء على طلبك ، لكنني أتقدم اليك بسؤال .. وأرجو أن تجيبيني عليه بصراحة »

قالت سلافة : « قل ما تريد .. »

قال ركن الدين : « بلغني ان شوكار جاءت اليك في هذا القصر فأين هي ؟.. » قال ذلك وهو يخشى أن يسمع خبر موتها أو قتلها ، فتجلد وهو ينتظر الجواب .. فأبطأت سلافة في الاجابة ، وهي تنظر اليه نظر الاستغراب ثم قالت : «مسكينة..»

فصاح فيها : « مسكينة .. أين هي ؟ .. »

قالت سلافة : « ليست هنا .. لعلك تذكر اني كنت ناقمة عليها ، وقد قلت لك اني أحببت بُعدها رغبة في قربك .. لكنني شعرت هذه المرة حين لقيتها في قصر الخليفة انها لا تستحق العذاب لسلامة قلبها وطيب عنصرها..» وتنهدت وأظهرت سلامة النية وشدة الأسف ..

فقال ركن الدين : « قولي .. ما بالها ؟.. أين هي ؟.. ماذا جرى لها ؟ .. »

قالت سلافة : « قلت لك انها ليست هنا .. »

قال ركن الدين : « فهمت .. انها ليست هنا .. فأين هى ؟.. قولى .. »

فنظرت اليه نظرة العاتب وقالت : « لله انت ما أكثر تسرعك.. أمثلك بين الأمراء الطامع فى الملك ، وقد أوشك أن يناله ، لايصبر على سماع حديث قصير عن جارية ؟ اسمع لأقصّ عليك خبر هذه المسكينة . رأيتها فى أول يوم جاءت فيه الى قصر التاج وسررت بها ، وقد ملأت قلبى وندمت على ما فرط منى فى حقها واستأنست هى بى ، وقصت علىّ حديثها معك ، وانها لا تود البقاء بعيدة عنك ، ولو كان مقامها فى قصر الخليفة . فأشرت عليها أن تحتال بالمرض.. ونظرا لما لى من النفوذ فى دار النساء وعند الخليفة تمكنت من اقناعهم بأنها مريضة ، وانها فى حاجة الى تبديل الهواء ، وفى اليوم التالى انتقلت أنا الى هذا القصر وبعثت من يأتى بها الىّ ولبثت فى انتظار مجيئها ..» وسكتت وأظهرت انها غصَّت بريقها ، فقال ركن الدين : « وبعد ذلك هل أتت ؟ »

قالت سلافة : « لا .. لم تأت .. »

فصاح ركن الدين : « اذن ماتت أو غرقت .. أم كيف ؟ »

قالت سلافة : « احسب كما تشاء .. انها ماتت والسلام .. »

فنهض وقد حمى غضبه وقال : « لا .. لم تمت .. انك خبأتها فى مكان .. »

فضحكت وهى تنظر اليه باستخفاف : « بل ماتت يا ركن الدين ويسوءنى انها ماتت . وقد أخبرنى النوتية الذين حملوها

الىّ فى القارب انها غاصت فى الماء رغم ارادتهم .. ارجع يا ركن الدين الى رشدك واستسلم لقضاء الله .. ولا تسلك مثلما يسلك النساء ، وتبكى على جارية .. وبين يديك سلافة تعرض عليك نفسها ، وهى الى ذلك تعرض عليك منصبا لم يحلم به أحد من سلاطين مصر .. »

فترجح له موت شوكار وهو فى ريب من سبب موتها ، وان كان يرجح ان سلافة سعت فيه رغم تنصلها منه واظهارها الميل اليها .. فأسف أسفا شديدا ، وود أن يقتل سلافة انتقاما لها ، لكنه لم يتحقق من انها هى القاتلة . ومع ذلك أراد أن يعرف ما هو المنصب الذى تعرضه عليه ، فرأى من الحكمة أن يسمع حديثها الى آخره ، فقال «مسكينة شوكار.. وا أسفاه عليها ..»

فقالت هى معه : « مسكينة .. لقد شق والله علىّ موتها .. ولكن ما الحيلة ؟.. لابد لنا من التسليم للقضاء والقدر ، والآن هل تريد أن أخبرك عما انتدبتك له ؟ .. »

قال ركن الدين : « وما هو ذلك ؟ .. »

قالت سلافة : « لنجلس ولنتحدث .. » ومشت به الى القاعة فجلست ، وقد سرّها انه أطاعها وأصغى اليها .. وظهر السرور على محياها وقالت : « لعلك تعرف الاضطراب المستحوذ على الدولة بسبب حصار التتر ، وهـذا هولاكو عند برج العجمى ولم يصل الى هنا الا لضعف رأى الدوادار قائد الجند . وقد غضب مولانا أمير المؤمنين منه وأراد ابداله ، وحدثنى أستاذ

الدار فيمن يليق بهذا المنصب ويرجى منه أن يرد شرف الجند العباسى ويدفع العدو عن أسوار بغداد ، فلم يخطر ببالى سواك.. وان كنت لا تبرح من بالى على كل حال (وابتسمت) . أما الآن فانى لا أعرف قائدا يستطيع أن ينقذ الدولة من هـذا الضيق سواك ، وأنت اذا صرت قائد جند بغداد هان عليك أن تكون كما تشاء ، وأنا أضمن لك سلطنة مصر أو غيرها كما تريد .. بشرط أن تعترف بأنى أحبك وأتفانى فى الظفر بك ، وأن تقول لى انك تحبنى .. أو على الأقل لا تحب سواى »

فأطرق برهة واستجمع قواه .. وقد عرفناه من أصحاب المطامع طلاب المصلحة قبل كل شىء ، وانه أحب شوكار فى بادىء الأمر شفقة عليها ، ثم أحبها حقيقة بعد ما قاسته بسببه من الشقاء . وكان يود أن يجعلها سـعيدة ، أما الآن وقد ماتت فليس من الرجولة أن يموت فى أثرها.. وان كان موتها قد شق عليه كثيرا ، ولم يطاوعه قلبه أن يحب التى كانت تبغضها أو التى كانت سبب موتها .. لكن ذلك لايمنع من أن ينظر فيما تعرضه عليه ، لعل فيه ما يبلغه الأمانى التى طالما تاقت نفسه اليها وحلم بها . وقد تأكد من قرائن كثيرة ان سلافة ذات نفوذ لدى الخليفة وأهله وحكومته .. فخطر له انها قد تفيده فى تحقيق مطامعه ، فأراد مسايرتها مع الاحتفاظ بمكانته ، فقال : « لا أرى فىّ الكفاءة لهذا المنصب ياسيدتى ، ولا أشعر بميل للحديث عن المناصب الآن .. سننظر فى ذلك فى فرصة أخرى »

فقالت سـلافة : « هذا أمر لايمكن تأجيله لأن الدولة فى حرب ، وهذه قنابل المنجنيقات تصل الى قصورنا صباح مساء ، وأما كفاءتك فأنا أعلم الناس بها . لم يبق الا انه يشق عليك يا قاسى القلب أن تعترف بحبى لك .. فكيف لو طلبت اليك أن تعترف بحبك لى ؟ يا لله ما أقسى قلبك..اسمع ، هذا أستاذ الدار قادم الىّ لأنى أسمع صوته بالباب يخاطب الحاجب فى الدخول ، انه آت ليرى ماذا فعلت ، هل أقنعتك بقبول القيادة .. فبالله لا تخجلنى بين يديه ، أما اعترافك بحبى لك فأتركه حتى تظفر بهذا المنصب وغيره مما ستراه منى .. »

— ٦٣ —

فى قصر التاج

ثم دخل الخادم يستأذن لأستاذ الدار ، فخفت لاستقباله الى الباب ، وأخذت ترحب به لما تعلمه من نفوذه لدى الخليفة .. ثم دخلت به الى القاعة ، وأشارت الى ركن الدين وهى تقول : « هـذا هو الأمير ركن الدين البندقدارى الذى قهر الافرنج وأرجعهم عن مصر .. وقد أخبرتك عنه بما يكفى ، وأنا أباحثه الآن فيما انتدبتنى له وأشكر الظروف التى جاءت به الى بغداد»

فنظر أستاذ الدار اليه وهشّ له ، وقد أعجبه ما فى طلعته من أدلة الشجاعة والذكاء وقال : « يسرنا أن يكون فى الأمير ركن

الدين ما يرضى مولانا أمير المؤمنين ، ويبعــد عنا العار الذى سببه الدوادار السابق بسوء تدبيره ؛ هل تريد أن نذهب معا الى قصر التاج الساعة ؟ .. »

فأراد ركن الدين أن يعتذر بعدم استطاعته ، فاعتبر أستاذ الدار ذلك منه تواضعا وقال : « لا .. لا تقبل منك عذرا ، هلم معى الى أمير المؤمنين » قال ذلك ومشى ، فالتفتت سلافة الى ركن الدين لفتة هيام ، وأمسكت يده بحجة الوداع وضغطت عليها وهى تقول : « سرنى النجاح فى هذه المهمة ، وعسى أن تفوز بانقاذ الدولة من الخطر .. وأما أنا فاذا مت بعد هذا ، فحسبى انك أطعتنى فى شىء عرضته عليك ، ولو لم يكن فيه غير زيادة الحرقة على قلبى .. واذا التقينا بعد الآن فسوف نرى ..»

فأوشكت أن تستولى على قلبه ، لكنه لم يزد على أن حياها مودعا وانصرف فى أثر أستاذ الدار ، فركب كل منهما فرســه ومشى عابد فى ركاب ركن الدين الى قصر التاج ..

سار ركن الدين وهو غارق فى تفكيره على أثر ما شاهده من سلافة ، وهو لا يفهم حقيقة حالها .. على انه تصرف كما ينبغى لرجل عاقل بصير .. ولم يلم نفسه لعدم انتقامه لشوكار لأنه لم يكن متأكدا من حقيقة مصيرها .. وهل تعمدت سلافة أذاها ، وان كان يميل الى اتهامها بناء على سابق عهــده بها .. لكنها شغلته بأمر ذلك المنصب . ثم جاء أستــاذ الدار فلم يسعه الا السير معه الى الخليفة وفى نفسه ان هذا كله لا يمنع من انتقامه

لشوكار عند ما يتأكد انها هى التى قتلتها

قطع مسافة الطريق وهو لا ينتبه لرفيقه الراكب الى جانبه ، ولا الى اشتغال القوم بأخبار التتر ، ولا سمع وقع قنابل المجانيق على المنـــازل وان كان ذلك بعيـــدا عن طريقهم ، فقد يسمعه من يحاول ذلك .. ولكنه حالما وصل الى قصر التاج ، وجد أهله فى هرج واضطراب لكثرة ما تساقط حوله من حجارة المجانيق أو النبال . ووجه التفاته الى أستاذ الدار ليقلده فيما يفعله من التقاليد المعتادة .. فلما رآه تحوّل عن دابته ، تحول هو أيضا وســـار فى أثره حتى أقبلا على باب مجلس العامة .. فلاقاهمـــا الحاجب ، فأمره أستاذ الدار بالاستئذان له .. وما لبث أن جاء الاذن ، فدخل والأمير ركن الدين يتبعه ..

فألقى الأستاذ التحية على جارى العادة ، ثم قال : « يأذن لى مولاى أمير المؤمنـــين أن أقـــدم له الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى . وكنت قد ذكرت اسمه لمولاى وانه خير من يقوم بقيادة جند بغداد فى هذا الوقت العصيب . وقد اشتهر بمهارته فى الحرب وتدبير الجند كما شهدت به سلافة القهرمانة »

وكان الخليفة فى تلك الساعة مطرقا يفكر ، وليس عنده فى مجلسه أحد ، كأنه التمس الانفراد للتفكير .. فلما سمع قول أستاذ الدار قال : « مرحبا بالأمير ركن الدين » وأشار اليه أن يجلس وقال له : « هل صحيح ما يقوله أستاذ دارنا ؟ .. »

قال ركن الدين : « ربما كان صحيحا بالنظر الى حسن ظنه ،

أما أنا فلا أرى فىَّ الكفاءة لهذه المهمة لأنى من أحقر القواد »

فأعجب الخليفة بتواضعه ، فقال : « بل انت قائد باسل وكلام القهرمانة سلافة مصدق عندى . ونحن الآن فى حرب مع عدو غريب هو عدو كل مسلم ، لأنه اذا فاز — لا قدر الله — فى حربه معنا لا تنجو مصر من أذاه ، فأنت مطالب بقهره للدفاع عن الخلافة ببغداد وعن السلطنة بمصر .. وأنت فاعل ان شاء الله ، ولو عرفت فضلك من قبل لما سلمت قيادة جنودنا الى الدوادار الذى ألبسنا العار .. فعسى أن تكون وسيلة لمحو هذا العار عن جيش بغداد .. » قال ذلك وتنحنح ، وأظهر انه لم يكمل حديثه بعد ، فظل ركن الدين ساكتا

ثم عاد الخليفة الى الكلام قائلا : « اظننا أخطأنا لأننا لم نصغ الى رأى وزيرنا مؤيد الدين من أول الأمر . فلو أطعناه لما اضطررنا الى انفاذه الآن لطلب الصلح وتأجيل الحرب ، ولا ندرى اذا كان طلبنا يُجاب.. ولكن سامح الله أبا بكر، انه تجاوز حقوق الأبناء وكدر قلبى على الوزير ، فالآن انظر أيها الأمير انى جاعل امارة جند بغداد اليك .. فاذا دفعت به العدو كافأتك بما أنت أهله .. »

فأجاب ركن الدين : « ان الدفاع عن دار السلام وأمير المؤمنين فرض على كل مسلم ، وانى باذل روحى فى هذا السبيل وعسى أن يوفقنى الله الى القيام بهذا الواجب »

- ٦٤ -

شروط الصلح

وبينما هم فى ذلك ، اذ دخل الحاجب وقال ان الوزير مؤيد الدين بالباب ، فأشرق وجه الخليفة وظهر التطلع فى عينيه . وحالما دخــل مؤيد الدين لم يصبر المستعصم عليه حتى يلقى التحية فصاح به : « قل ماذا جرى ؟ .. »

قال مؤيد الدين : « كل خير ياسيدى .. والتوفيق من عند الله .. »

قال الخليفة : « اجلس وحدثنا بما جرى .. »

فجلس والعرق يكلل جبينه وأخذ فى الحديث ، فقال : « لقيت خاقان التتر هولاكو ، وبينت له تعديه علينــا بغير حق ، واننا لا نخشاه لكننا نحب حقن الدماء ، فأجابنى بجفاء .. وبعد جدال طويل لم يقبل الكف عن الحرب الا اذا ذهب مولانا أميرالمؤمنين بنفسه الى معسكره ، على شرط حفظ شرفه ومقامه .. وأن يبقى على خلافته كما فعل بمن حاربهم من الملوك ، وقد قال لى انه لا يهمه تغيير الملوك والخلفاء وانما يهمه أن لايهان جنده . وهو يعد رفض مولانا أمير المؤمنين نجدته على الاسماعيلية اهانة لأنه كان يريد بذلك قطع دابر أولئك القوم لينجو العالم منهم . ثم حارب القوم وحده وغلبهم وبعث الى مولاى يعاتبــه فلم يرد

عليه . وكنت أنا العبد قد أشرت على سيدى أن يبعث اليه بهدية فمنعه بعض خاصته من ذلك . وبعث الينا هولاكو انه لم يعد يقبل هدية ولا يرضى الا أن يذهب اليه الوزير أو الدوادار فلم نفعل.. فعدَّ ذلك اهانة مكررة لا يقبل ترضية عليها الا أن يركب مولانا أمير المؤمنين اليه ، ويكون هناك معززا مكرما مع رجال خاصته .. وقد أخبرنى بأننا اذا أطعناه فى ذلك فهو عازم على أن يزوج ابنته من مولانا الأمير أبى بكر .. »

وكان الوزير يتكلم والعرق يتصبب من جبينه خجلا من حمل هذه الرسالة الى الخليفة . والخليفة مطرق يسمع ولا يتكلم ولا يبدى حركة وكذلك ركن الدين . فلما فرغ مؤيد الدين من كلامه ، رفع المستعصم رأسه وتنهّد وقال : « لو اننى أصغيت الى رأيك فى أول الأمر لما وصلنا الى هذه الحال.. على اننى أرجو أن نفوز على هذا التترى ونرده عن بلدنا بعد أن عهدنا بقيادة الجند الى الأمير ركن الدين .. » ولبث ينتظر جوابه

فقال الوزير: « ان ركن الدين أهل لثقة مولاى أمير المؤمنين ، وقد يأتى النصر على يده . لكننى أخشى أن يكون جندنا أضعف مما نظن ، ولا يبقى باب للصلح .. وقد عرض علينا القوم صلحا تحقن به الدماء ، ومع ذلك فالأمر لمولاى .. »

فقال الخليفة : « لكن هذا الطاغية يطلب أن أذهب أنا بنفسى الى معسكره ؟ .. »

قال الوزير : « كلا يامولاى .. لقد رضى أن يركب مولاى

بأعوانه ورجال خاصته الى فسطاط ننصبه لهم عند باب كلواذى مما يحاذى الشاطىء ، فيلاقيه هولاكو هناك وينقضى الأمر »

فهان عليه القبول بعد هذا التسهيل ، لكنه التفت الى أستاذ الدار واستشاره فى الأمر ، فأشار بالقبول لأنه رأى الخليفة يميل الى السلم .. ذلك كان دأبه اذا استشاره الخليفة ، فيجعل نصب عينيه أن يرضى احساس مولاه . فاذا رآه يميل الى رأى أشار عليه به ــ شأن المتملقين المتزلفين فى كل زمان ومكان . وهؤلاء اذا كان الأمير أو الخليفة عاقلا نبذهم ، واذا كان ضعيفا أصبحوا من المقربين اليه ، فيفسدون حكومته ويعينون على سقوط دولته

فاستقر رأى الخليفة على قبول ما طلبه هولاكو ، والتفت الى ركن الدين وقال : « قد سمعت ما أشـار به وزيرنا وقد طالما خالفنـاه ولم نر فى مخالفته خيرا .. أما الآن فالرأى أن نطيعه ، وعلى كل حال فاننـا نعد الأمير ركن الدين من كبار قوادنا ، وعسى أن نوفق الى مكافأته » والتفت الى الوزير وقال : « متى نصب الفسطاط ذهبنا اليه ، وأنت تدبر ذلك .. »

فأشار الوزير مطيعا واستأذن فى الانصراف وانفض المجلس . وأومأ الوزير الى ركن الدين أن يوافيه الى منزله

فخرج ركن الدين وهو غارق فى بحار الهواجس ، وقد ساءه تنازل الخليفة الى هذا الحد . لكنه ركب الى بيت مؤيد الدين ليستفهم عن الحقيقة وعابد يرشده اليه ، فلما بلغه رأى مؤيد

الدين قد سبقه اليه وسحبان عنده ، وكان قد جاء للاستطلاع بعد علمه بخروجه الى هولاكو

— ٦٥ —

الحقيقة

دخل ركن الدين فوجد الوزير يمشي في غرفته ذهابا وايابا وقد قطب حاجبيه ، وأخذ منه التأثر مأخذا عظيما وهو يتشاغل بالتمشي وسحبان جالس ينتظر التفاته اليه . فلما دخل ركن الدين أومأ اليه مؤيد الدين أن يجلس فجلس . ثم وقف أمامه وقال : « أيها الأمير قد قضى الأمر .. »

فتصدى سحبان للكلام قائلا : « وكيف قضى ؟ .. »

فالتفت اليه وقال : « قضى كما تريد أنت ، لا كما أريد أنا ، ولا كما يريد الأمير ركن الدين .. »

فقال ركن الدين : « أفصح يامولاى .. »

قال الوزير : « لم أستطع أن أقنع هولاكو باستبقاء الخلافة العباسية .. انه مصمم على زوالها »

فصاح ركن الدين : « زوالها ؟.. يريد أن يقتل كل بنى العباس ؟ » ..

قال الوزير : « هكذا ظهر لى من لهجة كلامه ، وان قال خلاف ذلك .. » والتفت الى سحبان فرآه يضحك فانتهره قائلا :

« أنت تضحك لأنك لا تفكر فى العواقب .. اذا محيت الدولة العباسية ذهب الاسلام من هذه الديار »

فقال سحبان : « ولماذا ؟ .. نحن نعيد الخلافة العباسية .. »

فصاح فيه : « انك رجل أوهام وأباطيل .. اذا كنت ترجو ارجاع الدولة الفاطمية فانك ترجو المحال وتطلب اقامة الأموات» والتفت الى ركن الدين ، فرآه ينظر اليه يراقب حركاته ويوافق على كل حركة منها بملامحه وعينيه .. فلما التفت اليه ، نظر الى سحبان وقال : « قد أصاب الوزير فى قوله .. انه رجل عاقل مدبِّر.. وكم سمعتك تذكر أمر الفاطميين ، فهل سمعت منى موافقة على ذلك ؟ .. »

قال الوزير : « كنت اذا ذكرتهم سكت »

قال ركن الدين : « ان سكوتى يكفى .. واذا كان هذا الطاغية ينوى حقيقة ابادة العباسيين كافة ، فانه يحدث كسرا فى الاسلام يصعب جبره » ثم وجَّه كلامه الى الوزير وقال : « لكنك قلت للخليفة ان هولاكو ينوى استبقاءه »

قال الوزير : « هذا ما قاله لى هولاكو .. لكننى لا أصدقه وقد فهمت من خلال كلامه وقرأت فى عينيــه ما ذكرته لكم ، ويؤيد ذلك انه أعطانى رايات عليها علامته ، وأوصانى أن أنصبها على أبواب المنازل التى أريد حمايتها من الأذى أو على الطرق المؤدية الى منازل الشيعة .. فاذا رآها رجاله عرفوها وكفُّوا عن الأذى .. ألا يدل هذا على عزمه الذى ذكرته لكم ، وعلى كل حال

لا بأس من الاحتياط للمخاطر » قال ذلك وتحوّل الى ناحية من الغرفة أخرج منها راية صفراء عليها صورة خنجر أحمر ، ودفعها الى ركن الدين وقال : « خذ هذه .. لعلك تحتاج اليها » ودفع رايات أخرى الى سحبان وقال له : « خذ هذه الرايات اغرسها فى مداخل أحياء قومنا فى الكرخ والكاظمية .. افعل ذلك بلباقة لئلا يشعر بك أحد .. »

فتناول ركن الدين رايته وخبّأها تحت ثيابه ، وقد شق عليه الالتجاء الى هذه الراية للنجاة من السيف ، وهو قائد باسل تعوّد دفع الأذى عن نفسه وقومه بالسيف البتار .. لكنه أيضا حكيم عاقل ، يلبس لكل حالة لبوسها

أما سحبان، فانه مكث صامتا بعد ما سمعه من الانتهار الصريح وقد استولى عليه اليأس .. لكنه ما لبث أن رضى بما حدث ، ورأى ذلك فوزا عظيما للشيعة . ونظر الى ركن الدين وسأله عما فعله عند سلافة ، فاختصر فى الاجابة عليه ، لأنه شعر أنه بإزاء أمر مهم ينبغى له أن يسرع فى تدبره .. فاستأذن فى الانصراف

خرج من بيت مؤيد الدين وفكره تائه ، فتقدم عابد اليه بالجواد فركبه وهو لا يقصد مكانا خاصا . ثم خطر له أن يتجه الى منزل سلافة لأنه لايزال يرجو أن تكون شوكار على قيد الحياة ، والا فلا يليق به الخروج من بغداد قبل أن ينتقم لها . قضى مسافة الطريق وهو يردد ما سمعه من مؤيد الدين من عزم

هولاكو على ابادة العباسيين .. ففكر فى الأمر من ناحية مصلحته الشخصية كما يفعل كل انسان فى كل زمان .. ان ما يدور على أقلام الكتاب من أسماء الفضائل السامية ، كالأريحية ، والنجدة ، والاتحاد ، والشجاعة ، والاحسان ، وغيرها ليست فى الغالب الا أسماء مختلفة تدور حول معنى واحد .. هو «المصلحة الشخصية» فمن أراد أن يستنهض همم جماعة لعمل — وان كان هذا العمل بنفسه فضيلة — فانه لا يلقى مجيبا ، ان لم يكن فى ذلك العمل نفع عائد على كل منهم

فكّر ركن الدين فى مطامعه الراسخة فى قلبه .. ومحورها طلب السلطة على مصر . فرأى لذهاب الخلافة العباسية علاقة كبيرة بها .. وأعمل فكره للاستفادة من تلك الأحوال ، فعاوده الخاطر الذى كان قد مرّ فى ذهنه بالأمس ولم يجسر أن يتشبث به كثيرا لبعده .. نعنى أن يجعل مصر عاصمة الخلافة العباسية بحيث لا يستغنى عنها سلطان ولا أمير . وحالما مرّ ذلك فى خاطره أحس بارتياح ، وتذكر الامام أحمد وما سمعه عنه من اللياقة لهذا المنصب ، وانه محبوس قرب باب كلوازى . فرأى أن يقابله ويسعى فى انقاذه ، فاذا فتك هولاكو بسائر بنى العباس احتفظ هو بهذا الامام .. ومتى صار هو سلطانا على مصر جعله خليفة فيها ، فلما تصور ذلك رقص قلبه من الفرح

- ٦٦ -

استقبال حار

قطع الطريق الى باب كلواذى ، وهو غارق فى هذه الهواجس . ولم ينتبه الا والناس فى ازدحام وهرج عند ذلك الباب ، وقد أخذوا فى نصب الفسطاط للخليفة ، فعاد الى تذكر الخليفة وما علمه من مصيره وتذكر الامام أحمد لعلمه انه مسجون قرب باب كلواذى ، فنادى عابدا فدنا منه فقال له : « يقولون ان الأمير أحمد عم الخليفة مسجون فى قصر بهذه الجهات ، فهل تعرف مكانه ؟ .. »

قال عابد : « أظنه فى هذا القصر » وأشار بأصبعه الى قصر خلف قصر سلافة ..

قال ركن الدين : « هل تعرف أحدا من خدمه أو حرسه ؟ »

قال عابد : « كلا يامولاى لأنه نقل الى هنا من عهد قريب ، واذا شئت أن أبحث عن ذلك فعلت .. هل تريد الذهاب اليه الآن ؟ » ..

قال ركن الدين : « أريد الآن أن أعود الى سلافة ، وأبذل جهدى فى استطلاع خبر شوكار لأننى على أهبة السفر .. كن على استعداد يا عابد . هل تسافر معى الى مصر ؟ »

فبادر الى الجواب بامتنان : « ذلك شرف كبير لى يا مولاى ..

ولكن شوكار .. ماذا تفعل بها ؟ .. هل تذهب بدونها ؟ »

فأثر سؤاله فى نفس ركن الدين تأثيرا شديدا .. وكان أولى به أن يسأل نفسه هذا السؤال ، فقال وهو يستمهل الفرس فى المسير : « آه ياعابد ان سؤالك هذا دلنى على غيرتك وصدق خدمتك .. صدقت كيف تأتى بغداد لأجل شوكار ونرجع بخفى حنين ؟ هذا لا يكون .. أنا سائر الآن الى سلافة اللعينة ، ولا بد لى من أن أتأكد من خبر شوكار ، وعند ذلك أفعل ما تقضى به المروءة والوفاء » ..

وكان ركن الدين يسير على جواده الهوينى على ضفة النهر وعابد يماشيه ، فوصل الفرس الى عشب استهواه .. فوقف ليتناول منه شيئا . وكان قد فرغ من كلامه فقال له عابد : « أنظر يامولاى .. لا يليق بى أن أحذرك أو ألفت انتباهك ، لكننى أستأذنك فى هذا الأمر .. بلغنى عن سلافة هذه انها من أشر النساء وأدهاهن حتى ان الخليفة لايرد لها طلبا ، وأنت ستكون وحيدا فى قصرها فاحذر أن تغدر بك أو تستعين عليك ببعض الأشقياء خلسة » ..

فأثنى ركن الدين على غيرته وقال : « لا تخف علىّ يا عابد لكننى أوصيك بالانتظار فى الحديقة قريبا من القصر ، فاذا لاحظت مكيدة أو شيئا فنبهنى اليه بالنداء على أحد الملاحين المارين على هذا النهر ، اجعل نفسك كأنك تنادى نوتيا أوشك أن يغرق فتحذره من الغرق ، وأنا حالما أسمع صوتك أفهم المراد ..

وعلى كل حال لا تفارق الجواد وليكن مهيأ للركوب »

فأجابه مطيعا ودخلا الحديقة ، وأسرع الحارس فى ايصال خبره الى سلافة فهرولت لاستقباله ، وقد بدلت ثوبها بثوب أجمل منه وتلقته بالترحاب ودخلت به الى القاعة وهى تقول له : « أرجو أن تكون قد نجحت فى مهمتك .. »

فقال ركن الدين : « وأية مهمة ؟ »

قالت سلافة : « ألم تذهب فى هذا الصباح مع أستاذ الدار على أن تلقى أمير المؤمنين ليوليك قيادة الجند ؟ .. فهل تم الاتفاق على ذلك ؟ » ..

قال ركن الدين : « لم يتم شىء من هـذا القبيل ، والظاهر انه لم يبلغك الاتفاق الذى أبرم بين هولاكو والخليفة »

قالت سلافة : « لا .. ماذا جرى ؟ .. »

قال ركن الدين : « بعث الخليفـة وزيره مؤيد الدين الى هولاكو للتداول فى شأن ايقاف العدو ولو مؤقتا .. فعاد الوزير ونحن عند الخليفة وأبلغه انهم اتفقوا مع هولاكو على أن يخرج الخليفة بنفسه اليه على سبيل الترضية الى باب كلواذى . واذا أطللت من هذه النافذة رأيت الفراشين ينصبون الفسطاط الذى سيأتى المستعصم للقاء هولاكو فيه .. وهذا الاتفاق يمنع حدوث حرب ، ولم تبق حاجة الى دوادار ريثما نرى ماذا يكون .. »

فلما سمعت كلامه نهضت الى النافذة وتطلعت الى الطريق عن بعد ، فرأت الفسطاط يوشك أن يتم نصـبه فصفقت ولطمت

خدها وقالت : « ويلاه .. وا ذلاه .. أمير المؤمنين يخرج من قصره ليلقى عدوه على سبيل الترضية ؟ .. فقل على الخلافة وأصحابها السلام »

قالت ذلك وظهر التفكير فى عينيها ، وركن الدين صابر ، فاذا هى تقول له : « لم يبق لنا وطر فى هذا البلد ولا فائدة من الاقامة فيه .. هلم بنا .. وهذه أموالى وجواهرى وكل ما أملك بين يديك .. هلم بنا »

فقال ركن الدين : « الى أين ؟ »

قالت سلافة : « الى مصر .. »

قال ركن الدين : « نذهب الى مصر وحدنا ؟ »

قالت سلافة : « خذ من شئت من الأتباع والأعوان .. »

فنظر اليها باهتمام وقال : « وشوكار ؟ »

قالت سلافة : « ألم أقل لك عن مصيرها يا ركن الدين ؟ »

قال ركن الدين : « لا أفهم ما تقولين .. جئت من مصر الى بغداد للبحث عن شوكار .. لذلك لن أرجع بدونها .. »

فهزّت رأسها هزة الاستغراب وابتسمت وقالت بلطف : « ماذا أعمل يا سيدى ؟ .. من أين آتى بشوكار وقد قلت لك انها غرقت وأصبحت طعاما للأسماك .. »

فأجابها ببرود : « لا .. لم تمت .. لابد انها موجودة فى مكان ما .. ابحثى عنها لعلك تجدينها ، فانى لن أذهب الى مصر الا وهى معى .. » ..

فزاد استغرابها وقالت : « ماذا تعنى ؟ .. أظنك تمزح .. أقول لك ان شوكار غرقت فى دجله ، وأنت تقول لن أذهب الى مصر بدونها .. ألا يدل ذلك على المزاح ؟ »

قال ركن الدين : « كلا .. انى أقول الجد .. قلبى يحدثنى أن شوكار على قيد الحياة .. »

فأمسكت بيده وهى تقول : « اذا كنت لم تصدق تعال لأريك برهانا يقنعك وتتأكد من صدق قولى .. »

فمشى معها فمرّت فى دهليز الى غرفة تشرف على دجلة ، وتقدمت الى خزانة فى الحائط فتحتها وأخرجت صرة أخرجت منها خصلة كبيرة من الشعر ، وقدمتها اليه فحالما وقع نظره عليها عرف انها شعر شوكار فاقشعر بدنه وارتعدت فرائصه وصاح : « ما هذا ؟ » ..

قالت سلافة : « أليس هذا شعر المسكينة المأسوف على شبابها شوكار ؟ » ..

قال ركن الدين : « بلى .. ومن أين أتاك ؟ »

قالت سلافة : « جاءنى به الملاحون الذين أرسلتهم الى قصر التاج ليأتونى بها الى هنا لأجل الاستشفاء ، فجاءونى بهذا الشعر وقالوا ان السفينة انقلبت بهم فى هذا المكان (وأشارت الى نقطة فى الماء تحت القصر) وانهم حاولوا اخراجها فأمسكوا بثيابها وشعرها فغرقت وتقطع شعرها وظل فى أيديهم كما ترى .. »

فأصبح صدر ركن الدين يعلو ويهبط وهو يغلى كالمرجل من

الغيظ ، وأطرق يفكر فيما يفعله .. وأوشك أن يتأكد من اشتراك سلافة فى قتل شوكار ، فظنت أن يأسه من وجود شوكار هوّن عليه الرضا بها ، فوضعت يدها على كتفه تلطفا وابتسمت وهى تقول : « أظنك صدقتنى الآن .. آه يا ركن الدين لو تعلم ما لك فى قلبى من الحب الشديد .. لقد آن لك أن تدرك ذلك وترجع الى رشدك وتعتقد انى أتفانى فى سبيل مرضاتك ، فقد رأيت انى بذلت وسعى فى أن أجعلك دوادارا عند الخليفة فتكون أعظم قائد فى الاسلام .. ولا يغضبك ان ذلك لم يتم ، فانى قد هيأت لك سلطنة مصر ومهّدت سبيلها ، ولم يبق الا أن تصل الى القاهرة وتقبض على صولجانها .. »

— ٦٧ —

شجرة الدر وعز الدين

فوقع لفظ سلطنة مصر على قلبـــه وقعا جميلا لأنه أقصى ما يتمناه ويحلم به ، فخفف شيئا من غيظه ومال بكليته الى استطلاع حقيقة ما تقوله ، فظل ساكتا وهى تراقبه بنظرها .. فلما رأت سكوته أمسكت بيده ومشت الى شرفة فى تلك الغرفة تطل على دجلة ، وأومأت اليه أن يجلس على وسادة هناك ، وجلست هى بجانبه ، والماء يجرى أمامهما ، وركن الدين لايرى شيئا لشدة ما جاش فى خاطره .. فجلس جلوس المتحفز ، وأدركت انه يتوق

لمعرفة تفصيل ما ذكرته

فقالت سلافة : « أظنك تحب أن تطلع على تفاصيل خبر سلطنة مصر ، والذى فعلته فى سبيل اعدادها لركن الدين .. آه لو تشعر يا قاسى القلب بمقدار حبى .. يا ليتك تشعر .. ولكنك ستشعر متى علمت بما ارتكبته من الأمور العظام فى سبيل مرضاتك .. »

وتنحنحت ووضعت ضفيرة الشعر الى جانبها استعدادا للحديث ، ثم قالت : « فارقت القاهرة وأنت تعتقد أن الملك الأشرف سلطان عليها وعز الدين أيبك أتابك له »

فهز رأسه أن : « نعم »

فضحكت وقالت : « ذهب هؤلاء جميعا وذهبت شجرة الدر معهم .. »

قال ركن الدين : « الى أين ؟ .. »

قالت سلافة : « الى الموت .. »

فأجفل وقال : « كيف ماتوا ؟ .. انك تكذبين .. »

قالت سلافة : « سامحك الله على هذه التهمة .. أنا لا أكذب الا اذا كان ذلك فى سبيل مرضاتك . نعم ، قد ارتكبت فى هذا السبيل ما هو أفظع من الكذب .. ارتكبت القتل والخيانة فى سبيل ركن الدين وهو لا يزال يضن علىّ بكلمة أو لفتة .. » قالت ذلك وغصّت بريقها وتلألأ الدمع فى عينيها ، فتأثر ركن الدين من منظرها لكنه تجلد ليسمع بقية الحديث ..

فقالت سلافة : « انك تركت عز الدين أتابكا للملك الأشرف وقد رضى بذلك وشجرة الدر ساكتة قانعة بالسلامة ، ولو بقى الحال على ذلك لم يبق سبيل الى ركن الدين لنيل السلطة . وهب انه نالها فهو لايكون سلطانا بل أتابكا والسلطان من بنى أيوب . وأنا أريد أن يكون ركن الدين سلطانا كما وعدته .. أتدرى ماذا فعلت ؟ .. »

فتطاول لسماع الحديث فقالت : « أظنك تعلم منزلتى عند عز الدين ومقدار انصياعه الى لأنى كنت السبب فى ظفره بذلك المنصب بعد خلع شجرة الدر . أنا خلعت شجرة الدر ونصّبت عز الدين ، وأنا جعلت القوم يختارون سلطانا أيوبيا ففعلوا ، وصار عز الدين أتابكا .. فعلت ذلك تمهيدا لك يا قاسى القلب . وقد ذكرت لك عملى هذا ونحن فى القاهرة فلم تعبأ بقولى . وأوشكت أن أنقلب عليك وأنتقم منك .. لكن قلبى لم يطاوعنى، فظللت على حسن ظنى بك والقيام على خدمتك ، فأغريت عز الدين أولا على الملك الأشرف فألقاه فى سجن مظلم مات فيه أو سوف يموت قريبا . وقبض عز الدين على السلطنة بيده ولم ينازعه أحد فى ذلك . فأصبحت سلطنة مصر لايشترط فيها أن يكون سلطانها من الأيوبيين . بقى علىّ أن أتخلص من عز الدين ليخلو الجو لركن الدين ويكون هو السلطان .. وأنا أعلم ان لعز الدين أعوانا أشداء ولا يسهل قتله ، فأغريت به امرأته شجرة الدر . وكان قد تزوج بها فدسست بواسطة بعض الجوارى من

أبلغ شجرة الدر أن عز الدين لا يحبها وانه عازم على الزواج بابنة بدر الدين لولو صاحب الموصل . وشغلت عز الدين عن زيارتها مدة فتحققت من الاشاعة .. وأنت تعلم غلظ قلب هـذه المرأة فاشتدت بها غيرتها حتى أغرت بعض الخدم وأوصتهم اذا دخل عز الدين الحمام أن يقتلوه خنقا فقتلوه ، وقالوا أنه أغمى عليه فى الحمام فأخرجوه ، وأشاعت انه مات مصروعا (١) »

فصاح ركن الدين : « مات عز الدين ؟ »

قالت سلافة : « مات وشبع موتا .. وماتت أيضا شجرة الدر»

فقال ركن الدين : « وشـجرة الدر أيضـا ماتت ؟ وكيف ذلك ؟ » قال ذلك وقد غلبته الدهشة

قالت سلافة : «لما توفى عز الدين بايع القوم ابنه نور الدين على ، وكنت قد ربيته وهو يصغى لقولى . فلما تولى أنبأته بأن شجرة الدر هى التى قتلت أباه وحرّضـته على الانتقام له ، فأوعز الى نساء بيتـه فأماتوها ضربا بالقبـاقيب على رأسها . وطرحوا جثتها فى خندق القلعة ، فأكلت الكلاب نصفها ، ودفن النصف الباقى فى مدفن السيدة نفيسة »

فبغت ركن الدين لذلك الحديث وقال : « أنت كنت السبب فى ذلك كله ؟ » ..

قالت سلافة : « نعم .. أنا السبب فى ذلك . وقد ارتكبت هذه الأمور فى سبيل مرضاتك ، فأنت الآن اذا نزلت مصر لاتجد

---

(١) تاريخ مصر الحديث

من يقاومك ، وهذا نور الدين على فى قبضـــة يدى ، اذا شئت قتلته أيضا فتكون أنت سلطان مصر .. »

فأدهشته تلك الفظاعة من امرأة ، وخيّل له انه قبض على السلطة بيده فاختلج قلبه فى صدره .. وأطرق لحظة يفكر ، فوقع نظره على خصلة الشعر بجانب سلافة ، فعادت صـــورة شوكار الى ذهنه ، وتذكّر ان شجرة الدر كانت السبب فى خطبتها ، وان هذه المرأة الخائنة اعترفت بأنها كانت السبب فى قتل كثيرين ، وترجّح لديه انها قتلت شوكار أيضا .. وماذا يمنعها أن تقتله اذا خامرها شك فى صداقته ، أو اذا يئست منه ؟ فتحير فى أمره معها . فلما رأته ساكتا قالت : « أرأيت ماذا ارتكبت فى سبيل حبك يا قاسى القلب ؟.. وأنت تحاسبنى الآن على جارية يمكنك أن تبتاع أحسن منها بمائة دينـــار .. دع عنك الجفاء ، ولننس الماضى ونذهب الى مصر ، وعلىّ اتمام سعادتك .. وهذه أموالى بين يديك » ..

فمرّ بخاطره انه اذا أطاعها صار سلطانا وتحققت أمنيته التى طالما شغلت خاطره وتمناها قلبه .. لكنه ما لبث أن أنكر ذلك على نفسه ، وتمثلت له شـــوكار وما أصـــابها بسببه .. فنهض رغم ارادته ، فنهضت سلافة معه وهى تحسبه قد اقتنع بأقوالها ، فمد يده الى خصلة الشعر وتناولها وجعل يتفرس فيها ، فقالت سلافة وهى تداعبه : « أظنك تأسف على صاحبة هذا الشعر ، ولكن ما لك وله ، وهذا شعر امرأة على قيد الحياة تخاطبك وتتمنى

رضاك » وأشارت الى خصلة من شعرها مرسلة على كتفها

فقال ركن الدين : « وشوكار .. هل ماتت ؟ »

فقهقهت وقالت : « ألم أقل لك انها ماتت ؟ »

قال ركن الدين : « قلت لى ذلك نقلا عن الملاحين .. وقد يكونون كاذبين ؟ » ..

قالت سلافة : « بل هم صادقون ، ولماذا يكذبون ؟ »

قال ركن الدين : « قد يكون لهم غرض .. »

فنظرت اليه نظرة هيام وقد احمرت عيناها من فرط ما جاش فى خاطرها من أمره ، ثم قالت : « لقد أحرجتنى يا ركن الدين لأؤكد لك موت هذه الجارية .. انها ماتت .. وأنا دبرت قتلها وقد فعلت ذلك أيضا فى سبيل الحصول عليك ، لئلا يكون وجودها حائلا بينى وبينك ، وهى تتمة الفظائع التى ارتكبتها من أجلك .. »

فلما سمع اقرارها لم يعد يستطيع التجلد والاغضاء . ونظر الى ما حوله فلم يجد من يخشى بأسه اذا تظاهر بالعدوان ، ولاحت منه التفاتة فرأى عابدا فى الحديقة يشير اليه بيده أن يقتلها . فقال فى نفسه : « لأمر ما يلح علىّ هذا الغلام بقتلها » فاستل خنجره وطعنها فى قلبها طعنتين فسقطت على الأرض لا تبدى حراكا .. وأغمد خنجره ، وأخذ صرّة الشعر بيده ، وتحوّل الى الباب فخرج منه .. ولم يجد فى البيت أحدا يعترضه

- ٦٨ -

قصر الامام أحمد

ولما صار خارج الباب استقبله عابد والذى معه ، وأومأ اليه أن يركب وهو يقول : « لا شلَّت يمينك .. قد انتقمت لسيدتى شوكار ، اركب ياسيدى وهلم بنا »

فركب وخرج من الحديقة واذا هى خالية ليس فيها أحد من الناس ، فلما صار خارج الحديقة قال لعابد : « لمـاذا تعجلت قتلها ؟ » ..

قال عابد : « لأنى تيقنت من بعض الخدم انهـا هى التى تعمدت قتل سيدتى شوكار .. فشغلت من كان هنا من الخدم بالذهاب الى باب كلواذى لمشاهدة الخليفة قادما الى الفسطاط الذى نصبوه له ، فمضوا .. وخشيت ان تقنعك تلك الخبيثة بأنها بريئة ، فتؤجل قتلها »

فقال ركن الدين : « بورك فيك من صادق أمين .. صدقت انها قتلتها ، واعترفت لى بفظاعتها .. وأما انت فكيف عرفت انها تعمدت قتلها ؟ .. »

قال عابد : « اغتنمت فرصة انفرادى ببعض خدمها وتحدثت فى شئون عديدة ، وقصصت عليهم فظائع زعمت انى ارتكبتها بايعاز مولاى بين قتل ونهب واغراق.. وكنت أقول هذا مفتخرا ، فتحركت غيرة أحدهم وقص علىَّ كيف كلفته سلافة مع رفيق

له ان يأتيا بشوكار من قصر التاج الى هـذا القصر ، وانها أوعزت اليه سرا أن يجعل المسير ليلا ، وأن يغتنم فرصة يحتال فيها بالقاء الفتاة فى دجلة ، وقال انه لم يستطع ذلك الا قبيل وصوله الى قصرها ، لأن قاربا آخر كان فى أكثر الطريق قريبا من قاربهم لا يعرفون من فيه.. فاغتنم فرصة قص فيها شعرها بخفة ، ورماها فى دجلة وذهب بالشعر الى سيدته للتدليل على تنفيذ أمرها .. فسألته اذا كان قد رآها تغرق ، فقال انه لم يستطع ان يراها لشدة الظلام ، لكنه لايرتاب فى انها شبعت غرقا » ..

فاطمأن ركن الدين عند سماع هذا الحديث لأنه رأى سلافة تستحق القتل وقال فى نفسه : « ألا يمكن أن تكون شـوكار قد نجت بقضـاء الله .. » ولم يذكر ذلك أمام عابد ، لكنه استحثه فى سرعة الوصول الى سجن الامام أحمد .

فساق فرسه وقد أوشكت الشمس أن تغيب ، واذا بجند هولاكو يركضون من جهة برج العجمى نحو باب كلواذى ، والنـاس يفرون من بين أيديهم ، فتحوّل عابد بالفرس نحو الطريق المؤدى الى سجن الأمير أحمد ، وركن الدين يفكر فى سلافة من جهة ، وفى مصير الخليفة وأهله من جهة أخرى ، فأراد أن يلقى نظرة على بغداد فى نور الشفق عند الغروب .. فصعد الى مرتفع يطل على باب كلواذى ، وما يجاوره الى برج العجمى ، فرأى التتر زاحفين نحو المدينة وتحوّلت شرذمة منهم نحو قصر سلافة وتسلقوا أسواره ، فالتفت عابد الى ركن الدين وقال :

« هل ترى ياسيدى ؟ » وأشار بيده الى القصر

فقال ركن الدين : « أرى القوم يهجمون يريدون النهب ، ولا أظنهم يجدون من يردهم .. سيجدون سلافة مضرجة فى دمها ، وأظنهم يشتركون مع خدمها فى النهب والقتل . تلك نهاية القوم الظالمين .. كم كنت أحب أن أطلع على ما يجرى فى بغداد غدا .. هيا بنا الى الأمير أحمد » وحوّل شكيمة جواده

وقبل الوصول الى قصره رأوا الحراس وقوفا بالباب فتقدم عابد وسأل عن الأمير أحمد : « هل الأمير هناك ؟ » فأجابه الحارس : « نعم .. لكنه مشغول » ..

قال عابد : « بماذا ؟ »

قال الحارس : « عنده زائر يتحدث معه .. »

قال عابد : « استأذن لنا فى الدخول عليه .. »

قال الحارس : « لا أظنه يأذن لأحد .. لأن أمير المؤمنين يمنع الناس من مخاطبته »

فقال عابد : « نحن غرباء وقد أمسى علينا المساء قبل دخول المدينة ونطلب المبيت الى الغد .. »

فقال الحارس : « لابد من الاستئذان .. »

قال عابد : « افعل .. »

فقال الحارس : « وماذا أقول له ؟ .. »

قال عابد : « قل له اننا من مصر نطلب المبيت الليلة .. »

فذهب الحاجب وطال غيابه وركن الدين لايزال على جواده ،

وعابد واقف ، وبعد برهة سمعا وقع أقدام الحاجب ، ثم وصل ومعه رجل آخر تقدم وتفرّس فى ركن الدين وصاح : « الأمير ركن الدين ، تفضل يامولاى .. »

فعرف ركن الدين من صوته انه سحبان ، فقال : «سحبان؟» وترجل ودخل مع سحبان الى دهليز نوره ضعيف لا يسمع فيه صــوت ، وقد استولى الهدوء على المكان كأنه مقر الأموات فتهيب ركن الدين وتوقع أن يبدأه سحبان بالكلام ، فلما رآه ساكتا قال له : « انت هنا منذ وقت طويل ؟ .. »

قال سحبان : « منذ ساعة .. »

قال ركن الدين : « وهل الأمير أحمد هنا ؟ »

فقال سحبان : « نعم .. »

قال ركن الدين : « أين هو ؟ »

قال سحبان : « يلبس ثيابه للخروج مع الخليفة وأهله الى الفسطاط لمقابلة هولاكو ، كما تم الاتفاق فى هذا الصباح .. »

فقال ركن الدين : « ومن أشار عليه بذلك ؟ »

قال سحبان : « جاءه الأمر من الخليفة كما جاء لسائر الأمراء العباسيين .. »

قال ركن الدين : « وهل تركته يذهب معهم ؟ »

قال سحبان : « لمــاذا أمنعه ؟ .. دعه يذهب .. »

وظهر الغدر فى عينيه .. فتذكر ركن الدين مطامع سحبان فى ارجاع الخلافة الى الفاطميين وانه ينوى قطع دابر العباسيين من

الأرض حتى اذا لم يجد المسلمون خليفة يبايعونه هان عليهم مبايعة الخلفاء الفاطميين فتعود الدولة العلوية. ولكن هذا يخالف مطامع ركن الدين كما تقدم ، فرأى من الحزم أن يحول دون خروج ذلك الأمير من قصره فى تلك الليلة .. فاستوقف سحبان وقال له : « لاينبغى لنا ياسحبان أن نسوق هذا الأمير الى القتل»

قال سحبان : « انهم لم يدعوه للقتل .. فان رقعة الدعوة تقول انه ذاهب للتعرف الى هولاكو مع سائر بنى العباس للكف عن الحرب » ..

فضحك ركن الدين وأمسك سحبان من كتفه وهزّه وقال : « تقول ذلك لى .. وقد سمعنا خبر الاتفاق معا .. دع الرجل على قيد الحياة »

قال سحبان : « وهل يهمك بقاؤه ؟ .. »

قال ركن الدين : « هب انه لايهمنى بقاؤه .. فلا ينبغى أن يهمك قتله .. دعه .. أين هو الآن ؟ »

قال وقد تلعثم وارتبك : « أظنه خرج .. »

قال ركن الدين : « لايمكن أن يكون قد خرج .. ينبغى ان تحضره حالا فى هذه الساعة .. » قال ذلك وظهر الغضب فى عينيه ..

فخشى سحبان غضبه وعمد الى الملاينة وقال : « أراك قد غضبت أيها الأمير ولا موجب للغضب .. ان الأمير أحمد اذا كان هنا فهو يفرح بلقائك .. » وأظهر الاهتمام ومشى نحو باب غرفة

الأمير ودقه وركن الدين واقف ، فسمع الأمير يقول : « أوشكت أن أفرغ من لبس ثيابى .. »

فقال سحبان : « لا حاجة الى لبسها يامولاى .. فان ضيفا يرغب فى مقابلتك .. »

— ٦٩ —

النصيحة

ففتح الباب وأطل الأمير أحمد وقد لبس بعض ثياب الخروج، ولم يبق الا الجبة السوداء شعار العباسيين ، وقد تناولها ليلبسها فتقدم سحبان وساعده فى لبسها وهو يقول له : « أقدم لمولاى الامام الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى الذى ذكرت لك اسمه الساعة ، انه جاء من مصر وكان الخليفة قد أراد أن يعهد اليه بقيـادة الجند ، ثم جرى الاتفاق والصلح بالشكل الذى ذكرته الآن وقد جاء ضيفا على مولاى »

فابتسم الأمير أحمد وقال : « مرحبا بالأمير الباسل .. تنزل عندنا على الرحب والسعة .. » وأشار اليه أن يدخل ثم قال : « تمكث هنا ريثما أعود من مقابلة هولاكو بعد قليل .. »

فلم يتمالك ركن الدين أن قال : « لاينبغى لمولاى أن يخرج من هذا القصر الليلة .. »

قال الأمير أحمد : « ولكن أمير المؤمنين بعث الىّ أن أذهب

عملا بالاتفاق الذى عقد بينه وبين هولاكو ، وأخشى أن يترتب على تخلفى ضرر ، وقد استشرت سحبان فوافقنى على الذهاب»

قال ركن الدين : « أظنه غيَّر رأيه الآن .. اسأله .. »

فالتفت الأمير أحمد الى سحبان ، فرآه قد أسرع الى التنصل من تلك المشورة وقال : « غيرت فكرى لأن الأمير ركن الدين نبهنى الى أمر لم أتنبه له ، والأفضل أن يبقى مولانا الليلة هنا ، وسنرى ما يكون فى الغد .. »

قال الأمير : « وبماذا أجيب الرسول ؟ .. »

قال ركن الدين : « قل له انك ستنظر فى الأمر .. »

وأحس سحبان بضيق بسبب مجىء ركن الدين ، وشق عليه حبوط مسعاه ، فكتم ما فى نفسه .. وأظهر انه مضطر للذهاب فى تلك الساعة » فأذن له ، وانصرف ..

فارتاب ركن الدين فى نية سحبان بسبب خروجه .. وأعمل فكره فيما يمكن أن يكون غرضـه من الذهاب ، وعزم على أن يعمد الى الدهاء والحيلة للوصول الى غرضه الذى جعله نصب عينيه منذ نشأت مطامعه السياسية ، نعنى الوصول الى السلطنة وهى تستلزم وجود خليفة عباسى يثبته كما تقدم ، وقد اطمأن خاطره الى نيلها بعد ما سمعه من حديث سلافة ، فحالما خرج سحبان نظر ركن الدين الى الأمير أحمد وقال : « هل يعرف مولاى الامام هذا الشيعى من عهد بعيد .. »

قال الأمير : « نعم .. »

قال ركن الدين : « وهل انت على ثقة من صدق مودته ؟ »
قال الأمير : « لم يظهر لى منه ما يوجب شكا »
قال ركن الدين : « هل تظن ان الشيعة يخلصون النية فى مصلحة الخلفاء العباسيين ؟ »
فأطرق الأمير لحظة وقال : « لا أدرى .. »
قال ركن الدين : «يأذن لى مولاى أن أخاطبه بجسارة وصراحة ونحن فى هذه الساعة على باب مستقبل جديد وانقلاب عظيم »
فاستغرب الأمير أحمد هذا التعبير وقال : « وأى انقلاب تعنى .. كنا نخاف الانقلاب قبل عقد الصلح بين الخليفة وهولاكو وأما الآن فلا تلبث الأمور أن تعود الى مجاريها »
فابتسم ركن الدين ابتسامة تهكم واستخفاف وقال : « ان الذى بلغ مولاى الأمير ذلك مخدوع ، واذا كان ذلك المبلّغ سحبان نفسه فيكون قد تعمد الكذب .. لأنه يعلم يقينا ان حقيقة هذا الاتفاق تخالف ظاهره .. ان الحقيقة تقشعر منها الأبدان وتشمئز منها النفوس ، أعوذ بالله منها . وأدعو الله أن ينجى الامام أحمد من عواقبها »
فوقع هذا الكلام فى نفس الأمير وقعا شديدا ، وتهيّب مما سمعه وعظم أمر ركن الدين فى نفسه ، وأصبح شديد الشوق الى معرفة سر الأمر ، فقال : « انى أرى الجد فى كل كلمة أسمعها وفى كل حركة أراها .. قل يا أمير أفصح ، انى شديد الثقة بك »
قال ركن الدين : « لو ان مولاى أطاع سحبان وذهب فى

المهمة التى دعى اليها لأصبحت بغداد وليس فيها واحد من نسل العباس كرم الله وجهه » قال ذلك وأبرقت عيناه واشتد لمعانهما لاضطراب النور الواقع عليهما من المصباح ، فخيل للأمير أحمد انه يخاطب رسولا هبط عليه من السماء وقال : « وكيف ذلك ؟»

قال ركن الدين : « لأن ظاهر الاتفـاق بين المستعصم بالله وهولاكو أن يجتمع هذا مع الخليفة وأهله للمصافاة والمصالحة ، وأما حقيقته فهى أن يغتنم هذا التترى ذلك الاجتماع ويفتك ببنى العباس ويقتلهم جميعا »

فلما سمع ذلك ارتعدت فرائصه وخفق قلبه وقال : « وهل كان سحبان يعلم بذلك ؟ »

قال ركن الدين : « نعم .. »

فقال الأمير : « لعنة الله على هذا الخائن .. وبارك الله فيك.. انى لا أنسى لك هذا الفضل ما حييت . ولكنى أتأسف لمـا سيصيب أهلى وأمتى .. هل انت على ثقة مما تقول ؟ »

قال ركن الدين : « نعم .. وفى الغد يظهر الحق ، وعسى أن أكون مخطئا فيكون ذلك الصلح صحيحا وترجع الأحوال الى مجاريهـا ، ولا يكون من ذلك بأس على مولاى الامام ، واذا لحقته من ذلك تبعة .. فأنا أتحمل عنه كل تبعة ، وأفديه بروحى»

فازداد الامام اعجابا بركن الدين ، وهان عليه أن يستسلم له فى كل ما يأمره به لأنه أنقذه من الموت ، فأخذ يثنى عليه ولا

يعرف كيف يعبر عن امتنانه . فقال ركن الدين : « لم أقل ما عندى بعد .. »

قال الأمير : « قل أيها الصديق »

قال ركن الدين : « اذا خلت بغـداد من بنى العباس غدا فتكون الامامة قد انحصرت فيكم ، ولكنك لا تستطيع أن تظهر للناس ، فيجب أن تبقى مستترا كما استترت أئمتكم قبل ظهور دعوتكم على يد أبى العباس ، والمنصور فى بغداد ، حتى يأذن الله بظهورها ثانية فى غير بغداد . ستظهر فى مصر والقاهرة التى كانت عاصمة الفاطميين العلويين الذين يطمع سحبان هذا فى ارجاع ملكهم ، وتصير عاصمة ثانية لبنى العباس »

فازداد الأمير دهشة من هذه الأفضال المتوالية ، ورأى انه قد آن له أن يكافئه على هذه الوعود بمثلها فقال : « اذا كانت ارادة المولى سبحانه وتعالى أن يتحقق ما تقول ، وتصير الخلافة الىّ .. فالسلطنة فى مصر لا ينالها سـوى الأمير ركن الدين بيبرس » ..

فجاء هذا التصريح مطابقا لما فى خاطره وقال : « ان السلطنة ياسيدى ينالها الأقوى ، وأما الخلافة فانها حق موروث لاتوهب ولا تباع » ..

قال : « وهل فى مصر من هو أكثر جدارة للسلطنة منك ؟ »
وأطرق وأخذ يفكر فيما سمعه من الأحداث الباعثة على الدهشة ، وتصور مقتل المستعصم وسائر أهله .. فشق عليه ذلك ودمعت

عيناه ، وقال : « يشق عليّ يا أمير أن يصيب بغداد ما تقوله .. »

فقال ركن الدين : « أظن ان مولاى لا يجهل سبب ذلك .. انه يرجع الى فساد الحكم ، وضعف الخليفة ، واستسلامه للّهو والاشتغال بالغناء ، فانه لم يسمع بمغنية فى أطراف المملكة الا بعث فى استقدامها .. وأذعن للمتملقين وخاصة ابنه أبا بكر ، وغير ذلك .. مما لا يليق بصاحب هذا المنصب ، فلعل الله أزال هذه النعمة عنه ليخصّ بها من هو أهل لها » ..

فقال الأمير أحمد : « قد آن العشاء فلنذهب الى الصلاة ريثما يعدون لنا الطعام فنأكل ثم نذهب للنوم التماسا للراحة »

فقال ركن الدين : « انى طوع ارادة مولاى فى كل ما يريده الا النوم ، فان مولاى يذهب الى فراشه متى شاء ، وأنا أمكث ساهرا أراقب ما أخشاه .. ان خروج سحبان بالطريقة التى خرج بها لم يعجبنى .. ونحن على كل حال فى اضطراب كما يعلم مولاى .. »

فأعجب الأمير بيقظته وعلو همته ، وقال فى نفسه : « ان مثله يليق بالسيادة » ..

وقال : « بارك الله فيك يا أمير .. وما الذى أخافك من سحبان ؟ .. »

قال ركن الدين : « أخافنى فشله وسكوته .. ولو انه جادلنى وعنفنى على معارضته لما تملكنى الخوف مثل خوفى من كظمه ، لأن الكظم يحبس الغيظ ويزيد النقمة »

قال الأمير : « لا ينبغى أن تخاف منه لأنه يعد نفسه من أتباعنا وأصدقائنا » ..

قال ركن الدين : « لعلى مخطىء .. وعلى كل حال فانى شديد الحذر ، وان شاء مولاى فانى رفيقه فى الصلاة » فنهض الامام أحمد وذهبا للصلاة فى مصلى خاص هناك وعادا للعشاء ، وقد استحسن ركن الدين ما ظهر من تقوى ذلك الامام وتدينه وتوكله ..

— ٧٠ —

حديث ذو شجون

جلسا الى المائدة ليتناولا الطعام ، والأمير أحمد يبالغ فى إكرام ركن الدين الذى أنقذه من القتل . فقال له ركن الدين : « لم أعمل من عند نفسى ، انما كان ذلك بقضاء من الله مكافأة على حسنة من حسناتك الكثيرة »

فأطرق الامام أحمد وهو يبتسم كأنه تذكر أمرا يسر ذكره ، فتوقع ركن الدين أن يقص عليه سبب ابتسامه فسكت وأخذ يراقبه .. فقال الامام أحمد : « اعلم يا أمير انى شديد الاعتقاد بأن من يعمل خيرا يلقى خيرا .. ولعل الله بعثك الليلة لانقاذى من هذا الخطر مكافأة على حسنة وفقت الى اتيانها بقضاء من الله »

فاستحسن ركن الدين تواضعه وصبر يستمع تتمة الحديث ،

فقال الامام : « أحمد الله على ذلك التوفيق فانه من نعم المولى.. وقد وفقت اليه وأنا فى أشد الضنك ، واستبشرت من تلك الساعة..وذلك انى كنت محبوسا ــ قبل هذا المكان ــ فى قصر الفردوس وأنا صابر على السجن .. ولا ذنب لى سوى انى من آل عباس المرشحين للخلافة .. وكم شكوت الى الله ذلك ، وتمنيت لو انى من عامة الناس . .ولكن الخليفة لم يقنع لى بالسجن ، فأراد زيادة التضييق علىّ فأمر بنقلى الى هذا القصر فجأة ، ولم يسمح لى بالمبيت هناك .. فنقلونى ليلا فى سفينة نزلنا فيها بدجلة نحو هذا الوقت ، وكان النوتية ومن جاء معهم من الجند يكرموننى ويؤانسوننى ، لكن نفسى ضاقت وعظم علىّ ذلك الظلم .. وانفردت فى مكان عند مقدم السفينة أتشاغل بالفرجة على سطح الماء فى الظلام ، ويقع نظرى من حين الى آخر على سفن مارة صعودا أو نزولا ، وأستأنس بنداء ملاحيها أو غنائهم ، الا سفينة كانت سائرة على مقربة منا لم نسمع فيها صوتا .. ولم نعلم بوجودها الا من نور ضعيف كان معلقــا فى ساريتها ، وقبــل وصولنا الى هذا القصر بقليل سمعت صيحة ورأيت شبحا وقع فى الماء ، فحدثتنى نفسى بجريمة فناديت ربان سفينتنا وأمرته أن يتعقب تلك السفينة ، فلم يستطع ذلك ، لكنه عثر فى أثناء تفتيشه على غريق يتحرك ويستغيث ، فأعانه وانتشله وهو فى آخر رمق»

وكان ركن الدين يسمع الحديث وشوقه يتزايد الى اتمامه حتى اذا وصل الى هنا ، ترجح له ان الغريق الذى يشير اليه هو

شوكار ، فلم يتمالك أن صاح : « وهل هى على قيد الحياة ؟ » فاستغرب الامام دهشته وتسرعه وكيف عرف انها امرأة ، فقال : « وكيف عرفت ان الغريق امرأة ؟ .. »

قال ركن الدين : « عرفتها ياسيدى عرفتها .. قل بالله ماذا جرى ؟ .. »

قال الأمير أحمد : « فأخذ الملاحون فى معالجتها حتى أفاقت ، ورأينا شعرها مقصوصا .. وأردنا الاستفهام عن حالها ، فلم تشأ أن تقول شيئا فلم نكرهها على ذلك »

فقال ركن الدين : « هى شوكار ياسيدى .. شوكار .. دعنى أراها .. أليست هنا ؟ »

قال الأمير أحمد : « لا ياعزيزى لو عرفت انها تهمك لاحتفظت بها .. »

فقال ركن الدين : « وأين هى الآن ؟ .. »

قال الأمير أحمد : « لما وصلنا بها الى هنا وارتاحت وبدلت ثيابها وانتعشت سألناها عن شأنها ، وعما تريد أن نساعدها فيه ، فلم تزد على أن شكرت فضلنا وأبت أن تبوح بشىء .. لكن الملاحين عرفوا من شكل السفينة ان الفتاة من جوارى الخليفة حكم عليها بالغرق . ولم يتجاسر أحد منا أن يقص خبر هذه الفتاة على أحد . لكننى سألتها بعد بضعة أيام اذا كانت تعرف أحدا من بغداد تريد أن تذهب اليه . فقالت : انها تعرف سحبان وتريد من يوصلها اليه ، فتنكرت بملابس الرجال ، وسهل ذلك

عليها قصر شعرها ، وأرسلنا معها أحد الخدم يوصلها الى الكاظمية الى بيت سحبان ، وكان ذلك فى صباح هذا اليوم ، ولما جاءنى سحبان ورأيته عندى لم يكن له علم بوصولها بعد »

فأطرق ركن الدين وقد ثارت عواطفه وتضاربت أفكاره وسرّ كثيرا لنجاة شوكار ، لكنه أسف لذهابها الى بيت سحبان ، ولا سيما بعد أن وقع ما وقع بينهما فى ذلك المساء .. وأصبح الامام أحمد فى شوق الى معرفة علاقة شوكار بركن الدين ، فسأله عن ذلك فقص عليه خلاصة تاريخ تلك العلاقة من مصر وما ارتكبته سلافة الى آخر الحديث ، فتأسف الامام أسفا شديدا لأنه بعثها الى بيت سحبان ، لكنه لم يلم نفسه لأنه لم يكن يعلم علاقتها بالأمير ركن الدين ..

— ٧١ —

الضوضاء

وبينما هما فى ذلك اذ سمعا ضوضاء فى حديقة القصر .. فاستغرب الامام ذلك ، لكن ركن الدين لم يستغربه بل كان يتوقعه وقد استبطأه ، فأومأ الى الامام أن يمكث مطمئنا ، ووثب كالأسد حتى وصل الى الباب ، فرأى أحد الحراس قد دخل وأغلق الباب خلفه وهو فى اضطراب شديد ، فقال له ركن الدين : « ما بالكم ؟ .. »

قال الحارس : « التتر ياسيدى .. دخلــوا الحديقة وهم يطلبون القبض على مولانا الامام ، وقد غضبوا لأنه لم يأتهم من تلقاء نفسه » ..

قال ركن الدين : « اخرج وقل لهم انى خارج لهم بنفسى »

قال الحارس : « ولكنهم يطلبون الامام والا فانهم يهاجموننا بالقوة ويقتلون الامام وسائر من فى هذا القصر .. »

وسمع الامام حديثهما فهرول وتوسل الى ركن الدين أن لا يعارض التتر فيما يريدون ، وانه يفضــل الذهاب معهم الى الفسطاط خوفا من القتل ..

فأشار ركن الدين اليه قائلا : « كن مطمئنا يامولاى .. لا يمكن لهؤلاء أن يمسوا ظفرا من أظافرك ، قبل أن يستباح دمى .. »

قال الأمير أحمد : « وما الفائدة من اباحة دمك اذا فاز أولئك التتر علينا ، وهم فائزون لأنهم أكثر عددا وأقوى عدة »

قال ركن الدين : « لا تخف .. انهم لن يفوزوا باذن الله .. »

قال ذلك وصعد الى كوة فوق الباب وأطل منها على الحديقة ، فرآها مزدحمة بالنــاس بينهم حملة المشاعل للانارة ، وحملة النبابيت والسيوف ، وقد علا ضجيجهم ، وتعالت غوغاؤهم ، وفى مقدمتهم رجل يظهر من هندامه انه كبيرهم وبجانبه سحبان ، فلما رأى سحبان معه تحقق ظنه منذ خرج من القصر على تلك الصورة فناداه : « سحبان .. »

فرفع سحبان بصره الى ركن الدين وقال : « لابد من تسليم الأمير أحمد لأن خبره وصل الى الخاقان هولاكو ولم يعد فى الامكان اخفاؤه » ..

قال ركن الدين : « انى لا أرى حاجة الى تسليمه »

قال سحبان : « لكن الخاقان أمر بالقبض عليه حالا ، والا فان الجند يهاجمون القصر ويقبضون عليه بالقوة .. »

قال ركن الدين : « انهم لا يفعلون ذلك ، ولا يخطر على بالهم أن يفعلوا ذلك لولا سحبان .. فارجع بهم وذلك خير لك »

قال سحبان : « لا أعلم سبب تعرضك لهذا الأمر أيها الأمير وأنت فى غنى عنه .. »

قال ركن الدين : « وأنت أيضا فى غنى عن هذه الدسائس »

قال سحبان : « فاتنى أن أخبرك ان شوكار عندى ، وأنت انما جئت هذا البلد من أجلها ، فانى أسلمها لك .. ودع هـذا القصر .. »

فلما سمع قوله أحس بانقباض لأن سحبان يهدده بشوكار كأنه يقول له : انه اذا لم يطعه آذاه فيها ، فوقع فى حيرة فقال : « وماذا تعنى بذلك ؟ .. وما دخل شوكار فيما نحن فيه ؟ .. »

قال سحبان : « لا أعلم .. والآن افتح هذا القصر والا دخله الجند بالقوة ، وأنت تعلم نتيجة ذلك .. ولا يفوتك أمر شوكار»

وكان الامام أحمد واقفا بجانب ركن الدين ، وهو يحرضه على التسليم ولا سيما بعد أن سـمع هـذا التهديد فيه وفى

شوكار ، ولكن ركن الدين أبى أن يصغى لذلك التحريض ..

ولما أبطأ ركن الدين فى الاجابة ، قال له سحبان : « لا تقل ان صديقك سحبان غدر بك .. فانى نصحتك مرارا وأعيد النصح الآن أن تسلم .. فأنت ومن فى القصر فى قبضة الجند ، ولن ترى شوكار أبدا .. »

واذا بصوت صاح فى وسط الضوضاء قائلا : « لا تصدق أيها الأمير .. ان شوكار معنا فى أمان .. » وعرف ركن الدين انه صوت عابد ، فصدّقه وأحس بانفراج الأزمة .. فقويت عزيمته ، ونظر الى سحبان وقال : « لم أكن أتوقع أن تحرض الجند علينا يا سحبان .. »

فقال سحبان : « لم أحرضهم ، ولكنهم قادمون بأمر من الخاقان .. »

قال عابد : « كذبت .. ان الخاقان لم يأمرهم بذلك بعد أن أعطانى الأمان أنا وسائر أهل هذا المنزل ، وهذا علم الأمان انظروه .. » قال ذلك وأخرج العلم الذى كان أعطاه اياه مؤيد الدين ، ونشره فى النافذة فظهر جليا للناظرين . وحالما رآه الجند التترى طأطأوا رءوسهم اذعانا وتحولوا من الحديقة راجعين ، وسار سحبان فى أثرهم كالهارب الفاشل ، وركن الدين يتابعه بنظره وقلبه يرقص فرحا بذلك الفوز ، والامام أحمد يضمه ويقبله شكرا له ..

فنزل ركن الدين الى صحن الدار ، ونادى عابدا وسأله عن

شوكار فقال : « هى هنا ياسيدى .. علمت بخروجها من هذا القصر من الخادم الذى أخـذها الى الكاظمية ، فذهبت اليها وأتيت بها لعلمى ان وجودها هناك يسبب عراقيل كثيرة »

فقال ركن الدين : « بورك فيك من صديق غيور ، انك لست خادما .. وهذه الأريحية والشهامة جديرة بالصداقة » . ففرح عابد لهذا الاطراء وقال : « اذا شئت ان ترى شوكار فتفضل الى غرفتها » فمشى ركن الدين مسرعا الى تلك الغرفة ، فرأى شوكار لا تزال متنكرة بثوب أحد الخصيان .. فلما رأته لم تتمالك عن البكاء من شدة الفرح ، وترامت على ركبتيه تقبلهما.. فأنهضها وقبل رأسها وقال : « الحمد لله على سلامتك ياحبيبتى.. نشكر الله على هذه النعمة ، والفضـل الأكبر فى ذلك لمولانا الامام حفظه الله .. »

قال الامام : « الفضل كله لك أيها الأمير .. وأهنىء شوكار بهذا النصيب » ..

والتفت ركن الدين الى عابد وقال : « كيف عرفت يا عابد خبر شوكار ؟ .. »

قال عابد : « كنت جالسـا فى الحديقة وصرة الشعر معى فسألنى أحد الخدم عن خبرها ، وحالما رآها صاح : ما أشبه هذا الشعر بشعر الفتاة التى وجدناها فى دجلة .. وبعد أخـذ ورد فهمت ان شوكار حملت الى منزل سحبان كطلبها ، فذهبت بأسرع من لمح البصر وأتيت بها متنكرة كما تراها .. »

فكرر الثناء عليه .. فلم يعبأ بذلك ، لكنه قال : « لا ينبغى لمولاى الامام أن يبقى هنا لحظة واحدة .. »

فقال ركن الدين : « لماذا ؟ .. »

قال عابد : « لأن التتر وان عادوا الآن من هذا القصر فان سحبان لا يلبث أن يذهب بنفسه الى الخاقان أو غيره ، ويخبره بوجود الامام هنا فيبعث فى طلبه .. لأنى شاهدت فى طريقى من الفظائع ما لايخطر ببال بشر .. »

فقال ركن الدين : « ماذا شاهدت ؟.. هل نزل التتر بغداد ؟ »

قال عابد : « نزلوا دور الخلافة ومعهم هولاكو بنفسه فتفقد تلك القصـــور .. وأخرج من فيها من النساء ، وفرّقهن على رجاله .. »

فقال الامام أحمد : « والخليفة .. ماذا فعلوا به ؟ .. أين هولاكو ؟ .. »

قال عابد : « بلغنى ان مؤيد الدين الوزير حرض بنى العباس وسائر وجوه الدولة على الخروج الى الفسطاط فقتلهم التتر عن آخرهم ، ثم هجموا عند الغروب على قصور الخلافة وقتلوا كل من وجدوه هناك من أبناء الخلفاء ، ومن كان منهم صغيرا أخذوه أسيرا ، والقتل الآن مستمر فى بغداد .. فان باجو عبر الجسر الى الكرخ وغيرها ، وأخذ رجاله فى النهب والقتل .. وبلغنى ان الكتب التى كانت فى خزائن قصور الخلافة أخرجوها وألقوها فى دجلة وهى شىء لايحصى لكثرته .. وسمعتهم يذكرون اسم

مولاى الامام وسبب تغيبه لأنهم لم يجدوه فى قصر الفردوس كما كانوا يظنون : ولذلك قلت لكم لابد من السرعة فى الخروج الآن .. »

فوقع الرعب فى قلب الامام أحمد ، فالتفت ركن الدين الى عابد وقال : « انت من أهل هذه البلاد ، فأرشدنا الى مكان نختفى فيه مولانا حتى تستقر الحال .. »

فأشار مطيعا ، وقال : « ذلك علىّ .. فأمروا بأخذ ما خف حمله وغلا ثمنه واتبعونى .. »

فاشتغل أحمد وخادمه بذلك ، فحملوا أحمالهم وركبوا قبل الفجر وعابد يمشى فى مقدمتهم حتى خرجوا من بغداد ، وبلغهم فى اليوم التالى ان التتر يتعقبونهم .. فلم يروا بدا من الالتجاء الى بعض قبائل العرب ، فالتجأوا الى قبيلة من قبائل العراق مكث عندها الامام ومعه عابد

أما ركن الدين فلما اطمأن باله على الامام ، أوصى عابدا عليه وسافر الى مصر ومعه شوكار .. وحالما وصل الى هناك ، كتب كتابه على شوكار ، ووجد سلطانها نور الدين بن عز الدين كما قاله له سلافة ، فحرّض الأمراء على التذمر منه لأنه غلام لا يصلح للحكم .. وبايعوا بعده سيف الدين قطز سنة ٦٥٧ هـ ، لأنه من سلالة ملوك خراسان ، فصبر ركن الدين على ذلك وهو يسعى لتحقيق أمنيته ليتم له ما دبره من أمر نقل الخلافة الى مصر

وفى السنة التالية زحف هولاكو على سورية ، وبعث يهدد



« .. ثم هجموا عند الغروب على قصور الخلافة وقتلوا كل من وجدوه هناك من ابناء الخلفاء ، ومن كان منهم صغيرا أخذوه أسيرا .. »

قطز فشاور الأمراء فأشاروا عليه بالحرب ، وفى مقدمتهم ركن الدين ، فجرد حملة سار ركن الدين فيها .. واضطر هولاكو الى الرجوع لموت والده ، وأخذ معظم جيشه معه .. والتقى ما بقى من رجاله بجيش قطز فى فلسطين فى معركة فاز فيها المصريون وعادوا ظافرين .. فاغتنم ركن الدين فرصة فى أثناء رجوعهم وقتل قطز ، وكان قد تواطأ على ذلك مع رفاقه الأمراء .. ورضوا أن يتولى هو مكانه ، فنادوا به سلطانا على مصر سنة ٦٥٨ هـ ، ولقب بالملك الظاهر .. وحالما استقرت قدمه ، بعث فى استقدام الامام أحمد ، فجاءه فى السنة التالية فبايعه خليفة ، ولقّبه بالمستنصر بالله .. وصارت الخلافة العباسية بمصر منذ ذلك الحين ..